فقه الدعوة

من قصة موسى عليه السلام

د/ محمود محمد محمد عمارة
أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت: ٣٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة - أمام جامعة الأهر

تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

نشرت هذه الأفكار فى كتابى «فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام» ولما طلبت منى الإذاعة السعودية إعداد برنامج «المنهج الإسلامى فى الدعوة» أعدت النظر فى هذه الأفكار فكانت هذه الأحاديث.. المسبوقة بتمهيدات لابد منها.

ولقد دخلت على هذه الأفكار تغييرات ملحوظة.. ترتب عليها فصل موقف «مؤمن آل فرعون» ليكون كتابا مستقلا كهذا الكتاب وكان من قبل حديثا مقتضبا ملحقا بالكتاب فى طبعته الأولى والثانية.

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ [هود: ٨٨].

د. محمود محمد محمد عمارة

حاجتنا إلى الدعوة

معنى الدعوة:

الدعوة: من الدعاء إلى الشيء. بمعنى الحث على قصده. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥].

ومثلها الدعاية. وفى كتاب هرقل: أدعوك بدعاية الإسلام: أى بدعوته وهى فى العرف: حث الناس على الخير والهدى. والأمر بالمعروف. والنهى عن المنكر. ليفوزوا بسعادة العاجل والأجل.

المراد بالدعوة:

ومن هذا التعريف يتضح المقصود بكلمة الدعوة عند إطلاقها. . . وهو: الدعوة إلى الله. قال صاحب القاموس: والرغبة إلى الله تعالى. أو الدعوة إليه تعنى: الدعوة إلى دينه وهو الإسلام: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

معنى الوعظ:

وإذا كانت الدعوة فى جوهرها: إقامة نظام الحياة ليتسق مع أصول الإسلام. . فإن الوعظ هو: استشارة المشاعر. وترقيقها. . وحفز الهمم من مراقدها لتنشط. . وتنبعث عاملة بهذا الدين المدعو إليه.

إنه عملية قلبية عاطفية. تقوم بدورها الفعال، حتى إذا عرضت حقائق الإسلام على العقل. . كانت أشواق القلب دافعا إلى قبولها. . بل والدعوة إليها. .

هل نحن فى حاجة إلى الدعوة؟

وبصورة أوضح:

١ ـ فينا كتاب الله تعالى.

٢ ـ وسنة نبيه المطهرة.

٣ ـ وحوادث التاريخ بين أيدينا ومن خلفنا.

٤ ـ وفينا أيضا واعظ الضمير فى كياننا.

فهل نحن مع هذا فى حاجة إلى دعوة ودعاة؟ يقول أناس: لا فائدة. وربما وصل التشاؤم ببعض الناس حدا أنكروا فيه أن يكون للوعظ قيمة.. لا من حيث توفر العوامل السابقة فقط.. بل لأن طبيعة الإنسان لا أمل معها فى العودة إلى الطريق المستقيم إذا هى حادت عنه.. يعنى: لا أمل فى الإصلاح.. وقد يأخذ الأمر شكل مؤامرة يراد بها وقف المد الإسلامى الزاحف.. وبث اليأس فى قلوب تندفع على طريق الإصلاح راغبة إلى ربها. ثم يخدرها الماكرون بمثل هذا المنطق:

«لا داعى للتهور دفاعا عن الإسلام.. لماذا؟ لأن للدين ربا يحميه!!».

آراء المتشائمين والمغرضين[1]

رأى البراهمة:

قالوا: لا جدوى من الإصلاح... ولا علاج إلا بواحد من سبيلين:

إما بالزهد.. فراراً من الحياة. وإما بتقديم النفس قربانا للنار، يصير بها الإنسان رمادا.

وفى إمكاننا أن نقول رداً عليهم: إن اللجوء إلى أى من وسيلتين أحلاهما مر... إنما يكون لو لم نجد هناك طريقاً آخر للخلاص.. أما وقد فتح الحق سبحانه وتعالى طريق العودة إليه أمام المسرفين على أنفسهم، مهما كانت الذنوب أحجاماً وأعداداً... فإن فرصة الإصلاح أذن متاحة.. والأمل فى العلاج قوى.

ونحن فى حاجة إلى حداة مخلصين على طريق العودة... يمهدونها تمهيداً أمام السالكين... ليستأنفوا السير من جديد على سواء الصراط.

رأى أبى العلاء:

وإذا كان البراهمة منطقيين مع أنفسهم وزمانهم وبيئاتهم... فما لرجل كأبى العلاء المعرى يرفض النصيحة ويشك فى جدوى الموعظة الحسنة فى مثل قوله:

وما قبلت نفسى من الخير لفظة ... وإن طال مافاهت به الخطباء؟!

كيف يقول بهذا مع أنه وقف واعظاً آمراً ناهيا بما روى من شعره الزاهد فى الدنيا... والذى يستحث الخطى إلى الدار الآخرة؟ وكيف يحرم على غيره ما أباح لنفسه؟!

ثم إنه رجل مسلم.. وتاريخ الإسلام حافل بما صنعته الكلمة الطيبة فى عصور الظلام وكيف خرج بها الناس من الظلمات إلى النور؟! وإذا لم يقبل هو من الخير لفظة... فقد قبل غيره.. وأحس فى كيانه بالتغير إلى الأفضل.. فهو إذن استثناء

---

(١) يراجع فى هذا الموضوع: كتاب الدعوة إلى الله: للشيخ أبو بكر ذكرى ـ رحمه الله ـ.

من القاعدة. . ويأسه من الحياة لا يصح أن يكون هو القاعدة لحياة حافلة بنماذج تتناول أمور عيشها عاملة آملة صالحة مصلحة.

وإذا لم تؤثر كلمة الخير اليوم. فسوف تؤثر غداً أو بعد غد.

بل إن حق المسرفين فى الموعظة لا يسقط بالتقادم، وواجب الدعاة تخولهم بالموعظة بلا يأس وإن طال بهم المدى.

على أن تعريف الدعوة مأخوذ فيه معنى الحث. . والإلحاح. والحض باستمرار. كما يفهم ذلك من نص التعريف الآنف الذكر.

وذلك يعنى بالضرورة دوام التذكير. . والأصل فى ذلك قوله تعالى: **﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾**؟

• ولمن وصل الله تعالى القول؟

لهؤلاء المذكورين فى الآية السابقة مباشرة:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

فإذا لم يستجب القوم للموعظة. . فإن الأمل فى الهداية باق. . ولعلهم يتذكرون. فيؤمنون.

إن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة يجعل من الاستجابة أمرا بعيدا بعدما تبين من الهدى: **﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾**:

لكنه مع هذا لا يطلب منه ـ ﷺ ـ أن يعرض عنهم وينفض يده من تذكيرهم. . إنه سبحانه يلفت نظره إلى علة الإعراض هنا وهو: الهوى المتبع.

وتلك صورة من الانحراف تضع صاحبها فى مقدمة الضالين. . وعلى رأس قائمة المنحرفين عن جادة الصواب.

وإذن. . فيمكن للقوم. . إذا رأوا يوما أنوار الحقيقة ـ أن يعدلوا موقفهم ويستديروا ليستقبلوا النور الوافد.

وتلك نتيجة متوقعة لو تخلصوا من تحكم الهوى، ولهم على نفس الطريق إخوة سبقوهم بالإيمان. . . ولا تواجههم الآية بالظلم لكنها تقرر حقيقة عامة. . لا تشتبك اشتباكا مباشراً مع القوم: فلعل وعسى أن تتغير القلوب. . . ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ومعنى ذلك أن الظلم منشأ الضلال، فإذا تحرر الإنسان من ربقته تحرر فى نفس الوقت من الضلال، وأسلم زمامه لهداية السماء.

ولو تأملنا الآيات الكريمة التالية لوجدناها تعرض نماذج لأناس تلى عليهم الذكر فآمنوا بعدما كفروا. . وإنها لتتحدث عن سماحة أنفسهم وبشاشة قلوبهم. . ثم عن ما ادخر لهم من الثواب المضاعف، مما نعتبره تشجيعاً للمعاندين. . لينقلوا خطاهم على نفس الدرب. ليصلوا إلى نفس المصير، ولن يتم ذلك إلا بالدعوة. . والدعوة المستمرة. . بلا يأس ولا ضجر.

وذلك قوله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

شواهد من السنة:

لما أسلم الطفيل بن عمرو الدوسى. . أعاده الرسول ﷺ إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام. . . ولما دعاهم إلى مثل ما آمن به. وطالت دعوته. وكان قبل هذا مسموع الكلمة فيهم. . أحس بشىء من الحرج. . الذى حمله على العودة إليه ﷺ فقال:

إنه قد غلبنى على «دوس» الزنا. فادع الله عليهم فقال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم اهد دوسا**».

ثم قال له: «**ارجع إلى قومك: فادعهم. وارفق بهم**».

ونلاحظ هنا أن اليأس قد استبد بالطفيل فطلب إهلاكهم ولكن الرسول الكريم أمره أن يستمر فى دعوته، شريطة أن يغير خطته بمعنى أن يمارس جولته الجديدة بلا

إحساس بمركزه وسابق عهده فيهم فإن من شأن ذلك الإحساس أن يفسد خططه.. كلما تذكر كلمته التى لم تعد مسموعة.

وعليه أن يترفق بهم فإنهم بهذا الرفق واصلون معه إلى حيث أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ.

إن الموعظة الصادرة من قلبك قد لا تصادف قلباً خالياً لتتمكن منه، لكن ذلك القلب الجامد قد يحملها إلى من هو أوعى منه وأقرب إلى التقبل والالتزام. (وليبلغ الشاهد منكم الغائب).

وربما بقيت الكلمة الطيبة بذرة فى النفس. لا تورق ولا تثمر.. إلى أن يتهيأ المناخ.. وتستعد التربة. ويسمح الجو.. فتنبت من كل زوج بهيج.

ولن يتم ذلك كله إلا بدوام الموعظة.. ونبذ اليأس.. الذى هو أساساً غاية الشيطان.. الراغب فى ظروف أنسب لعمله هو.

وعلى فرض أن الطفيل لم يحقق نجاحاً فلا عليه. والأمر كما يقول الشاعر:

«ومبلغ نفس عذرها مثل منجح»

أى إذا كنت تأخذ سبيلك لتحقيق هدف معين.. فإن وصلت إليه.. فبها.. وإلا فأنت كالذى نجح فى تحقيق مثله تماما ما دمت قد بذلت أقصى جهدك ولم تدخر وسعا.

وعلى فرط عداوة أبى جهل للرسول ﷺ.. وضياع الأمل كلية فى هدايته.. إلا أن ذلك لم يمنع الرسول الكريم من أن يكرر دعوته بالكنية - يا أبا الحكم - توددا إليه. وتطلفا به..

وأكثر من ذلك كله.. فإننا نطالع قوله ﷺ: **«كنت بين شر جارين: أبى لهب، وعقبة بن أبى معيط، إن كانا ليأتيان بالروث فيطرحانه على بابى»** كما روى صاحب السيرة الحلبية.

لكنه يروى إلى جانب ذلك موقفه عليه.. والسلام. البالغ بالأمل منتهاه.. حين قال: إن رسول الله ﷺ كان يكثر من مجالسة عقبة بن أبى معيط ليدعوه

إلى الإسلام.

وليس بيننا اليوم من هو أفدح جرما من عقبة.. ولا من هو شر من أبى جهل وأبى لهب.

ويحملنا ذلك على الاحتفاظ بقدر من الأمل فى قلوبنا.. يحملنا على التذكير على رجاء أن تنفع الذكرى.. إيمانا منا بطبيعة الإنسان وتطلعنا إلى صحوة أو انتفاضة واحدة من تحت رماد الغفلة يصير بها المعاند خلقا آخر.. وتاريخ الإسلام شاهد على ذلك.

يقول المرحوم الشيخ على محفوظ فى كتابه«هداية المرشدين»: إن الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها. وكثيرا ما تودى بحياتها، إذا لم تسعف بالعلاج الناجح. قبل استفحالها واشتداد خطرها. والقلوب كالأجسام: يعرض لها من العلل والأمراض ما يطفئ نورها. وقد يفقدها حياتها. وذلك يوردها مورد الضلال والغى. وانهماكا فى اللذات والشهوات وعدم المبالاة بأنواع الفسق والفجور. وسيئات البدع.. ونبذ الآداب الدينية والأخلاق المحمدية.. فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها قال تعالى: ﴿ **بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين: ١٤].

كل ذلك يحملنا على الاعتقاد بأهمية الدعوة وحاجة المجتمع إليها، لا سيما وطبيعة الإنسان معدة لتقبل دواعى الخير مهما ارتكبت من المعاصى.. إنها صالحة للاعتبار دائما.. ومن واجب الدعاة ألا ييأسوا من ملاحقتها بالعلاج كلما كان الوقت مناسبا.. والظروف مواتية.

وإلا.. فإن الاستسلام للعلة مجافاة لروح الإسلام الذى يؤكد دائما على قبول التوبة مهما كان حجم الذنوب.. ومهما كان عددها أيضا.

وذلك يعنى بالدرجة الأولى الثقة بلا حدود فى صحوة الضمير وتقبل العلاج من قبل عصاة بلغوا فى الانحراف حد التشبع.. فلنقل كلمتنا.. فقد تصادف نفسا أرهقتها الخطيئة.. وتبحث عن الخلاص. قال بعض الحكماء.

(الموعظة موقظة للقلوب من سنة الغفلة، ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة. ومحيية لها من موت الجهالة، ومستخرجة لها من ضيق الضلالة).

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان معبرا عن وجهة نظر القائلين بالتذكير على أى حال؟

القول الثانى: يجب الاحتساب سواء نفع أو لم ينفع. لأن احتسابه قيام منه بواجب شرعى. فلا يتوقف على انتفاع الغير به.

ولأن على المسلم أن يؤدى ما عليه. وليس عليه أن يقوم الغير بما عليه مثل ترك صاحب المنكر منكره وأجابوا على احتجاج أصحاب القول الأول ـ المانعين للتذكير إذا لم ينفع ـ بأن الآية الكريمة:

﴿**فذكر إن نفعت الذكرى**﴾ لا تعلق الوجوب على حصول الانتفاع للأدلة الآتية:

١ـ أن المعلق «بإن» على الشيء. لايلزم أن يكون عدما عند عدم ذلك الشيء. يدل على ذلك آيات منها:

﴿**فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ**﴾.. [النساء: ١٠١] فإن القصر جائز وإن لم يوجد الخوف.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ**﴾.. [البقرة: ٢٨٣] والرهن جائز مع وجود الكاتب.

٢ـ أن ذكر الشرط فى الآية الكريمة: ﴿**فذكر إن نفعت الذكرى**﴾ لفوائد منها: أنه سبحانه وتعالى ذكر أشرف الحالتين عند التذكير وهى حالة الانتفاع.. كما قال تعالى: ﴿**سرابيل تقيكم الحر**﴾ وتقدير الآية: وتقيكم البرد.. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**فذكر إن نفعت الذكرى**﴾ فذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع.

ومن الفوائد أيضا:

أن المراد الحث على الانتفاع بالذكرى كما يقول الشخص لغيره إذا بين له الحق: قد أوضحت لك الأمر إن كنت تعقل. فيكون مراده الحث على القبول.

وقفة مع المفكرين الغربيين

ذكر الدكتور المرحوم محمد عبد الله دراز رأى بعض الفلاسفة الغربيين فى مفهوم الأخلاق عندهم.. وفى إمكان تغييرها من حال إلى حال.

*.. «شوبنهور» الفيلسوف الألمانى قال:

يولد الناس أخيارا أو أشرارا كما يولد الحمل وديعا.. والنمر مفترسا وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم.. كما يصف التاريخ الطبيعى «حياة الحيوان» (مبادىء علم الأخلاق للمرحوم د/ دراز ص٦).

*.. الألمانى «كانت»:

إن الذى يشاهد موقف الإنسان فى ظرف معين ويعرف سوابق تصرفاته فى مثل هذا الموقف.. يستطيع أن يتنبأ صادقا بما سيفعله فى مثل هذا الظرف المعين.. كما يتنبأ العالم الفلكى بكسوف الشمس، وخسوف القمر فى ساعة محدودة «المرجع السابق».

*.. سبينوزا الهولندى:

(إن أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية تحدث. ويمكن استنتاجها بالضرورة المنطقية الهندسية كما يستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه الثلاث تساوى زاويتين قائمتين) المرجع السابق.

*.. «ليفى برول» الفرانسى:

أن ميولنا الحسنة أو القبيحة التى نجيء بها إلى هذا العالم عند ولادتنا هى طبيعتنا.. فكيف نكون مسؤولين عن طبيعة هى ليست من عملنا. أو على الأقل ليست من عملنا الشعورى الاختيارى «المرجع نفسه».

*.. هيوم الإنجليزى»:

(إن شعورنا بالمسئولية ليس إلا وهما وخداعا).

مناقشة هذا الاتجاه

حين عزل الغرب الدين عن منصة الحكم، ومضى وحده فى التيه، ارتكب خطأين:

الأول: تحكيم العقل فيما وراء الطبيعة، فتاه دليله، ومضى بين ركام من الظنون شقى بها طويلا.

الثاني: الاعتماد على الضمير فى مجال الأخلاق، فضلوا وأضلوا.. لأن الضمير الذى لا يستمد نوره من الوحى السماوى.. ومن الإيمان بالآخرة يتخبط فى الحكم، وتصبح الأخلاق فى تقديره أمرا اعتباريا، يتلون حسب الأمزجة، والأمكنة.

هذا الضمير الذى أباح للبرازيل أن تلقى بفائض البن لديها، فى البحر. وسول لامريكا أن تلقى بفائض القمح عندها، إلى نفس المصير!

فى الوقت الذى تتواطأ فيه القوى المعادية لإرخاص المواد الخام لدى الشعوب المحتاجة فعلا إلى هذا القمح، وذلك البن!!

فلا هى بالتى أطعمت الشعوب المتخلفة من جوع، وفضلت عليها أسماك البحر، ولا هى بالتى أنصفت ثلثى سكان الكرة الأرضية فأعطتهم ثمنا يناسب ما لديهم من إمكانات وخامات، إنها تسلب، ثم ترد إلى هذه الشعوب بأعلى الأثمان.

هذا هو الضمير الغربى، وتلك هى الأخلاق فى نظره!

والقوم هناك منطقيون مع أنفسهم:

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه   وتنبت إلا فى منابتها النخل؟!

والشيء من معدنه لا يستغرب كما يقولون.. ولكن الإسلام شيء غير هذا... ولدينا نحن المسلمين ما نرد به هذا التصور.. وما يترتب عليه من أحكام جائرة: وإذا قرر «كانت» إمكان التنبؤ بموقف الإنسان بناء على مواقف سابقة مشابهة.. فنحن نتساءل: هل كان من الممكن ـ بهذا المقياس ـ التنبؤ بموقف عمر

رضى الله عنه.. عندما دخل على أخته.. ونزع ما فى يدها من آيات قرآنية.. مست شغاف قلبه فحدث التغير الكبير؟!

كان المتوقع حينئذ.. أن يثور.. وتسيل الدماء هنا وهناك، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن.. وأعلن الفاروق إسلامه فى ظروف ما كانت تخطر على بال أحد. وقل مثل ذلك فى عكرمة.. وخالد بن الوليد.. وغيرهم من الرعيل الأول.

وإذ يقرر «شوبنهور» أن دور علم الأخلاق لا يتعدى وصف واقع الإنسان الذى لا يمكن تغييره.. كما لا يمكن تحويل النمر إلى حمل.. والعكس.. إذ كان يقرر ذلك.. فإنما يتحدث عن علم الأخلاق فى منطق الغرب. إن للنظرية الأخلاقية الإسلامية فاعلية وإيجابية.. تمتلك بهما زمام الإنسان لتنقله من محيط إلى محيط كما يقولون... وهى ضد السلبية الواقفة عند حد التسجيل ووصف الواقع كما هو الشأن هناك.. إن الحياة أرقام وأحجام.. ومقدمات تسلم إلى نتائج، هكذا فى نظام آلى رتيب.. بينما الإسلام ـ كما قلنا ـ قوة فاعلة مؤثرة.. لا ترضى بالواقع.. ولا تستسلم له.. لكنها تروضه على فعل الخير استعلاء به على نوازع الشر العارضة على طبيعته..

يقول المرحوم الدكتور دراز[1]:

(إن القرآن حين يعرض نظريته عن الحق وعن الفضيلة.. لا يكتفى بأن يذكر بها العقل، ويثير أمرها باستمرار أمام التفكير والتأمل.. وإنما يتولى هو بنفسه التدليل على ما يقدم.. ويتولى تسويغه.. وفضلا عن ذلك. فإن طبيعة استدلالاته. والطريقة التى يسوق بها الدليل.. قد اختيرت كلتاهما على وجه يفحم أعظم الفلاسفة دقة. وأشد المناطقة صرامة، فى الوقت الذى تلبى فيه أكثر المطالب واقعية كما تروق أرقى الأذواق الشعرية وأرقها. وأبسط المدارك وأقلها).

إن العقل يعرف الفضيلة بآثارها فى واقع النفس وواقع الحياة.. ومن ورائه الوجدان يحرك الإنسان للتنفيذ.. بل الاقتناع بأهمية الفضيلة.. ولو لم يكن من ورائها نفع مادى..

---

(١) مقدمة دستور الأخلاق فى القرآن.

فما هو الأمر هناك؟

قلب مغلق على عقيدة دينية متحجرة.. لا تناقش.. بل تستسلم لما لا تعلم.. ثم.. فى نفس الوقت عقل مبهور بالعلم الحديث.. ولا يعترف بهذه العقيدة.. ولا بالدين إلا طقوساً ومراسم.. أى أن الكيان الإنسانى مضموم على أشد أنواع التناقض.. ومع هذا يتغنى بالبحث العلمى النزيه؟!

أى معنى للبحث وللنزاهة يبقى مع هذا التمزق.. والصراع داخل الكيان البشرى؟ بل أية حضارة يمكن أن تؤسس على هذه الكيانات الهشة؟

وجاءت مقرراتهم فى مجال الأخلاق على نفس المستوى.. مادية هابطة تقول أحيانا كاشفة عن أساس الأخلاق.

مثلا.. إذا ضعف هذا العصب.. انتهى بالمريض إلى عادة الكذب وإذا مرض غيره.. انتهى به إلى عادة السرقة.

وهكذا.. فتسمى شروراً ورذائل.. وإن هى إلا أسماء سمتها الأوهام وثبتها طول الزمن.. فنزلت منزلة القداسة..

بيد أن عملية التغيير تحدث أساساً فى باطن الإنسان.. الذى يغالبه فيغلبه.. ويقاومه فينتصر عليه.. ليخرج الإنسان من التجربة أنصع جوهراً.. وأخلد أثراً..

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

«إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه».

وتجلية الإحساس بهذا الواعظ الذاتى.. ليقوى ويصبح قادراً على مباشرة سلطاته فى التوجيه والإرشاد.. هو ثمرة مباركة لمنهج القرآن فى تربية النفوس وأخذها بالفضيلة.

ونحن نرى العناية الفائقة التى التزمها هذا الكتاب ـ القرآن ـ فى غالب الأحيان، حين قرن كل حكم فى الشريعة بما يسوغه.. وحين ربط كل تعليم من تعاليمه بالقيمة الأخلاقية التى تعد أساسه.. ومن ذلك: أنه عندما يدعونا أن نتقبل

من أهلينا كل تسوية للصلح، حتى لو كانت فى غير صالحنا يؤيد دعوته بتلك الحكمة: ﴿والصلح خير﴾.

وعندما يأمرنا أن نوفى الكيل. ونزن بالقسطاس المستقيم.. يعقب على هذا الأمر بقوله: ﴿ذلك خير﴾.

ولكى يسوغ قاعدة الحياء، التى تطلب من الرجال أن يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم ـ نجده يسوق هذا التفسير: ﴿ذلك أزكى لهم﴾.

وبعد أن يأمرنا بتبين السبب قبل أن نصدر حكما يقول: ﴿ أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وننقل هنا بتصرف وجهة نظر المرحوم الأستاذ أبو بكر ذكرى فى الرد على هذه النظرة المتشائمة المغرضة:

ـ الحكم على خلق إنسان عادى لا يثبت على حال واحدة.. فبينما نراه على صلاح وتقوى حينا.. إذا بنا نراه وقد انقلب فجأة إلى عكس ما كان عليه.

أكان يستطيع أن يغير أخلاقه حسب سيئته لو كانت الطباع لا تتغير؟ حسبما يدعى أولئك الفلاسفة؟ على أنه من مقررات علم النفس: أن الأخلاق تتغير بتغير العالم

ـ يستمر بعض الناس على خلق زمنا طويلا، حتى يظن أنه لن يتغير فإذا به ينقلب إلى ضده بسبب عظة سمعها أو حادثة وقعت له.. وإذا جاز لإنسان أن يرتد عن دينه كما تقول أخبار الغرب.. فإن دعوة الشرير إلى طريق الخير أيسر وأولى.

ويحكى أبو العلاء فى ذلك:

أبدى العتاهى نسكا — وتاب عن ذكر عتبه

والخوف ألزم سفيا — ن.. أن يغرق كتبه

وقد وزع الفيلسوف الروسى «تولستوى» إقطاعياته على الفقراء فما سر هذا التغيير؟

ـ بالتربية والتهذيب تتحول طباع البهائم بل والسباع من الشره والعصيان إلى الاعتدال والطاعة. . فكيف لا يتغير طبع الإنسان أيضاً؟

ـ زعم الفلاسفة بأن الطباع لا تتغير إنكاراً لحقيقة تاريخية شرعية وهى إرسال الرسل الذين بعثوا لهداية الناس. . ثم هو إنكار لجهود المصلحين عبر القرون، وإذا كان هناك اليوم باحثون منصفون. . يلتقون مع وجهة النظر الإسلامية القاضية بإمكان الإصلاح وضرورته أيضاً. . فقد بقيت للماكرين رغبة ملحة فى وقف المد الإسلامى الزاحف. . عن طريق هذه الظنون المستترة وراء ما يسمى بالبحث العلمى. .

ثم بمثل هذه التساؤلات التى يطرحونها فى طريق البعث الإسلامى الجديد. كقولهم: لا أمل فى الإصلاح. . فارضوا بالأمر الواقع. . أو: أن الإصلاح ممكن. . ولكن لا تراعوا. . فللدين رب يحميه!

وإنها لمحاولات مكرورة يبتغى بها كسر حدة الحماس المشتعل فى صدور ترى فى الإسلام أملها وملاذها، فلو تحقق أملهم، ورضينا بالواقع، ولو قعدنا مع الكسالى، تاركين حماية الدين لرب الدين، أى إذا أهملنا الحقل الإسلامى بلا حراسة ولا ديدبان يقظ تولى أعداؤنا حراسته!! وكنا كما يقول الشاعر:

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

ونحن ـ باسم الإسلام ـ مطالبون باليقظة، والدقة فى تناول معارف القوم هناك.

وإذا كانت الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها، فإن عين الحكمة أن نأخذ ما نأخذ، وندع ما ندع بمقياس الإسلام العادل. .

وقد تكلفنا المعركة جهداً، ومالا، ولا بأس إذا بقيت لنا شخصيتنا الوفية لدينها. .

تهون علينا أن تصاب جسومنا ... وتسلم أعراض لنا وعقول

نشأة موسى عليه السلام

ولد موسى عليه السلام فى جو قاتم خانق قاتل.

لقد (وجه فرعون تعليماته إلى. . . قسم المخابرات ـ كما تقول المصطلحات الحالية ـ ألا يدع أحداً يولد فى بنى إسرائيل).

وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤].

أراد فرعون أن ينقرض جيل بنى إسرائيل. فإذا شطب هذا العنصر خلا له الجو فى زعمه. ثم تحكم فى البلاد والعباد.

وإذ يقتل الذكور بالسيوف. . . فإنه بإثارة الاختلاف يقتل الباقى من الأحياء. . . الذين جعلهم شيعاً وأحزابا. . . تتناحر بين يديه. . ثم تصفى وجودها بنفسها. . ليبقى هو جاثما على صدر البلاد.

ولكن لله تعالى حكمة هو بالغها: فقد عاش الذى أراد له فرعون أن يموت. . . بل ونشأ فى بيته هو بالذات.

وفوق هذا فقد أمال الله قلب امرأة فرعون إليه. . حين جاءها. . .

وقالت ما حكاه القرآن الكريم عنها:

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]لقد كان فرعون﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. وكان مع أعوانه وجنوده﴿خَاطِئِينَ﴾.

وتحت ضغط هذه الطبيعة العدوانية الدنسة مكروا.

ولكن مكر الله تعالى جاء رادعاً. . جزاء ما أفسدوا. . وخانوا. . حين قدر الله تعالى أن تجىء نهاية الطاغية على يد الرضيع الذى شب فى قصره. وتحت سمعه وبصره.

ولكن. . كيف تم ذلك؟

سخرية القدر:

إذا كان الأعداء يمكرون.. فإن الحق تعالى خير الماكرين: **﴿ومكروا مكرا ومكرنا مكرا﴾**.

لقد أراد الحق تعالى أمرا.. وها هو ذا سبحانه يهيئ له أسبابه: **﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعيه فَإِذَا خفْت عَلَيْه فَأَلْقيه فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تحزني إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾**.

وسلامة التدبير هنا لإنقاذ موسى موثوق بها.. لأنها من لدن عليم خبير.

لكن سلامة المبدأ لا تتم إلا بتوفر العنصر البشرى القادر على سلامة التنفيذ.

لقد كان المنفذ هنا: امرأة ضعيفة.. تعيش وسط محيط هادر ثائر... ولك أن تتصور غريزة الأمومة.. وفى عنفوانها.. لحظة الميلاد.. وكيف يعصف بها الأمر.. بماذا؟ بإلقاء وليدها.. وبيدها هى.. وفى البحر الواسع الهائج. ثم تلقى عليه نظرة الوداع.. بلا أمل فى لقاء!

لكن المرأة كانت عند مستوى الموقف: لقد أضاء لها الإيمان.. فكان الذهن اللماح.. والقلب المستنير والنفس المطمئنة.

إلا أن غريزة الأمومة ما تزال تهز كيانها بعنف.. فكان لابد من عون إلهى يربط على قلب امرأة استجابت لأمر الله تعالى.

وقبل أن يطير قلب الأم شعاعا وبخاصة لحظة التنفيذ.. والأمواج تحتوى الصندوق الصغير.. يسعفها الحق تعالى بما يثبت قلبها: **﴿وَلا تَخَافِي.. وَلا تَحْزَنِي.. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾**.

وليس هذا فقط.. بل: **﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾**.

جاعلوه.. لا سوف نجعله!

وكان هذا الوعد.. وتلك البشارة مرفأ الأمان لقلب الأم الذى يوشك من هول الموقف أن يطير.

إعداد القلب ليتلقى المفاجأة:

لم تكن هذه البشارة ربطا للقلب الواله لحظة الفراق فقط.. لكنها كانت إعداداً لقلبها كى يتلقى المفاجأة الكبرى وهى: وقوعه فى يد فرعون.

ولا تكاد المفاجأة تضرب ضربتها حين (التقطه آل فرعون)، حتى يتبعها الحق تعالى بما يبطل مفعولها..

إن فرعون وحزبه منحرفون.. مفسدون.. وسوف تأتيهم رياح الإيمان بما لا يتوقعون... وقد شاءت إرادة الحق تعالى أن تأتيهم القذيفة من منطقة الأمان.. وأن يحدث الإنقلاب من داخل البيت.. وبأيديهم.. فكان أن غزا حب الوليد قلب سيدة القصر.. امرأة فرعون.

وقام هذا الحب حارسا يقظا ليبقى موسى.. وليسحب البساط بعد من تحت أرجل الغافلين الذين سخرهم الحق تعالى ليخربوا بيوتهم بأيديهم.. وليعتبر أولوا الأبصار.

المدد الإلهى:

ويأتى المدد الإلهى فى اللحظة التى يعجز فيها الجهد البشرى تماماً.. ليستيقن المؤمنون بقدرة الله تعالى.. وليكون شعارهم دائماً: اللهم دبر لنا.. فإنا لا نحسن التدبير... إننا نواجه الحياة بقوتنا.. زاعمين أننا نستطيع أن نكون شيئاً.. وقد يكلنا الحق تعالى إلى قوانا التى تبدو ضعيفة إزاء تقلبات الحياة.. لتعود إلى الحمى الآمن القادر وحده على أن يحل مشكلاتنا.. ويثأر لنا من أعدائنا.

ولقد رأينا بأعيننا.. كيف يعاديك إنسان ما.. لسبب غير مفهوم.. بل ربما كان هذا الإنسان بالذات واحداً من الذين أكرمتهم ووقفت فى النائبات إلى جانبهم..ولكن المدد الإلهى يجىء فى الوقت المناسب:

إن الله تعالى يخرج من صلب هذا الرجل الذى عاداك ظلما.. يخرج من صلبه أولادا يحبونك.. وتحبهم. وقد تبحث عن تسويغ لهذا الحب فلا تجد ولكنه التدبير الإلهى الحكيم.. ليخوض المؤمنون معركتهم واثقين بالعدل الإلهى الذى سوف تجمل به الحياة فى يوم قريب.

عبقرية التخطيط:

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

فراغ القلب هو: الخوف الممزوج بالإشفاق.

وقد استبد بها ذلك الخليط من المشاعر حتى فرغ قلبها من التبصر.. أو كاد.

ومع أنها على ثقة مطلقة بوعد ربها.. إلا أنها على أى حال.. أم.. موصولة القلب بوليدها.

وهاهى ذى خائفة. جازعة القلب. على نحو غيب وعيها، ولولا أن الله تعالى كان معها لكشف الضيق أمرها.

لكنها بالتثبيت الإلهى تجاوزت مرحلة البكاء على الأطلال. وقررت أن تضىء شمعة بدل أن تلعن الظلام.

ثم كان من أمرها: أن كلفت ابنتها، بتنفيذ الخطة، خطة عودة الغائب الحبيب.

لكن الآية لا تقول «ابنتها» وإنما قالت «لأخته» إنها إذن أخته. ولهذا فهى أشد إشفاقا عليه..

وأعظم رغبة فى عودته.. وأكثر تضحية فى سبيله.

وفوق هذا: فهى «كاتم الأسرار» حتى ينجح التدبي، عن طريق ذلك الأسلوب الصامت، المكتفى بتتبع الأثر، وبلا انفعال حتى لا تنبه الغافلين.

دقة التنفيذ:

لقد مثلت أخته الدور على أتم ما يكون التمثيل:

مضت مسترسله وعلى سجيتها. بلا ضجيج. وحين وجدت نفسها أمام القصر لم تواجه الباب بالنظرة الفاحصة. المقتحمه.

وإنما كانت، نظرة، جانبية، سريعة، خاطفة، وبلغ من دقة التنفيذ أن أهل

القصر بكل ما فيه وما حوله من حراس لم يشعروا بها، ولم يفطنوا إلى أمرها.

ثم أعملت «الأخت» بصيرتها لتفهم ما بين السطور، بعد أن قرأت ببصرها هاتيك السطور.

فلما أن علمت رفضه لكل المراضع ـ تدبيرا منه تعالى ـ تدخلت بلطف، لتضع الفصل الأخير للقصة المثيرة: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

إن الفتاة المؤمنة تدرك مدى حرص القصر على الرضيع، من أجل ذلك قررت إشباع هذه الحاجه:

(أ) إنها تعرض عليهم هذا الاقتراح، مجرد عرض: هل أدلكم؟ أعنى: إذا شئتم.

(ب) وأهل البيت المقترح لاستضافة الوليد كلهم فى خدمته: امرأة صالحة ترضعه.. والآخرون يقومون بمصالحه..

كلهم يتفانى فى تربيته وإغذائه، هم بالذات، له، ناصحون مخلصون لا يخونونكم فيه بالنصح الذى هو العمل الخالص، الخالى من كل شائبة.

(جـ) وبهذا الأسلوب الفريد أزالت شغل قلوب أهل القصر عليه: وعاد الوليد إلى أمه لترضعه فى الوقت الذى كانت «الخبرة» فى البيت تخطط وترشد.. والبنت الشابة المؤمنة تنفذ بحسها البصير، وبولائها للتجربة، وللسن، وعلى ضوء من تربية راشدة.

ثم جاء نصر الله والفتح بعد ما تم العمل كمالا: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أجل: لا يعلمون، فيحاولون الاعتماد على سعيهم، غافلين عن تدبير الحق تعالى.. وإلا، فهل كان سعى الأم والأخت معا، بل هل كان سعى العالمين جميعا يغنى فتيلا لو لم يحرم الله عليه المراضع؟

وما على المؤمن إلا أن يسعى، والنتيجة على الله تعالى وحده.

الذين يلعنون الظلام:

يقولون: بدل أن تلعن الظلام، أضىء شمعة.

ولقد استعلت الأم مع ابنتها على قسوة الظروف، وأضاءت شمعة سارت على هداها فحققت مراد الله؟ تعالى.. بالإخلاص، والعمل المشترك. وإعطاء التجربة زمام الموقف وتنحية العواطف لتتولى الحكمة تنفيذ الخطة.

فهل يعنى الدرس أناس يملكون الإخلاص، ولا يملكون التجربة؟

ألم يأن لهم أن يستمعوا إلى الخبرة، بدل أن يحبسوها فى الدار، منفردين بعمل غير مدروس؟

لقد قالت التجربة - فى شخص الأم - كلمتها.. وكانت الطاقة الشبابية فى خدمة هذه الكلمة التى ما كان لها أن تتم فصولا لولا هذا الاتفاق، وهذا التجانس.

أما اليوم.. «فلم يعد الفاضل فاضلا، ولا العزيز عزيزا، ولا الظافر ظافرا.

وجادلنا فى معنى «الخليفة» حتى قال أحد العلماء: ظل أهل المشرق يتعاركون على الخلافة، حتى دارت الدائرة على الجميع، وأصبح الخليفة هو المفوض السامى الفرنسى.

وقال عبد العزيز البشرى: إننا مازلنا نختلف حول غسل، أو مسح القدم، حتى أصبحنا لا نملك من وجه الأرض موضع قدم!!

ولا بأس أن تتعدد المشارب، فتختلف المذاهب أما أن يصير الخلاف عادة... والتنافر ظاهرة، فإن ذلك يعنى بقاء «الحل الإسلامى» أمنية فى الصدور، لا واقعا ملموسا.

يقول الشيخ محمد الغزالى[1]:

إن الهاجمين من الأجانب متفاهمون على الغاية المنشودة، متعاونون فى الطريق الطويل، يقيم بعضهم بعضا إذا كبا، ويغطيه إذا تعرى. ومع أن للكثير منهم أخطاء مذلة، فقلما تجد من يتتبعها... وقد وزعوا الأدوار بينهم، ومشوا

---

(١) علل وأدوية: ٧٧، ٧٨.

إلى هدفهم متساندين. . أما نحن: فما بيننا منقطع.

وإذا تصالح ندامى الحان، وتشاكس إخوان المسجد، فستكسر المئذنة، ويستولى السكارى على المحراب.

اطلعت أمس على مجلة أحبها، فقرأت فيها لمزا للأديب الحر المصلح «عبد الرحمن الكواكبى» وتفسيقا لرجلين من بناة النهضة الإسلامية الحديثة، وأنا أحد تلامذة «المنار» وشيخها محمد رشيد رضا، وأستاذه الشيخ محمد عبده.

وأنا أعرف أن المتنبى غفر الله له كان يحب المال إلى حد البخل، ويحب الإمارة إلى حد الجنون. . . ومع ذلك، أطرب لشعره، واستجيده، واستزيده، وإذا لم يكن أميرا لشعراء العرب فهو من قممهم.

إننى لا أجعل عيبا ما يغطى مواهب العبقرى، ثم لحساب من أهدم تاريخنا الأدبى والدينى؟ ولمصلحة من أشتم اليوم علماء لهم فى خدمة الإسلام وكبت أعدائه كفاح مقدور؟

ومن يبقى من رجالنا إذا أخذت تاريخ الشيخين أبى بكر وعمر من أفواه غلاة الشيعة؟ وتاريخ على بن أبى طالب من أفواه الخوارج؟ وتاريخ أبى حنيفة من أفواه الإخباريين، وتاريخ ابن تيمية من ابن بطوطة، وتاريخ محمد بن عبد الوهاب من أفواه الأتراك.

وددت لو أعنت على محاكاة أبى حامد الغزالى مؤلف (إلجام العوام عن علم الكلام) فألفت كتاباً عنوانه (إلجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومشكل الآثار) لأمنع الصغار عن مناوشة الكبار. وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم. وتدفع أممهم بهم)[١].

ولقد أردت بهذه الفقرة التنبيه إلى مدى نجاح خطة عودة موسى إلى أمه. . بسبب من تعاون العاملين على تحقيقها. . وسوف تفشل خطط كثيرة ما دام التعاون بين العاملين فى حقل الدعوة أملا. . حتى يصير فى الواقع عملا.

وحتى تسكت أفواه تتصيد للأبرياء العيوب. . وهو ما ينبه إليه الشيخ الغزالى أيضاً[٢]:

---

(١) علل وأدوية صـ ٧٧/ ٧٨.
(٢) المرجع السابق ص٨٥.

(أذكر أن بابا روما الأسبق مات عقب مرض ألم به، فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدرى ما فيها عن حياته الخاصة، فصودرت الرسالة، وفصل الطبيب من النقابة. وانتهت حياته الاجتماعية، وقد ألفت عشرات الكتب عن نابليون، تنوه بأمجاده. وتتواصى بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته... القوم إن رأوا من عظمائهم خيراً أذاعوه، وإن رأوا شراً دفنوه.

أما نحن: فمبدعون فى تضخيم الآفات إن وجدت.. واختلاقها إن لم يكن لها وجود...

النتيجة: أنه لن يكن لنا تاريخ.

وقد نظرت إلى علماء الدين الذين تناولوا الأفغانى بالسوء فرأيتهم يحيون فى إطار نظم الاستعمار الشرقى أو الغربى.. وأنهم فى مواجهته ومواجهة سماسرته خرجوا بالصمت عن لا. ونعم.. إن الهيابين لا يجوز أن يشتموا الشجعان) أهـ.

[قاعدة الانطلاق]:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

وهكذا ينجز الحق تعالى وعده الذى بشر به أم موسى من قبل.. وها هو ذا يباشر سلطاته فى نصرة الحق تمهيداً لتكليفه بالرسالة... لكنه لم يباشر دوره التمهيدى من فراغ.. إنما انطلق من قاعدة راسخة... لقد منحه ربه سبحانه:

(أ) القوة الجسمية.

(ب) والقوة العقلية.

ولقد استحق ذلك تلطفاً منه سبحانه.. بعدما صار أهلا للعطاء.. بالإحسان ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.. المحسنين فى كل زمان ومكان.

ولقد تعرضت هذه القوة البدنية والعقلية لامتحان عسير: فقد دخل المدينة فى القيلولة، ففوجئ برجل من جنسه، يقاتل رجلا من أعدائه... فلما استغاثه القريب أغاثه بضربة قضت على غريمه... وكانت تلك النهاية مفاجأة له.. استعاذ بالله منها.. راجياً مغفرته سبحانه.

ويبدو أن الإسرائيلى كان «مشاغباً» حيث تكرر منه الموقف والاستغاثة.. فلما

هم موسى بتأديب عدوه ذكره بما كان منه بالأمس من قتل غريمه الذى شاع خبره فى المدينة، مما حمل موسى على الخروج حين نصحه ناصح أمين بأن القوم يأتمرون به ليقتلوه. . . فخرج، ثم حط عصاه واستقر به النوى فى أرض مدين.

وذلك قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ. فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ . فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٥ ـ ١٩].

التمهيد للرسالة:

كان ذلك الامتحان العسير لونا من الممارسة العملية لنعمتى الصحة الجسمية والعقلية. . ومن خلال الممارسة اليومية تستوى الملكات، وتتأهب للعمل بعد ما تم نضجها.

إن مجرد القوة العضلية، مضموما إليها القوة العلمية لا يكفى لاستواء الداعية على سوقه يعجب الزراع فلابد من التجربة، والتجربة المريرة قبل أن يتصدى الداعى لمباشرة سلطاته، حتى إذا بدأ الدعوة كان فى مأمن من النكسات.

وقد يعجب شاب بنفسه لأنه حصل قدراً من المتون، فظن أنه به قد نال الفنون! وقد يصل الإعجاب به إلى حافة الغرور، عندما يضغط على «الزر» فيهرع إليه فتيان فى عمر الزهور ينصتون إليه، فى خضوع لا يحرك لسانهم حتى بمجرد استفسار، بل ربما سقط فى حمأة الغرور فعلا حين يتحلقه المريدون، فإذا حضر «الشيخ»، لم يكن من حقه أن يتكلم إلا بإذن من الفتى المغرور، وهذا هو العلم «القليل»، وقلة العلم مهلكة، لابد من التجربة أولا، لتقوى الملكات كما قلنا، تماماً كما يحاول الطفل المشى، فيقع على الأرض، ثم ينهض، وهكذا حتى يكون

المشى عادة له، من أجل ذلك لم يصبح موسى عليه السلام رسولا بمجرد أن آتاه الله الصحة، وملكة العلم.. فدون الرسالة أهوال وأهوال.

يقول صاحب المنار:

(فسر الأستاذ الإمام الحكمة هنا: بالعلم الصحيح يكون صفة محكمة فى النفس، حاكمة على الإرادة، توجهها إلى العمل.

ومتى كان العمل صادراً عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح النافع المؤدى إلى السعادة، وكم من محصل لصور كثيرة من المعلومات، خازن لها فى دماغه، ليعرضها فى أوقات معلومة، لا تفيده هذه الصور التى تسمى علماً فى التمييز بين الحقائق والأوهام، ولا فى التزييل بين الوسوسة والإلهام؛ لأنها لم تتمكن فى النفس تمكنا يجعل لها سلطانا على الإرادة، وإنما هى تصورات وخيالات؛: تغيب عند العمل وتحضر عند المراء والجدل).

أعرف عدوك:

لقد كان من دروس هذا الموقف تحديد: من هو العدو، ومن هو الصديق، والتميز بين الاثنين يتيح للداعية أن يعمل فى النور، حتى لا يصطدم بما يبثه الأعداء فى طريقه من العام، وهو لا يدرى.

وقد ظهر أن العدو الخارجى: هو الشيطان: العدو.. المضل المبين.. بينما العدو الداخلى: هو النفس الأمارة، التى قد تجمح بصاحبها لحظة الانفعال.. فتذهب بأحلام الرجال، وليكن منهج الإصلاح على ما قال الإمام على:

(لا تجعلوا علمكم جهلا، ولا يقينكم شكا..ولكن: إذا علمتم.. فاعملوا.. وإذا تيقنتم.. فاقدموا).

فترة الإعداد:

قضى موسى عليه السلام الأجل، وعلى أرض «مدين» وكانت حياته فى رحاب الشيخ الجليل والبيئة الصالحة فترة «حضانة» لخصائص الداعية التى اكتملت واستعدت للممارسة العملية، حتى إذا جاء الوحى، كان مستعدا لتحمل أمانة البلاغ الذى تهيأ له من قبل.

«مدخل»

الدعوة العظيمة.. لا ينهض بتبعاتها إلا أكفاؤها من الرجال.. وتتحدد ملامح هؤلاء الدعاة.. من تمثل معنى النصيحة نفسها وكيف كانت تعبيرا عن مجموعة من القيم.. التى تتطلب دعاة فيهم من النصيحة معانيها وأبعادها:

وإذا كانت القاعدة تقول: (المؤمنون نَصَحة.. والمنافقون غشَشة) فإنه لم يكن يصلح للنصيحة إلا المؤمن.. ولم تك تصلح إلا له!:

فالنصيحه تعنى:

١- إرادة الخير للغير: وفى هذا يقول ابن الأثير: {النصيحة: كلمة يعبر بها عن معنى هو: إرادة الخير للمنصوح}.

٢- ثم هى إرادة منبعثة من قيمة الإخلاص الذى لا قيمة لإرادة الخير إلا به.. ومن هنا قالوا: والناصح: الخالص من العسل..

٣- وفى النصيحة معنى: النقاء - والصفاء.. والوضوح.. والناصح هو: الناصع.. المتألق.

٤- والناصح: الخياط.. وفيه معنى الإحكام.. والسبك الذى يجمع الشتات ليصير الأمر وثيقا مؤديا حكمة وجوده.

٥- وإذا تأملنا كثره مشتقات كلمة: نصح[1].. تبين لك كيف كانت المرونة.. والسعة سمة بارزة من سمات الداعية الذى يتخطى حاجز الجمود ليكون مرنا.. خفيف الحركة.. صالحا لمواجهة المواقف المختلفة بما يناسبها من منطق حكيم وتصرف سليم.

٦- وفى النصيحة معنى: الصدق. والطهارة أيضاً: ورجل ناصح الجيب: نقىّ الصدر.. طاهر القلب.. وفى هذا يقول الشاعر:

أَبْلغ الحارث بن هند بأنى ... ناصح الجيب باذل للثواب

٧- وإذْ تقول اللغة: النّصاح: السلك يخاط به.. فإن ذلك إشارة إلى الجانب

(١) قالوا: نصحه.. ونصح له: نُصحا.. ونَصحا.. ونَصاحة ونِصاحة. ونصاحيّة.

الاجتماعى فى النّصيحة.. وكيف يجمع الله بها ما تمزق من علاقات الناس.

٨ـ وفى النصيحة معنى الخصْب والنماء والنضارة:

والأرض المنصوحة هى: [الأرض المتصلة النبات بعضه ببعض كأن تلك الجُوَب التى بين أشخاص النبات خِيطت حتى اتصل بعضها ببعض].

٩ـ وفيها معنى الشبع والرىّ: ونَصَحت الإبل الشرب تَنصح نُصُوحا: صدقته. وأنصحتُها أنا: أرويتها. ومنه قول الشاعر:

هذا مقامى لكِ حتى تنصَحى   ريًّا وتجتازى بلاط الأبطح

ومن تدبير الله سبحانه وتعالى أن تُضم كلمة «النّصيحة» على هذه المعانى الجليلة والمشاعر النبيلة.. حتى يكون الداعية على بينة من أمره.. فلا يسعى إلى الهيجاء بغير أسلحتها: من الإخلاص. والصدق والحكمة. والوضوح والمرونة والحيوية.. والخصوبة..

وحتى تكون الأمة أيضا عند مستوى مسئوليتها وهى تدعو إلى الله تعالى، وكما قالوا: [وإذا كان الإسلام نظاما عاما شاملا ينفذ بقوانينه إلى شتى مناحى الحياة، فإن العاملين تحت رايته يتخصصون فى اتجاهاته.. ليجمعهم فى النهاية طريقه المستقيم.. طريق الذين أنعم الله عليهم من عشاق الفضيلة ورواد الحقيقة. وطالبى الإصلاح.. وهو طريق ما أهداه من طريق!].

[ضرورة الإعداد والاستعداد]:

ويتجدد الأمل وتشتد الحاجة إلى مزيد من العناية بالدعوة وإعداد رجالها إذا تصورنا مكر الأعداء بالإسلام الذى دق ولطف حتى تسلح فى مواجهته للإسلام بكل ما استحدثت الحياة من فنون الكيد.. وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى يخاطب اليهود بالذات: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

والآية الكريمة تشير إلى خطة الأعداء الكاذبة الخاطئة والتى تتلخص فى أمرين:

(١) البقرة: ٤٢.

تلبيس الحق بالباطل.. خداعا وتمويها... ثم كتمان هذا الحق.. خيانة وغدراً.

ومن تلبيس الحق بالباطل أن يحرفوا الكلم عن مواضعه.. فيستعملوا المصطلح القرآنى فى خدمة أغراضهم مثل مصطلح: الاستعمار.. ويعنى الاستعمار أساسا: وفى ناحيته المادية: استخراج الذهب والمعادن من باطن الأرض.. وفى ناحيته النفسية: إصلاح النفوس بالتقوى.. بعد تخليصها من أوشابها.. ولكن الأعداء الماكرين.. سرقوا الكلمة.. فكانت بالتعبير العسكرى ساترا يخفى حركتهم الغادرة والتى استخرجت الذهب والفضة من أرضنا لتكون أرصدة لهم فى مصارفهم!

ثم صدَّروا إلينا قيمهم العفنة إرادة تخريب النفوس.. وقد تحقق لهم ما أرادوا.. جزئيا على الأقل.. وفى كتمان الحق كانت لهم أجهزتهم المدربة على إخفائه:

يقول أحد الباحثين: [عثر الباحث الإنجليزى «يوسف مُبَسَّر» على عملة ذهبية يرجع تاريخها إلى القرن الثامن الميلادى.. وهى تؤكد أن الملك «أوفا» ملك إنجلترا قد اعتنق الإسلام.

وقد وجد الباحث على أحد وجهى العملة باللغة العربية [لا إله إلا الله وحده لا شريك له] وعلى الوجه الآخر: اسم الملك «أوفا» باللغة اللاتينية.

وتقول المصادر اللاتينية: إن الملك «أوفا» حكم جزءا كبيراً من بريطانيا من عام ٧١٦ إلى عام ٧٧٧.

ولكن لسبب غير مفهوم اختفى تاريخه تحت ستار كثيف من الظلام ويقول الباحث: إن هذه القطعة النقدية الذهبية تشكل ظاهرة فريدة فى تاريخ بريطانيا. بل وتاريخ العالم كله: لأنها المرة الأولى التى توجد فيها قطع نقدية ذهبية عربية فى بلد غير إسلامى، وأن أوروبا فى تلك الفترة باستثناء بريطانيا لم تكن تعرف النقود الذهبية.

ولذلك فإن استخدامها فى ذلك الوقت، مع وجود الكتابة العربية عليها يشير

إلى أن الملك «أوفا» قد اعتنق الإسلام.

وقد أجمع عدد من باحثى الآثار العالميين أن الملك «أوفا» كان قد اعتنق الإسلام وأن الوثائق التى كُتبت عنه أعدمها أعداء الإسلام مبكراً جداً.

وبهذا اختفى تاريخ هذا الملك المسلم من صفحات التاريخ الإنجليزى].

ومن صور كتمان الحق.. ذلك الموقف المتعمَّد.. لإسدال الستار على النواحى الإيجابية فى الإسلام.. والتركيز على النواحى العاطفية.. التى تطوح بالمسلم بعيدا حتى لا يكون له دور على الساحة العالمية الكبرى..

عقد مؤتمر بإحدى الدول الأوربية لإبراز محاسن الإسلام وقدرته على إنقاذ العالم.. ولكن المتآمرين من أعداء الإسلام كلفوا سيدة منهم أن تَعرض كتابها: شمس الله تشرق على الغرب «وفيه ما فيه من مدح وتمجيد للحضارة الإسلامية».

وتقدمت السيدة، وقدمت كتابها إلى المؤتمر، فانتقل على الفور بروحه من مجال المشكلات الحادة القائمة اليوم، إلى أبّهة وأمجاد الماضى الخلاب.

وفى اليوم الأخير.. قامت القائمة كلها تحيى السيدة.. وتكشف هذه القصة عن جانبين، الجانب الذى يبرز حساسية الجماهير المسلمة لأمجاد ماضيها، والجانب الذى يكشف عن إمكان استغلال هذه الحساسية للفت الجماهير عن حاضرها.

وما الحلول التى تُعرض على المسلمين فى المجال السياسى وغيره وما ذلك الأدب المطِنب فى المدح وتمجيد الماضى إلا وسائل لصرف العالم الإسلامى عن أهم مشكلاته وقضاياه.. مثل قضية تواجده الواقعى فى الساحة الإنسانية وقضية تجدد أفكاره وقضية موقفه من التحديات التى تطرح عليه.

وهكذا يلجأ المستشرقون أحيانا إلى الإسراف فى مدح الرسول ﷺ ـ.. على أساس من معرفتهم بطبيعة النفوس التى يستهويها الحديث عن الماضى.. ونحن دائما إليه..وإلى العظمة التى لم يجد الزمان بمثلها ممثلة فى محمد ﷺ.. ويرمون من وراء ذلك إلى هدف معين هو:

صرف الناس عن الواقع المؤلم.. وعن مشكلات المسلمين الملحة.. الحاضرة ـ حتى يظلوا يضربون دائما فى التيه.. فى ظلام لا يرون فيه الأصابع المخضبة

بدمائهم.. والتى تستنزف خيراتهم.. وهم لا يشعرون..

ومعنى ذلك أن مدح الرسول ﷺ شخصيا.. ثم محاولة تنحية القرآن الكريم من الساحة.. كان جزءا من نفس الخطة الرامية إلى إقصاء الدليل.. ليعيش المسلمون بلا دليل.. يجترون ذكريات الماضى ورؤاه.. يدورون حول أنفسهم.. دون أن يتحسسوا مواطن القوة فى دينهم.. ودون أن ينهضوا لتغيير واقعهم الأليم.

ولكن الله تعالى متم نوره ولو كره الكافرون..

وأمرنا مع هؤلاء القوم على ما يقول الشاعر:

دعها تمد.. كما تمد شباكها   فلربما علقت بها العنقاء

فى سورة الشعراء



تمهيد

دعوة موسى عليه السلام:

تشعبت جوانب دعوة موسى عليه السلام وتعددت مناحيها. . تعدداً سلكه عليه السلام ضمن أولى العزم من الرسل. . على قدر مهمته الخطيرة التى تركزت فى مهام أربع:

المهمة الأولى: مقاومة طغيان مدعى الربوبية: فرعون.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(١).

المهمة الثانية: تحرير الشعب الإسرائيلى من عبودية فرعون:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾(٢).

المهمة الثالثة: مقاومة كفران بنى إسرائيل.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

المهمة الرابعة: بيان الشريعة وتأسيس الحكومة:

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ. وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(٤)(٥).

وسوف تكون لنا بمشيئة الله وقفات أمام المهمة الأولى. . . فى محاولة

(١) القصص: ٤. (٢) القصص: ٥، ٦. (٣) المائدة: ٢٠.
(٤) الأعراف: ١٤٤، ١٤٥. (٥) تاريخ الدعوة إلى الله ـ آدم عبد الله. بتصرف.

نستخرج بها بعض الدروس... نقدمها بين أيدى الدعاة اليوم... لمن شاء أن يتخذ إلى قلوب الناس سبيلا.

عندما يحارب الداعية على جبهتين:

تضم سورة «الشعراء» فصولا من قصص الأنبياء عليهم السلام مرتبة حسب قربها من رسول الله ﷺ... لأن المراد بها العبرة، وهي بالأقرب أولى.

أما لو تعلق الأمر ببدء الخليقة فى تسفلها.. فإنه يذكر الأقدم فالأقدم.

ويلاحظ أن كل قصة فى هذه السورة تختم بقوله تعالى﴿إن فى ذلك لآية...﴾ إشارة إلى أن كل قصة تكفى وحدها للاعتبار لما تشتمل عليه من آيات بينات.

وتفتتح السورة الكريمة بمشهد الرسول ﷺ.. وكيف بلغ به الضيق حدا يظن من يراه أنه يكاد ليقتل نفسه أسفا على استمرار قومه فى عنادهم: وذلك قوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

ثم تلفت الآيات الكريمة نظر الرسول ﷺ ومن تبعه بإحسان إلى أن إيمان القوم وإن كان مهما.. إلا أن الأهم أن يكون بمحض اختيارهم.. وإلا.. فلو كال المطلوب مجرد حصول الإيمان كيفما كان.. لكان من الممكن حملهم عليه حملا.. فآمنو بسلطان القهر.

ولكن حكمة الحكيم سبحانه لم تشأ ذلك.. ومن ثم اقتضت أن يجىء الإيمان اختياراً لتصح قضية الثواب والعقاب.

يقول سبحانه﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

وبناء على ذلك.. فلا مجال للحزن على استمرار القوم فى الكفران.. يعينك على ذلك.. ما فى طبيعة هؤلاء القوم من عناد أصيل يتوارثونه جيلا بعد جيل: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

يفعلون ذلك بينما دلائل الإيمان من حولهم تملأ العيون.. من خلال ما يرونه من نبات الأرض الشاهد بأن له ربا ينبغى أن يطاع.. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

لقد فقدوا صلاحية الإيمان؛ لأنهم مقهورون.. فلا تطمع فى حماسهم للحق.. مقيدون.. فلا تتوقع منهم حركة فى اتجاهه. إن العيب كامن فيهم.. لا فى طبيعة الرسالة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

موسى عليه السلام والمهمة الصعبة:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾.

وتبدو صعوبة المهمة منذ اللحظة الأولى فيما يلى:

١ـ فلا تكفى عظمة الفكرة وحدها لتأخذ سبيلها إلى قلوب الناس.. بل لابد من الرجل الذى يكافئها سموا ونبلا... ولابد من التضحية فى معركة التقاليد القابضة على زمام القوم، وللتقليد سطوته التى تشل إرادة الإنسان.

[إن الناس تحكمهم تقاليد شديدة، ويتوارثون أفكارا يحتاج نقدها ووزنها إلى زمان غير قصير. بل إن الأهواء التى تصرف البشر لها سلطان محيط والخلاص منها لا يتم فى عشية وضحاها وقد تأملت فى ماضى خالد بن الوليد، عبقرى الحرب الملهم، وماضى عمرو بن العاص، السياسى الداهية.. فوجدت كلا الرجلين لم ينشرح صدره للإسلام إلا بعد ما يقارب العشرين سنة][1].

٢ـ وإذا أبرزت سورة الشعراء بعامة ما عاناه المرسلون من ضيق وشدة من قبل أعدائهم ثم ما كان من انتصار الحق فى الجولة الأخيرة.

إذا كانت سورة الشعراء أبرزت ذلك المعنى.. فقد جاءت من قصة موسى عليه السلام بما يؤكد هذا المعنى:

فهو عليه السلام يستدعى من قبل الحق تعالى ليواجه قوما لهم فى الظلم باع طويل.. فهم ظالمون بمرتبتين: ظلموا أنفسهم أولا بالكفر.. وعن هذا الكفر نشأ ظلم آخر حين اتخذوا بنى إسرائيل عبيدا..

وقد صاروا بهذا البغى هم والظلم اسمين لمسمى واحد.. حيث أبدل منهم

---

(١) علل وأدوية: ٣٤، ٣٥.

قوم فرعون:

﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . . قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾.

وهو بدل يصرف الذهن عند إطلاق اسم الظالمين إلى قوم فرعون بخاصة . . دون من وصفوا بالظلم من غيرهم ومن ثم كانوا نموذجا غريباً في الطغيان، ينبغى لكل من وقف عليه أن يتعجب من مسلكهم المعيب قائلا: ﴿ألا يتّقون﴾؟

أما آن لهذه السلسلة من الغشم أن تقف عند حد؟

٣ ـ كانت هناك صعوبات أخرى ناشئة من داخله عليه السلام . . ومفروضة عليه من الخارج . . لقد كان سريع الغضب . . سريع التأثر . . ومع رياضة نفسه لتواجه المواقف بحكمة . . إلا أنه كان فى حاجة إلى وزير يتكامل معه . . أما الصعوبات الخارجيه: فقد تمثلت فى بنى إسرائيل أنفسهم: حيث كان مكلفاً بتحريرهم من قبضة فرعون . . على ما فيهم من عناد والتواء.

ومن هنا تشعبت نواحى الدعوة . . وبدت الرسالة باهظة التكاليف وكان لابد من طلب العون من الله تعالى.

واقعية الداعية:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ .وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون﴾.

كان موسى عليه السلام أعلم الناس بما كان يصنعه فرعون من بطش وعدوان بحكم نشأته صغيراً فى بيته.

ولقد كان منطقيا مع نفسه . . ومع الواقع عندما أفصح عن ضعف إمكاناته فى مواجهة فرعون وقومه . . إلى جانب ما بدر منه من قتل القبطى خطأ، من أجل ذلك فهو يطلب العون من ربه سبحانه . . فالمعركة تحتاج إلى الحكمة، وبصر بعواقب الأمور إلى جانب سلاح البيان . . وقوة البرهان.

وعندما يقف هارون إلى جانبه يؤازره، يكون قد استكمل عدة المواجهة، بتكاملهما، تكاملا يجعلهما أصدق تعبير عن الدعوة.

لقد كانت لهذا الرجاء أسبابه إذن: فاحتمال التكذيب قائم لا محالة . . .

وعند التكذيب يضيق الصدر إلى حد الاختناق، فيترتب على ذلك تعثر الكلام، أو تعذره، فتذهب مصلحة الدعوة، أو تتعرض للخطر.

ثم إنه ـ عليه السلام ـ لما قتل القبطى، علم أن من طبيعة الظالمين إلصاق التهم بالأبرياء، ومن الدعاة خاصة، ليجد المعتدون مسوغا للتنكيل بهم.

وموسى عليه السلام لم يقتل القبطى متعمدا... ولكن أنى لعقول الطغاة أن تفسر الحادث على وجهه الصحيح، ذلك ما لا يكون.

بل الذى سوف يكون هو: اعتبار الضرب الذى أفضى إلى موت ذنبا يستحق العقاب.

ولما كان هارون آمن الجانب من خطأ لم يشترك فيه، فقد كان خير عون لأخيه موسى، بالإضافة إلى ما يتفرد به من البيان. وهو سلاح الدعوة الماضى.

ولم يكن هذا الرجاء هروبا من الدعوة، أو ضناً بالتضحية فى سبيلها لكنه فى الحقيقة غيرة عليها، وحرص على أن تحقق أهدافها.. ذلك بأن خوفه مردود إلى احتمال ألا يبين الحق فى لحظة الشدة.. كما خاف كذلك من تدبير مؤامرة لقتلة، فتقتل الدعوة فى شخصه.

وإذن فحرصه على حياته حرص على الدعوة ذاتها بطلب ما يضمن استمرارها.

وحدة الدعاة، والهدف الأكبر:

﴿قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ . فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

ماهى مهمة موسى عليه السلام... إنها تحرير بنى إسرائيل من بطش فرعون.

إذن فعليه أن يعد للهدف الأكبر عدته.. وأن يستعد لسباحة طويلة مضنية يخلص فيها الشعب العنيد، من قبضة الطاغية العتيد... وكان ذلك من جانبه بالوحدة الجامعة بينه وبين أخيه...

وذلك قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ﴾ ولم يقل: إنا رسولا ربك.

دع الخوف فلا مسوغ له مادمت مشمولا بعنايته سبحانه واشغل نفسك بدورك

الحقيقى وهو مواجهة الطاغية بالوحدة، اذهبا إليه وأنتما على قلب رجل واحد.. وإلا فإن اختلاف الدعاة أمام الطاغية يمكنه من رقبة الحق فيجهز عليه.

وتوافق الدعاة على ساحة الدعوة أمر مهم... ذلك بأن الخلاف بينهم يكون حادا فى العادة.. ومن ثم تعطى الدعوة بيدها السكين لعدوها كى يجهز عليها!

وقد أشار الدكتور كمال أبو المجد فى كتابه [حوار لا مواجهة] إلى شىء من هذا حين لاحظ كيف يكون الاختلاف قابلا للزوال إلا فى مجال التدين حين يظن كلا الطرفين أنه وحده المهتدى، وغيره الضال الناجى وغيره الهالك.

ويا له من خلاف يفسد قضية الود.

إن الشعور بالوحدة فى: الأخوة والشريعة والرسالة المشمولة بمعيته سبحانه وتعالى هو الضمانة الوحيدة للانتصار، وبدافع من هذا الإحساس واجها فرعون بضرورة إطلاق سراح بنى إسرائيل.

الباطل يستند إلى جدار مائل:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

يحاول الباطل هنا ادعاء أمجاد هى فى الحقيقة من تدبير الله تعالى.. إلى جانب ما يرمى به من تهم ربما هزت شخصية الداعى فى أعين المبهورين به.

إنه يتهمه بتعمد قتل القبطى... ولأنه غير مقتنع بصحة الاتهام، فإنه يلجأ إلى المبالغة والتزيد فلا يقول له: وقتلت القبطى مثلا، لكنه يقول له: وفعلت فعلتك التى فعلت.. أى أنها فعلة شنيعة لا تندرج تحت اسم معين، وعلى الخيال أن يحاول رسم صورة لها فى الذهن ولن يستطيع!... ولا يكتفي فرعون بهذا، لأن نفسه مازالت تكذبه من داخله فيبهته بجريمة الكفر ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

وهكذا يرمى بآخر سهم فى جعبته، وهو لا شك سهم دام يثير الأعصاب، بل يحمل على إفلاتها.

الهجوم فى صورة الدفاع:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي

حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ .وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ .

اعترف موسى عليه السلام بفعلته التى فعل، والتى كانت ضرباً أفضى إلى موت ولم تكن ترصدا، وإنما كان خطأ سأل ربه أن يغفره.

وإذن فلم يكن معتديا، وكأنما يقول: إن المعتدى الحقيقى هو أنتم.

أنتم الذين حملتمونى على الفرار بلا مسوغ، اللهم إلا إرادة التنكيل بى فجزانى الله تعالى بالحكمة والرسالة، فكان الجزاء على غير ما كنتم تتوقعون.

وإذا ثبت أنكم المسيئون، لا أنا فقد ثبت أيضا أنكم أغبياء من الناحية النظرية حين جعلتم استعباد بنى إسرائيل نعمة تستحق الشكران.. ومتى كانت العبودية نعمة تذكر فتشكر؟! ولكنه الباطل حين يعوزه الدليل، فيلجأ إلى قلب الحقائق كسباً لنصر رخيص موقوت قد يخدع الدهماء ساعة من نهار، لكنه لا يدوم طويلا.

ولاحظ مرامى الجواب هنا لتدرك لونا من حكمة الدعاة فى مواجهة الطغاة.. حين يقفون موقف الدفاع فى أعين الناس.. لكنهم فى الواقع ومن حيث لا يشعر الأعداء ـ مهاجمون يسددون الضربات القاتلة.. بلا دماء.. ولا شظايا!

[من ملامح المنهج الإسلامى]

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُون قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[الشعراء:٢٣ـ٢٩].

معنى سؤال فرعون:

السؤال «بما» يكون طلبا لتعريف حقيقة الشىء ـ وعلى هذا فالجواب إما أن يكون:

(أ) بنفس الحقيقة.

(ب) أو يكون بجزء الحقيقة.

(جـ) أو ببيان آثار المسئول عنه، الخفية والظاهرة.

لا يجوز أن يكون الجواب بنفس الحقيقة؛ لأن التعريف مقدم على المعرف ـ بفتح الراء المشددة ـ والذى يجىء فى الترتيب متأخراً بطبيعة الحال.

فلو عرفنا الشىء بحقيقته لترتب على ذلك التناقض: لأنه بحكم كونه تعريفاً يكون مقدماً وبحكم كونه معرفاً يكون متأخراً، فصار متقدما متأخراً فى وقت واحد، وهذا محال.

ولا يجوز أيضا التعريف هنا بالجزء: لأن الله تعالى ليس مركبا حتى يكون له جزء يحتاج إليه فى إيضاحه والكشف عنه سبحانه. فتعين أن يكون الجواب هنا ببيان آثار الله تعالى الخفية والظاهرة، وبهذا البيان يتم الجواب، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فيما تزعمونه من طلب الحق.

حذلقة لفظية:

كان جواب فرعون ﴿ أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾؟! وهى محاولة لإثارة الجماهير، وكأنما يقول لهم: أنا أسأل موسى عن حقيقة الله سبحانه، فلم يعرفه بالحقيقة المطلوبة «بما» لغة، وإنما عرفه باللازم والأثر، وهذا لا يكشف الحقيقة التى هى مطلوبى.

من الظاهر.. إلى الأظهر:

لا يسوق الداعية براهينه دفعة واحدة، بيد أنه يجيب بحساب، فإذا نجح فى إلزام الخصم أولا فبها، وإلا، انتقل إلى برهان أشد وضوحا من سابقه تدرجا، واستيعاباً للمخاطب المعاند... وهذا ما فعله موسى عليه السلام: فبعد أن لفت أنظار القوم إلى عجيب صنع الله تعالى فى الكون: أرضه وسمائه، ربما سبق إلى الوهم أن هذه الخلائق العجيبة أوجدت نفسها، فلا تحتاج إلى خالق.

فلما حاول فرعون تعجيب الملأ حوله من هذا الجواب.. ارتقى موسى عليه السلام إلى دليل أظهر من سابقه وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾.

والتجربة اليومية شاهدة بأن آباءهم وجدوا بعد العدم، ثم أعدموا بعد الوجود؛ وما ذلك إلا بفعل خالق قادر مريد، ولا يمكن لإنسان أن يتوهم خلاف

ذلك، إلا أن يكون مجنوناً، بلا عقل!

وقد كان هذا الإنسان فرعون، حين اتهم الرسول عليه السلام بالجنون وهو فى أرفع مقامات التعقل. ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

أى أنه يرمى موسى عليه السلام بدائه، وينسل كما يقول المثل العربى، وإمعاناً منه فى إخفاء علته المتوطنة يبالغ فى التهمة التى تعنى: أن موسى عليه السلام لم يفهم السؤال فضلا عن أنه لا يستطيع أن يجيب!

وعندئذ يفحمه موسى عليه السلام بالبرهان القاطع على صدقه: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وهو دليل أشد وضوحا من سابقيه.. فالله تعالى رب المشرق، ورب المغرب.

والمشرق: هو طلوع الشمس وظهور النهار.. والمغرب: غروب الشمس وزوال النهار. وهذا الاستمرار الذى لا يتخلف لحظة واحدة، لا يتم إلا بمدبر حكيم قادر.

وموسى عليه السلام هنا كمثل أخيه إبراهيم عليه السلام، حين واجه النمروذ أولا بالاستدلال بالإحياء والإماتة، فلما شغب عليه الطاغية، قطع لسانه بأن الله يأتى بالشمس من المشرق، فائت بها من المغرب، فبهت الذى كفر.

الحرب الباردة:

وإنك لتلاحظ من خلال السطور ملامح الحرب الخفية الباردة بين الداعية والمدعو:

فبينما يهز موسى عليه السلام كبرياء فرعون ببيان أن الله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾ أى ربك يا فرعون أنت ومن معك، فلست كما تزعم إلها، وأنت وهم عبيد الله تعالى، بينما يفعل عليه السلام ذلك.. تسمع فرعون يقول فيما حكاه القرآن: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أى أنه رسول إليكم أنتم، لا إلىّ، فأنا ما زلت ربكم الأعلى؟!

وأخيراً وبعد أن ضيق عليه الخناق، يقطع فرعون الحوار جاعلا من التهديد وسيلته الأخيرة: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

مغزى التهديد:

إن فرعون الذى أقام ملكه على التعالى والادعاء... يعلن يقينا ما فى حجج

الحق من جاذبية سوف تسيطر يوما على أتباعه.

وكان لابد من حركة يظهر بها عضلاته القادرة على البطش وإيهاما للعامة وذرا للرماد في العيون حتى لا تتبين الحقيقة، وقد بدت ملامح الشدة فى قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ بدل قوله: لأسجننك، مثلا:

لأنه لو قال: لأسجننك، لكان موسى مجرد مسجون، ولا يشترط أن يكون واقعاً تحت عذاب أليم. أما قوله: ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ فيعنى: ستكون ضمن مجموعة المعذبين الذين جاءك من أنبائهم، ورأيت من أحوالهم ما يجعل الولدان شيبا.

لماذا التهديد:

أما لماذا علت نبرة التهديد؛ فلأن موسى عليه السلام وجه إليه فى النهاية سهما أحس به فى قلبه، وذلك قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهو تلميح فيه من المخاشنة والقسوة ما فيه.

وفيه أيضا من الحكمة ما فيه حين يجىء فى أوانه، وعندما يقدم الداعية من لدنه كل دليل يشد من أزر قضيته، فإذا ظل المدعو سادرا فى غيه، فلا بأس من القسوة أحيانا، ولكن بمقدار.

[المخاشنة.. أحيانا وبمقدار]:

قال رجل لأبى حازم: إنك متشدد. قال: ومالى لا أتشدد. وقد ترصدنى أربعة عشر عدوا:

أما أربعة: فشيطان يفتننى. وحاسد يحسدنى. وكافر يقتلنى. ومنافق يبغضنى.

وأما العشرة فهى:

الجوع. والعطش. والحر. والبرد. والعرى. والهرم. والمرض. والفقر. والموت. والنار. ولا أطيقهن إلا بسلاح تام. ولا أجد لهن أفضل من التقوى.

[نفثة المصدور.. بلغة العصر]:

ونستعير هنا ما قاله المرحوم الدكتور مصطفى السباعى[1] معبرا عن صيرورة

---

(١) عن كتاب: هكذا علمتنى الحياة.

الحياة أحيانا غصة فى الحلوق. ولابد من نفثة المصدور. يطلقها نقدا لاذعا فإن المصدور إذا نفث برئ!

قال: [حين تضيع معانى الدين وتبقى مظاهره: تصبح العبادة عادة والصلاة حركات والصوم جوعا، والذكر تمايلا والزهد تحايلا، والخشوع تماوتا، والعلم تجملا، والجهاد تفاخرا.، والورع سخفا، والوقار بلادة، والفرائض مهملة، والسنن مشغلة.

وحينئذ يرى أدعياء الدين عسف الظالمين عدلا، وباطلهم حقا، وصراع المستضعفين تمردا، ومطالبتهم بحقهم ظلما، ودعوة الإصلاح فتنة، والوقوف فى وجه الظالمين شرا.

وحينئذ يكثر اللصوص باسم حماية الضعفاء، وقطاع الطرق باسم مقاومة الظالمين، والطغاة باسم تحرير الشعوب، والدجالون باسم الهداية والإصلاح، والملحدون بحجة أن الدين أفيون الشعوب].

إن نفثة المصدور واردة فى قاموس الدعوة...

وأحيانا على الأقل، تحس بأنك لو صببت الماء على النار، فسد الماء،والنار، معا!!

[تعليق للندوى]

[مراوغة فكرية من فرعون [1] واستقامة موسى ونجاحه فيها:

والمثل الثانى ترونه فى سورة الشعراء، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[2] هنالك مراوغة فكرية، بلاغية دعوية، كيف يحاول فرعون أن يتخلص وأن يغطى هذا الموقف، يغطيه بسياسته وبلياقته وبتجاربه فيريد أن ينتقل من موضوع إلى موضوع،

---

(١) المروغة قد تطلق فى معنى المخادعة المذمومة والمقصود هنا التنقل جيئة وذهوبا من مكان إلى مكان والقيام بحركة مفاجئة فى اتجاه جديد كما يفعل اللاعب الماهر مع منافسه.

(٢) الشعراء ٢٣ ـ ٢٧.

وموسى عليه السلام يأبى أن يواصل هذا الموضوع ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وكان فرعون يتوقع أن موسى عليه الصلاة والسلام يقول كلمة ثم تجرى المناقشة، لكن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام اختار الشيء الذى يضرب على الوتر الحساس ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. فرعون بهذا ويتشبث به ويقول: إذا كانوا يستحقون الاحترام، وإذا كانوا أجلاء، فإنهم كانوا على عقيدتى، ولكن. . .

ماذا قال موسى؟ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾[1] ثم تخلص من هذا إلى ما كان يقوله مثل «الحديث بالحديث يذكر» كان يمكن أن يقول: علمها فى التاريخ، ولكن إذا قال التاريخ المجرد، أو فى قصص الأولين لتحول الموقف وصار فرعون يخطب ويتكلم، واحتج بالتاريخ المؤلف المختلق فى عصره والمدروس فى مدارسه ولكنه قال: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾، تلاحظون التعبير الدقيق وتخير الكلمات، هنا السر الكامن والإعجاز الكامل، كان هنالك ألف تعبير ويستطيع كل واحد منا إذا واجه هذا الموقف أو وقع فى مثل هذه المحنة يتخلص منها بألف تعبير، خل هذا الذكر، اترك هذا الحديث. هذا فى قصص الغابرين، هذا فى حديث الأولين.

التمسك بالدعوة وعدم الحياد عنها:

ولكن موسى لم يترك سبيل الدعوة، ولم يترك الخيط الذى كان متمسكاً به، بل انتقل بسرعة لا تتصور سرعة أكثر منها، وببلاغة لا تتصور بلاغة أبلغ منها، وبحكمة لا تتصور حكمة أقوى وأدق منها، بكلمة واحدة: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ولم يرد أن تطول هذه العبارة؛ لأنه إذا طول هذه العبارة انتهز فرعون الفرصة واقتحم المعركة: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ وصل بها إلى ما كان عليه: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ ثم استمر وبدأ يذكر صفات الله التى كان يتهرب منها فرعون، وهذا الذى كان فرعون يحب أن يتخلص منه، والله هناك تأخذ الإنسان هزة وطرب أدبى وطرب عقلى ﴿علمها عند﴾ ﴿ما بينهما﴾ معنى ذلك أن عرش فرعون قائم على غير قوائم، لم ينطق موسى عليه السلام، ولم يكتف

---

(١) طه: ٥١، ٥٢.

بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ولكنه قال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ تحداه كذلك ووضع الأصبع على موضع الداء: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

فرعون يطلق السهم الوحيد فى كنانته:

هنالك أطلق فرعون نفس السهم الذى أطلقة فى الموقف الأول، الموقف واحد، ولكن القرآن يتنوع بحكايته، ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ يعنى ألا تثورون، ألا تغضبون، ألا تقومون للدفاع عنى، أفقدتم الأنفة والشعور بالغيرة؟ ألا تستمعون؟ وقبل أن يتكلم هؤلاء أو يحركون ساكنهم، قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ هناك كذلك حاول فرعون مرة ثانية أن يتخلص من هذا الموقف الحرج ومن هذه الأزمة التى واجهته فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وهنالك رجا فرعون أن موسى يدافع عن نفسه، يقول لست مجنوناً، هذا كان متوقعاً عن صاحب عقل، وقد أثبت ذكاءه وسلامة ذهنه، فى مناسبات كثيرة.

آخر سهم فى كبد فرعون:

فعرف فرعون موضع الداء فى النفس الإنسانية، أن الإنسان إذا أهين أو أن الإنسان إذا انتقد أنه ينسى كل شيء ويدافع عن نفسه كأنى به أسمع وأرى، كان يتوقع أن موسى ينسى دعوته وينسى كل شيء. ويقول: من يقول أنا مجنون؟ اطلبوا الأطباء يفحصون عنى فحصاً طبياً، ويقدموا إليك تقريرهم، فكان هذا رجاء فرعون فى قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

ولكن موسى أجابه بقوله: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] لم يدافع عن نفسه ولم يقل أى كلمة فى الدفاع عن نفسه، إنه كان مرسلا من الله تبارك وتعالى، مكلفاً بالدعوة، فقضية الجنون والعقل هذه قضايا بالنسبة إلى هذه الدعوة الكريمة الجليلة، قضايا لا قيمة لها فى المجتمع الذى يسود فيه الشرك، فى المجتمع الذى تسود فيه الوثنية فى المجتمع الذى تشيع فيه الجنايات والجرائم، فى المجتمع الذى تهتك فيه الأعراض، فى المجتمع الذى يقتل فيه الأبرياء وتقتل الأطفال، ما أهمية الجنون؟ إنه تناسى هذه التهمة وقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا آخر سهم فى كبد فرعون؛

(١) الشعراء: ٢٨.

لأنه كان يعتقد أنه رب المشرق والمغرب فى مصر، وكان يعتقد أن العالم فى مصر، وكان يعتبر أن الذى يملك مصر ويحكم مصر فهو رب العالم، فلما قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إنه حطم البناء الذى قامت عليه دعوى فرعون وقام عليه عرش فرعون وحكمه.

هذا مثال من أمثلة الدعوات النبوية وحكمتهم، وهذه الصورة الثانية تختلف فى الدعوة والداعى والمدعو إليه، الدعوة هى دعوة معقدة دقيقة.. والداعى موقفه دقيق وحرج... والمدعو إليه أكبر ملك، لذلك هذه الصورة تستحق الاهتمام منا، وتستحق الدراسة، وتستحق التأمل الدقيق واستيحاء الحكم والنتائج العميقة والبعيدة المدى، من هذا النموذج الذى عرضه القرآن فى حكاية سيدنا موسى وفى حكاية دعوته.

لماذا نصرخ وصوت الحق أعلى؟

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩ ـ ٣٣].

من صور العذاب الأدنى المعجل للمستكبر: شعوره الحاد بأنه أفضل من غيره، ولهذا فله على هذا الغير حقوق ينبغى أن تؤدى، فإذا لم يؤدها تجبر عليه واحتقره.

ولقد وصل فرعون فى هذا الجانب إلى منتهى الشوط... حين زعم أنه ربهم الأعلى، وإذن فعلى العبيد أن يسمعوا وأن يطيعوا بل لقد نصب من نفسه حارساً على القلب الذى لا يصح له أن يعتقد صحة فكرة ما إلا بإذنه وإلا كان العذاب.

ولما كان المطلب عزيزاً فإن المعذب الحقيقى هو من وقف بنفسه موقف الراغب فى جعل المستحيل ممكناً.

لقد كان فرعون يشكل بسلوكه هذا الأرعن آفة من الآفات الاجتماعية.

(أ) حرص مع أركان حربه على أن يكون طبقة لها امتيازها الخاص.

(ب) ولغ فى شهوات الدنيا إلى حد الإدمان.

وترتب على ذلك أن سولت له نفسه ارتكاب حماقة النهى عن الإيمان إلا بإذن خاص منه، فى محاولة استبقاء الطبقة المتميزة فى الصدارة دائماً.

وكان من نتيجة هذا الإسراف شيوع الانحلال الخلقى الذى قطع أوصال المجتمع.. ثم كان أن رفض الحق، واحتقر الناس...

وكان من نتيجة هذا الاحتقار أن سمح لنفسه بالكيد للمصلحين الذين يحاول سحب البساط من تحت أقدامهم.

ولعلنا ندرك إلى أى حد كان الطغاة أعداء كل حركة إصلاحية بانية:

١ ـ لأنها تحرم الطغاة من امتيازاتهم الطبقية.

٢ ـ ثم ترفع المواطنين البسطاء إلى منازل أعلى.. قد ترفعهم فوق رؤوس هؤلاء المتألهين.

٣ ـ إلى جانب ما تضعه حركات الإصلاح من موازين للأعمال جديدة ليس من بينها زرقة العيون، أو طول القامة، أو كثرة المال.

إن حياة المستكبر عذاب مستمر... لقد خلا قلبه من الرحمة فظلم الضعفاء... وخلا من التسامح فنازع أقرانه وحاربهم.. ثم كاد لمن فوقه كيداً... وكذلك كان فرعون.

بل لقد كان حظه من العذاب المعجل أوفى على قدر ما كان يدعى لنفسه من سلطان لا يملك إثبات وجوده... وبدأ العد التنازلى فى حياة فرعون الطاغية!:

فرغم أنه رمى فى الساحة بكل ما يملكه من إمكانات، إلا أن الداعية ما زال صامداً.. منتقلا من الصبر إلى المصابرة، ثم إلى مكابدة الموقف العصيب... وذلك كله انتقال من نصر إلى نصر.. ولكن الطاغية لا يستسلم للهزيمة أبدا.. ولا تعدم الخرقاء علة.

لقد أجابه الداعية على توعده بالسجن فى هدوء الواثق: ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾.

هل إذا جئتك بآية بينة على صدقى تقتنع وتسلم... أم تبقى على ضلالك القديم؟

واستمراراً لحملة التضليل والاستعداء يحاول فرعون قيادة حملة من «التعتيم الإعلامى» تمويها على الشعب المخدوع: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وصدمته المفاجأة التى أحاطت به: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

فإذا كان رد الفعل لدى الطاغية المجروح:

١ ـ أثار همة القوم إلى المنازلة بقوله: ساحر عليم.

٢ ـ ثم هو يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره.. لا بالحق.

ومن يقبل ذلك؟.. من يقبل الإخراج من وطنه الذى نشأ فيه؟

٣ ـ ثم يبدأ الطاغية فى الترنح.. والتدحرج من قمته إلى السفح.

وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥]..

فانظر كيف يتنازل فرعون ـ مرغماً وتحت ضغط الحق الزاحف ـ ثم يطلب مشورة قومه.. فهو من اليوم رهن إشارتهم وتابع لرأيهم. ومتى كان فرعون يستشير من حوله؟. أليس هو القائل فيما حكاه القرآن الكريم:

﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾.

ولكنه تحت ضربات الحق ينزل من عليائه إلى حضيض الذل والهوان. وما كان جواب الملأ إلا أن قالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦، ٣٧].

لقد طالبوا بإرجاء المواجهة الحاسمة.. حتى يجمع فرعون مهرة السحرة. وعندئذ تكون القاضية.

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ. فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ. فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٣٨ ـ ٤٨].

لقد جمع فرعون كل سحار عليم، وحرض الجماهير على الحضور ساعة الصفر، ساعة يحرز السحرة النصر المأمول.

وإذا كانت نتيجة الغلب سوف تضاف إلى رصيد فرعون.. فإن السحرة أيضاً يريدون أن يقبضوا الثمن وعدا أكيدا منه قبل أن يبدأ النزال. وهكذا يتواصى الجاحدون.. الذين يمضون محكومين بقانون المنفعة الشخصية ناسين قدرة الله.

وعندما يعتمد الإنسان على نفسه.. يكله الله تعالى إليها فتورده موارد الهلاك.

وهذا ما حدث بالفعل عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، ثم قدمت عصا موسى إلى ما عمله السحرة فمسحته مسحا.

الباطل يفقد صوابه

يقول الله تعالى فى سورة الشعراء:

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ .

أيها الأخوة:

عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم . . وفى اللحظة التى بدأت فيها نشوة النصر المزيف تلعب برءوسهم . . إذا بموسى عليه السلام يطيح بصوابهم . . عندما ألقى عصاه . . فقدمت إلى ما عملوا من عمل فجعلته هباء منثورا . .

وعندئذ . . ولأن السحرة أعلم الناس بفنون السحر .. فقد تيقنوا بتفاهة ما يمارسون إزاء ما رأوه من الحق المبين يتجلى على يد موسى عليه السلام . . وهزهم الموقف هزا أيقظ فيهم الفطرة الكامنة . . الباحثة عن الحق . . والذى التقت به فى لحظة جُمع الزمان كله . .

ويُفاجأ الطاغية بما لم يكن له فى حساب . . فيقول ما حكاه القرآن الكريم عنه ساعتئذ: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

ماذا يريد فرعون؟ يريد أن يستمر فى حملة التشويش . . وكأنما يقول لهم:

أ ـ إن مسارعتكم إلى الإيمان به قبل إذْنٍ منى إنما هو ميل إلى موسى أضعفَ حماسكم فى مواجهته . . فتراخيتم .

ب ـ وهذا تواطؤٌ منكم جميعا . . ليتمكن موسى من الغَلَب . . وكان فى استطاعتكم هزيمتُه لو مارستم السحر بإتقان كالعهد بكم دائما .

جـ ـ ﴿فلسوف تعلمون﴾ . . وهو التهديد الذى لم يكن يملك حينئذ سواه .

د ـ ولما كان غير مقتنع بما يقول بعد تَفَلُّت فرصة النجاح الأخيرة من يديه . . فقد عبر عن شدة غيظه بتقطيع الأيدى والأرجل . . ومن خلاف . ثم صلبِهم بعد

ذلك.. على نحو يشفى غليل نفسه الحاقدة.

ولكن السحرة بعد أن عرفوا الإيمان.. ثم ذاقوا حلاوته.. فإن التهديد يجىء بعد فوات الأوان.. ولا يبقى إلا الثبات فى مواجهة هذا الكيد.. وتلك أنسب الوسائل لجرح كبرياء الظالمين.

فعندما يستهين المحق الأعزل بالمبطل القادر على البطش يكون قد جرح كبرياءه.. فتوارى.. ثم يفسح المجال أمام الحق الذى يأخذ حينئذ بزمام المبادرة.

وهذا ما فعله السحرة كرد فعل لتهديد فرعون.. وهو ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ . إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لقد أخرجوا من حياتهم كل مغريات الدنيا.. فلم يبق من متاعها ما يحرصون عليه.. وإذن.. فلم يعد فى يد فرعون ما يشترى به ذممهم من فتنة الدنيا.. ولا ما يساومهم عليه من مغرياتها.. لقد أداروا ظهورهم للدنيا.. وها هم أولاء يستقبلون رضوان الله تعالى. ويؤثرونه على كل ما فيها ومن فيها.

فليذهب الجسد الفانى فى سبيل هذا الغد المشرق الذى تُغفر فيه الخطايا.. وتَفتح الدنيا عينيها لترى سحرة الأمس فى طليعة موكب الإيمان..

ويمضى الموكب الآسر راغبا إلى الله:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.. اخرجْ بهم فى هدأة الليل.. فرارا من فرعون وجنوده الذين يرصدونكم ويتربصون بكم الدوائر.. وهنا يحاول فرعون أن يفعل شيئا.. لعل وعسى وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾.

إنها التعبئة العامة إذن.. فى مواجهة الحق الذى يغيظ الباطل بقوته الذاتية.. ولكن ماذا يريد فرعون هنا؟

إنه يغالب الغيظ الذى يؤرقه من الداخل بهذه المظاهرة الإعلامية: وها هو ذا يعلن استهانته بما حدث.. لعله أن يظل السيد المطاع فى أعين الناس.

وكأنما يقول لهم: اطمئنوا أيها الناس.. فما حدث ليس إلا زوبعة فى فنجان.. قامت بها شرذمة قليلة لن تصبر على مواجهتنا..

وصحيح أنها فعلت بنا ما يغيظ.. لكنا ما زلنا نتسلح بالحذر الذى سوف يسفر فى النهاية عن تطويق الأزمة.. وكأن شيئا لم يكن.

ولكن الأمل الكذوب ينحسر ذاهبا جفاء.. لتظهر للأبصار والبصائر سنة الله تعالى فى الظالمين الذين يتجبرون فى الأرض بغير الحق.

ولكن.. قد يكون للتهويل من أمر فرعون.. والتقليل من شأن المؤمنين ما يشبه الفجر الكاذب الذى يوهم المخدوعين أن فرعون على شىء.. وبنفس القدر.. قد يُحدث هذا الادعاء نسبة من الخوف فى قلوب المؤمنين.. بالقدر المسموح به..

ولكن سنة الله تعالى تتألق بها الآية الكريمة: **﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾**.

وهذا سر التعجيل ببشارة المؤمنين بذهاب بأس الكافرين قبل استكمال قصة تعقب موسى عليه السلام وبنى إسرائيل.. وذلك فى قوله تعالى فيما يشبه الفجر الصادق يشع بسناه.. ويغمرهم بنداه:

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

ثم يتابع السياق الكشف عن محاولة فرعون تلك اليائسة فى قوله تعالى: **﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾** أى: عند شروق الشمس بدأ تنفيذ الخطة وهى: منع بنى إسرائيل من الخروج.

وتلك كانت أمنية فرعون وقومه..

ولكن.. ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لا يشتهى السفن

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ . وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٦].

وهكذا: وفى ميقات يوم معلوم.. نُحىَّ الظالمون عن الوجود.. ليعود إلى الحياة روادها الحقيقيون.. على حين يصير الظالمون طعاما لحيتان البحر..

ويُطوى المشهد المثير... بينما يبقى عبرة شاخصة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴿إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين..﴾ إن فى هذا المشهد لآية.. علامة.. بينة.. كأنها الشمس فى رائعة النهار.. ومع ذلك فما أكثر الذين يكفرون بالآيات.. لماذا؟ لعلةٍ هناك فى أعماقهم.. تشل حركتهم.. فلا يُؤمنون.

ومما سبق تتضح بعض الدروس أمام الدعاة:

١ـ لا يليق بالداعية أن يجيب على السفاهة بمثلها وتكفى الإشارة عن العبارة فرارا من تهمة السفه التى قد يورطك الانفعال فى حبائلها:

إذا جاريت فى أمر سفيها فأنت ومن تجاريه سواء

٢ـ الحرص على أن تظل قنوات الاتصال قائمة بين الداعية والمدعو... وتحت أى ظرف من الظروف وذلك واضح من مواصلة موسى عليه السلام الحوار رغم سفه فرعون.

٣ـ من وسائل التأثير: الانتقال من جواب.. إلى جواب.. ترقِّيًا ينهى الموقف أخيرالحساب الحق.

٤ـ المخاشنة ليست واردة فى قاموس الدعوة.. وإلا كان أحق الخلق بها: فرعون.. لكن موسى عليه السلام لم يخاشنه..

٥ـ لا يضير الحقَّ أن يُبيِّن وجهة نظر الخصم بأمانة مهما كانت قاسية متجنية. ثم يكر عليها.. فيبطلها: الفكرة بالفكرة.. والرأى بالرأى.. ذلك بأن الحق قوى. وفكره واضح.. يواجه دائما على أرض مكشوفة.. بلا لف أو دوران..

والداعية المؤمن واثق بنصر الله تعالى والفتح لأنه واثق من عدالة قضيته.. ومن ثم يحكى وجهة نظر المبطل بأمانة ووضوح قطعا لكل شبهة يتذرع بها حاقد..

وذلك ما أشارت إليه الآيات الكريمة من سورة الشعراء والتى ألمحنا إليها ومن ذلك قوله تعالى مما يحكيه القرآن على ما فيه من قسوة:

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾.

لقد حفظ علماؤنا الأحاديث القوية.. وأيضا: الضعيفة.. بل والموضوعة.. ثم نبهوا إليها حذر الاغترار بها.. وربما ظُنّ أن من مصلحة الدعوة إخفاء الموضوع.

ولكنهم كانوا قرآنيين.. رباهم القرآن على خلال: الوضوح.. والثقة.. وحتى يبطلوا دعوى المبطلين... أن المسلمين قد أخفوا شيئا من تراثهم.. إن الزهور النابتة فى حنايا الكهوف سرعان ما تذبل وتموت.. بينما الأزاهير البارغة فى الضياء والهواء، تزدهر وتزكو.

وهكذا يعلمنا القرآن ألا نخاف من فكر الآخرين:

علينا أن نواجهه بالحق.. والثقة بنصر الله.. وما من أحد سوانا يستطيع أن يفعل ذلك.. نصراً للحق.. ورفعا للوائه.. وأهل مكة أدرى بشعابها

فى
سورة طه

﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾

بعض الدروس المستفادة من قصة موسى وفرعون فى سورة طه

يقول الحق سبحانه:

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً . وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً . إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ . وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ . إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ . أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي . إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى. وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي . اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي . اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ . قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ . قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ. فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ. قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ. مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ . وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا

فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ . قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى . فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ . قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ . فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ . قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ . فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ . قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ . قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ . فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ. قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ . قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ. إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ . وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ .وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ . فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ. وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ .يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ . كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ .وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾[1] .

---

(١) سورة طه: ٢٤ ـ ٨٢.

أهمية القصة

إذا كانت القصة القرآنية واحدة من أنجع وسائل الدعوة إلى الله تعالى.. فإن تكرارها فى سور القرآن من صور الحكمة التى تواجه المدعو بما لذ وطاب من فنون الخطاب.. ذاكرة من عناصرها فى كل سورة ما يناسب جوها العام.. فلعل فى هذا التلوين ما يشبع حاجة المدعو..والذى لا يصبر على طعام واحد..ليجد نفسه أمام حشد من الصور.. والدلائل.. والإشارات.. تخاطب أقطار نفسه كلها.. فإذا هو مقبل عليها.. مشوق إليها.

وقد بينا فى أحاديث سلفت كيف تحدثت سورة الشعراء عن جانب من قصة موسى عليه السلام مع فرعون..

واليوم.. نتوقف أمام مشهد آخر كما ورد فى سورة طه توقفا تزداد به العبرة عمقا.

فماذا نجد؟:

فى مستهل سورة طه يخاطب الله سبحانه وتعالى محمدا ﷺ مبينا له: أنه تعالى لم يُنزل عليه القرآن ليشقى بتكاليفه فى دنياه.. ولكنه سبحانه أنزله ليكون هدى ونورا.. يوقظ الفطرة الإنسانية إلى ضرورة القيام بدورها المنوط بها وهو: تذكُّر ما فيها من ميل إلى الحق. واتجاه إليه.. وما ضُمّت عليه آى القرآن ما هو إلا تذكير تفصيلى لما استقر فى الفطرة من قيم الخير والكمال والجمال.. يتذكرها فقط من يخشى ربه.. فهو وحده الصالح للتلقى.. ثم الامتثال..

ولأنّ هذا القرآن العظيم من عند خالق القوى والقدر: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى . الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.. لأنه كذلك.. فإن الذى يتخذ هذا التنزيل قائدا ومرشدا. سوف يصل بإذن الله تعالى إلى سعادة الدارين.. حين يُسلم زمامه إلى تشريع كامل.. خالد.. قد استكمل كل مقومات الفلاح.. لأن منزله سبحانه وتعالى له كل صفات الجلال والجمال: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ . وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى .

اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

وأين أين من هذا التنزيل مذاهب أرضية قاصرة.. تحمل فى ثناياها جهل واضيعها.. وقصورهم.. وأهواءهم.. التى تضطرب بها أحوال البشر فلا تستقر على حال من القلق.

بعد ذلك مباشرة يأتى الحديث عن قصة موسى عليه السلام.. وهو يتلقى بشائر الوحى.. ولأول مرة.. وكيف تحمل مسئولية الرسالة راضيا.. داعيا ربه أن يعينه على البلاغ المبين..

وذلك قوله تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ. إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ. فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ. وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ. قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ. قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ. وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ. لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى. اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

وهكذا يتلقى موسى عليه السلام الوحى من ربه سبحانه وتعالى:

وهذا الوحى الأعلى يدور على محاور ثلاثة:

١ ـ التوحيد: فى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾.

٢ ـ والنبوة: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾.

٣ ـ والبعث والجزاء: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾.

ويرشده الله تعالى إلى ما سوف يلاقيه من عقبات فى الطريق.. وعليه أن

يستعد لاقتحامها من الآن..

والصدام مع القُوى العدوانية آت لا ريب فيه.. وهو سنة من سنن الدعوة لا مفر من ملاقاتها بما يناسبها.. وما يلقاها إلا الذين صبروا.. والصبر على مغارم الدعوة.. ومصابرة أعدائها يعنى حياة الدعوة.. بقدر ما يكون الجبن سبيل ضعفها.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ **فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى** ﴾.

وهنا تتجلى واقعية الإسلام الذى يقف بالداعية أمام الواقع كما هو: بسلبياته وإيجابياته.. ولا يزين له الواقع كأنما هو رحلة سياحية بلا مضايقات.. حتى إذا واجه مصاعبه تقاصرت همته عن مكابرته.. فولى مدبرا ولم يعقب..

ولكن ذلك لا يعنى أن القوى العدوانية الفرعونية على شىء:

إن هذه القوى التى سوف تتربص بك: فارغة الكيس.. فارغة القلب.. فارغة الغمد..

وقد تكون فارعة القوام.. بما تملك من وسائل الدعاية والإعلام.. بيد أنها كيانات هشة لأنها لا تؤمن بالله.. ولأنها تخاف الموت.. أما أنت.. فتقدم.. سلاحك إيمانك.. فأنت الذى يخاف منك الموت..

ذلك بأن آيات الله معك: تشد من أزرك. وتبْلغ بك مأمنك:

يشير إلى هذا قوله تعالى:

﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ . قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ . فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ** ﴾.

ويلاحظ أن السياق يطوى الزمن المتطاول طيا.. فيُبرِزُ موسى عليه السلام وهو يواجه الأعداء فعلا فى معركة تنتهى بانتصار الحق.. وما يترتب على ذلك من إحساسه عليه السلام بالثقة المطلقة بنصر الله تعالى مستقبلا.. وقبل أن يخوض المعركة فعلا.

وكانت شحنةُ الثقة هذه بداية الانطلاق.. على طريق الدعوة والتى خُصَّ بها فرعون أولا: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾.

إنه رأس الفتنة. وقومه يحتطبون فى حبله. وهم بأمره يعملون.. وعلى دربه يسيرون.

فكان أول المنذرين.. كفاء طغيانه وجبروته.. والذى بلغ حد التطاول على مقام الألوهية الأعلى.

ومعنى ذلك أن للدعوة ما يسوغها وهو:

طغيان فرعون.. وهو الأمر الذى يجعل من دعوته ضرورة قصوى. تنحى هذه العقبة الكأداء من الطريق.. حتى تتاح الفرصة لأناس.. سوف تهوى بهم أفئدتهم إلى الحق بعد أن يذهب المانع المتمثل فى فرعون الذى طغى.

ولا تتحدث الآيات الكريمة عن استجابة موسى عليه السلام بمثل: سمعا وطاعة.. فذلك أمر مفروغ منه. ولا يحتاج إلى تنصيص.. ولكنها تعبر عن همة موسى عليه السلام والتى تعلقت بالمهمة الكبرى.. وها هى ذى تستعد للانطلاق برجاء يتجه به إلى الله تعالى أن يزوده بالزاد الذى يبلغ به مراده.. فى رحلة كفاح لا ينجح فيها إلا من كان الله معه بالنصر والتأييد:

وذلك قوله تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً . وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً . إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾.

ويتلخص رجاء موسى عليه السلام فى أمور أربعة يعده الله بها للمهمة الصعبة وهى:

١ ـ شرح الصدر.

٢ ـ تيسير الأمر.

٣ ـ حَلّ عقدة اللسان.

٤ ـ أن يشد أزره بأخيه هارون. وموسى عليه السلام إنما يستهدف بهذا الرجاء الارتباط الوثيق بالقادر جل وعلا ذكرا وتسبيحا. هما فى نفس الوقت الوقود المحرك. والطاقة الدافعة.. وقاعدة الانطلاق إلى البلاغ.

ولأن الله تعالى هو المكلف..وهو البصير سبحانه بكل ما كان وما سيكون.. وربما سوف تسفر عنه المواجهة بين الحق الأعزل والباطل المسلح.. ولأنه تعالى يريد أن يحق الحق ويبطل الباطل.. فإنه تعالى يتلطف بعبده موسى عليه السلام فيحقق رجاءه.. مذكرا إياه بسابق فضله عليه فى طفولته وصباه.. ليمضى على ضوء الذكرى أشدَّ عزما. وأسَدَّ رأيا. وأقوى رجاء..

ثم تبقى صورته ومنهجه عليه السلام دليلا على طريق الدعوة يؤكد كم هى طويلة.

ولابد من التزود لهذه الرحلة الطويلة: نبذل فيها قصارى جهدنا.. طالبين العون من ربنا.. غير معتمدين على سعينا وإن بدا فى أعيننا شيئا مذكورا.. وصدق الشاعر القائل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده

المهمة الصعبة

يقول الله تعالى فى سورة طه محددا مهمة موسى عليه السلام: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾

ربما تحرّج بعض الدعاة اليوم من أن يأخذ بزمام المبادرة ومن ثم لا يذهب هو إلى غنى قوى يدعوه إلى الله بحجة أن ذلك تهاون يزرى به.. وعلى العاصى أن يأتى هو إليه لأنه المريض.. فليذهب هو إلى الطبيب.

ويفرض ذلك سؤالا: هل هذا التحرج من مصلحة الدعوة؟.. ونقول: لا.. لأنه إذا أغلق الداعية عليه بابه.. ومنع الكبر ذلك العاصى من طلب الموعظة.. فكيف يتم التجاوب.. وأنت تثق.. وأنا مثق.. فكيف نتفق؟

وفصل الخطاب توضحه الآية الكريمة التى معنا:

فموسى عليه السلام مأمور أن يذهب إلى فرعون.. ولا ينتظر حتى يأتيه.. ومع أن فرعون:

أولا: طغى..

وثانيا: وصل به الطغيان حدَّ ادِّعاء الألوهية..

وثالثا: فرعون فى ذروة السوء.. وموسى عليه السلام فى قمة الكمال البشرى ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.. إلا أن ذلك كله لم يكن مانعا من الذهاب.. بل كان مقتضيل له..

يقول أبو السعود فى تفسيره: ﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ تعليل للأمر بالذهاب... ذلك بأن فرعون بلغ به مرض النفس والعقل مداه.. وموسى عليه السلام طبيب هذه العلة بأمر الله تعالى.. والطبيب للمرضى.. وليس للأصحاء. بل إن الأمر قد وصل بموسى وأخيه هارون عليهما السلام.. وإلى حد أنهما ـ كما يقول ابن كثير ـ رواية عن ابن عباس ـ مكثا على بابه حينا لا يؤذن لهما. ثم أذن لهما بعد حجاب شديد].

إن القضية بالدرجة الأولى: قضية دعوة يراد لها أن تخترق هذا الحاجز المنيع: فرعون.. لتصل إلى قلوب مستعدة للقبول والإذعان.. بغض النظر عن شخصية الداعى ومركزه... لأن وجود الداعية نفسه مرصود لخدمة الحق والتمكين له فى قلوب الناس.. ولن ينال شرف الانتساب إلى الدعوة إلا من وطن نفسه على ركوب الصعب فى سبيلها..

ولو دعا الدعاة وهم على ثقة من الأمن والراحة ـ كما قيل ـ لما قام فى الأرض مصلحون.

ولاحظ أن الأمر بالذهاب مشفوع بحكمته أو دليله وهو: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ اى أن الأمر مع أنه ممن له الخلق والأمر سبحانه وتعالى.. إلا أنه لا ينصَب حاسما جازما ليُنفَّذ بلا أسباب ولا مناقشة..

وإنما هو المنهج القرآنى الذى يحترم العقل الإنسانى ويقدره قدره..

وآية هذا الاحترام: أن يعرض القضية مشفوعة بدليلها.. والحكمة منها.. لتنشط أجهزة الإنسان فتستقبلها بالحفاوة والتكريم..

وهو درس يعلمنا كيف نعرض قضايانا على الآخرين عرضا يدخل فى حسابنا أن لهؤلاء الآخرين عقولا وقلوبا لها أفكارها ولها عواطفها.. ولها كذلك اعتزازها بآرائها..

ولها أيضا طبعها الذى ينفِر من كل عرض يشم منه رائحة الضغط أو الإكراه.. وإنما هو: تجلية الحق.. وتوضيح الدليل.. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. ولا إكراه فى الدين.

[معنى رجاء موسى]:

وقد أدرك موسى عليه السلام أبعاد المهمة ووعى تكاليفها.. وكان من الوفاء لها.. أن يدعو ربه سائلا العون والتأييد فى رحلة الكفاح التى لا تتم إلا بعونه تعالى وهداه.

وقد لخصنا فى الحلقة السابقة عناصر هذا الرجاء.. ويحين الوقت لنفصل القول فيها تفصيلا بقدر ما يتسع له المقام:

١ ـ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أى نوِّره.. ووسعه.. ليَحْدُث التجاوب مع الدعوة: أنسا بها وتفاعلا معها..

وإذا شرح الله تعالى الصدر انسجم الإنسان مع وظيفته.. فإذا هى أمر محبب إليه. أثير لديه..

فإذا ما باشر وظيفته على أرض الواقع لم يبال بما يواجه من صعاب.. وما يلاقى من عذاب.. لأنه لا ينهض لمهمته بساعده وطاقته المادية.. ولكنه يلاقيها بعون الله تعالى وتأييده..

وعندئذ يتسع القلب.. وتتنامى فى حناياه مشاعر الرضا.. واليقين بنصر الله تعالى.. وبذلك يُسخَّر الجسم ليكون آلة تحقق ما يريده القلب..

أما إذا لم يكن عون من الله للفتى حدث الآتى: كان القلب ضيقا ـ حرجا ـ كالقائد الضعيف: له صورة القائد.. لكنه فى الحقيقة مرءوس للجسد المتحكم بالشهوة الغالبة..

ذلك بأن القلب المحروم من نور الله ضيق.. ومن ثم يشوش على الخواطر.. ولا يمكِّن صاحبه من إصابة الهدف..

ولقد كان من فقه موسى عليه السلام أن يدرك ذلك.. فيسأل ربَّه.. تزودا بخير زاد فى رحلة المعاد..

ثم إن الرسول ﷺ يقول: «**لا يقضى القاضى وهو غضبان**».

فكيف بالرسالة ومسئولياتها العظمى.. والتى لابد فيها من العون الإلهى لعظم المسئولية فيها.. لا سيما وموسى عليه السلام يعرف من هو فرعون ـ والذى رأى بعينه من طغيانه ما يحتاج إلى زاد من الصبر يكافئ هذا السفر الطويل.

أهمية شرح الصدر:

ولأن شرح الصدر بهذه الأهمية فقد كان أمله الأول: فقد ذكر من دواعى العون على أداء الرسالة أربعة عوامل:

بدأ بشرح الصدر. ثم تيسير الأمر. وهذان عاملان ذاتيان.

ثم الوسيلة بينه وبين فرعون وهى اللسان والإقناع: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾

ثم العامل المادى فى المؤازرة: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي .اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ .

فقدم شرح الصدر ـ كما قال العلماء ـ على هذا كله لأهميته. لأن به يقابل كل الصعاب. . ﴿ولذا قابل به ما جاء به السحرة من سحر عظيم وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم﴾.

٢ ـ ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾

ونقول هنا: إن الإنسان قد يحب عمله. . ويباهى به الناس. . لكن الممارسة العملية قد تسفر عن عوائق تؤكد أن هذه الوظيفة أكبر من حيلة الإنسان. .

ومن ثم. . فحاجة الإنسان إلى ربه تعالى متجددة. . مع كل نَفَس. . وكل خطوة. .

من أجل ذلك يواصل موسى عليه السلام ـ رجاء ألا يكِله الله تعالى إلى قدراته البشرية المحدودة. . وأن يمنحه التأييد والتيسير. .

أ ـ ذكاءً عقليا يعرف به الحق. . وأحوال الخلق.

ب ـ ثم تذليل الصعاب من الطريق ساعة التطبيق. . والرسول الكريم يعلم الدعاة أن يسألوا الله العافية قبل الخطوة الأولى. . ومن معانى العافية كما قال العلماء:

ألا يكل الله العبد إلى نفسه طرفة عين. . ولك أن تتصور ضعف رجل يتصدى للدعوة خاوى الوفاض من هذا العون. . إنه قد يسمع الحكم بأذنه. . ويرى الموقف ببصره. . ولكن غاشيات الهوى تغبش عليه الرؤية. . فلا يرى الحكمة مما يرى. . ومما يسمع. . وعندئذ يصير عبئا على الدعوة وليس عونا لها. .

إن الداعية المعتمد على قواه الذاتية: يبدأ معجبا بنفسه. . ثم يكون الإعجاب غرورا. . ثم كبرا. . يضخم فى نظره خصائصه التى يتوهمها. . فيظن أنه فوق

النقد.. فتكثر أخطاؤه وهو لا يدرى. وهى مضاعفات تأباها طبيعة الداعية المؤمن.. الذى يتلقى الدرس على يد رسول الله موسى عليه السلام، عندما يستعيذ بربه سبحانه.. آملا أن يحقق في ظل رحمته ما يريد..

أما الغرور فهو نبتة شيطانية فرعونية.. يريد فرعون أن يروج لها وهيهات أن تنطلى حيلته على الدعاة المؤمنين.. الناجين بعونه تعالى من مكر الماكرين.

ويجىء ختام الأمل فى قوله تعالى:

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

إن البلاغة.. ونصاحة البيان من خصائص الإنسان.. فكيف بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؟

إنها بالنسبة لهم: لازم بين.. بالمعنى الأخص كما يقولون:

فالباطل يواجه الحق فى كوكبة إعلامية تزين القول.. وتزخرفه.. وشياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.. وإذن.. فمن أهم أسلحة الداعية: البيان.. يجلّى به الحق.. ويحاور به الباطل.. ويكشف عن عيوبه ومثالبه.. فى أسلوب يتشح بالحكمة ـ ولا يمكّن الخصم من الحق وأهله.

الفضيلة المشرقة

إذا حرص المبطلون على تزويق الكلام.. وتزوير المعانى بمعسول القول.. ترويجا للباطل.. وتمكينا له فى النفوس.. فبدت الرذيلة فى أعين الدهماء جذابة خادعة.. فإن من واجب الداعية أن يتسلح بالأدب العالى.. والأدب الصادق.. لتبدو الفضيلة فى هالة من الجمال والكمال.. تغرى بالإقبال عليها.. والعمل بها.

وقد كان لحسن البيان مكانته فى الفكر الإسلامى:

قال الرشيد للأصمعى يوما: ما أحسنُ ما مر بك فى تقويم اللسان. فقال: أوصى رجل بعض بنيه فقال: أصلحوا ألسنتكم: فإن الرجل تنوبه النائبة.. فيتجمل فيها.. فيستعير من أخيه وأبيه ومن صديقه ثوبه... ولا يجد من يعيره لسانه وأنشد فى ذلك:

وما حسن الرجال لهم بزين إذا لم يُسعد الحسنَ البيان

كفى بالحر عيبا أن تراه له وجه وليس له لسان!

فالبيان من خصائص الحرية.. ثم هو وسيلة من وسائل البلاغ والإقناع... ذلك، بأن للبيان بفنونه الكلامية والجمالية دوره فى توطيد دعائم الحق وتبديد طاقات الباطل.

ويرى المنصفون: أنه من ظُلْمنا لأنفسنا أن نتخلى عن البيان ليستأثر به المنحرفون.. الذين يستقلون به.. ثم يستغلونه فى التمكين للانحراف الذى يسرى فى جسد الأمة تحت ستار من الزيف والإغراء.

ولقد عرف أعداؤنا كيف يسيطرون علينا بما اخترعوا من فنون الإغراء... ولم يكن هدفهم الأول إخراجنا من الدين.. فإن من يخرج من دينه لا خير فيه.

وإنما أراد أن يكون مسلم صاحب دين.. ولكن لا يفهم ذلك الدين.. وإذا لم يفهمه.. فلن يتحمس للدفاع عنه يوماً.

ولا نقصد بالبيان هنا: أن يأخذ الداعية بناصيته.. وإنما قصاراه: أن يكون له فقه باللغة العربية.. ثم دراية بتصاريف القول.. ليتمكن من التعبير عن مكنون قلبه. بالقول الثابت الواضح.. مع قدرة على فهم مرامى الكلام.. ليظل ممسكا بالزمام دائما..

ولقد بلغ الاهتمام باللغة العربية حدا كان الجهل بها سبيلا إلى الفصل من الوظيفة.. وذكروا فى ذلك: أن عمر رضى الله عنه أرسل لأحد ولاته أن يعزل كاتبه ويضربه سوطا.. لأنه رفع المجرور!

وقبل أن يذهب الوهم بنا لنتخيل قسوة العقاب نذكر ما للخطأ فى الفهم من خطر قد يُودى بحياة إنسان:

مدحت ليلى الأخيلية الحجاج فقال: يا غلام: إذهب إلى فلان فقل له «يقطع لسانها». فأمر «فلان» هذا بحّجام ليقطع لسانها فعلا!

فقالت ليلى مذعورة: ثكلتك أمك! إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة.. ولولا تبصر الأخيلية بأنحاء الكلام. ومذاهب العرب فى القول.. ولولا فقهها بمعانى الخطاب لوقع بها ما أراده ذلك الأحمق الجاهل بلغة القرآن.. وهكذا: أحيا الله تعالى نفسا بسبب الوعى بتصاريف اللغة وفهم الخطاب.

ولقد كان جهل المستشرقين بأسرار اللغة حاملا لهم على ادّعاء أحكام أطلقوها بغير حساب.. وهنا تظهر خطورة من يتجرأ على استنباط أحكام بتراء.. بينما هو من اللغة فى مكان بعيد.. كما وأن الجهل بها مانع من تذوق أسرارها.. والوقوف على ما وراء سطورها.

قال أحد المستشرقين للملك فيصل رحمه الله: لقد قرأتُ القرآن، فلم أجد فيه ذلك الإعجاز الذى حدثتنا عنه.. فقال له الملك: إنك قرأته بلغتك أنت.. فكان ما كان..

وكان ذلك توجيها راشدا من الملك حمله على تعلم اللغة العربية.. ثم قرأ القرآن بروح جديدة.. فتذوق.. فعرف. ثم اعترف!

ولا نكلف الدعاة من أمرهم عسرا.. ونحمّلهم عنتا.. حين ندعوهم إلى أخذ أنفسهم بجمال البيان.. فحسن التعبير داخل أساسا فى نسيج وظيفتهم. ألم يقل الله تعالى: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾**.

ومن الحكمة أن نقول الكلمة فى زمانها المناسب..

ومن الحُسن أن تكون الكلمة جميلة.. خفيفة.. على لسان متأدب ينسجم بجمال أدبه مع هذا الجمال المنبث فى أرجاء الكون.. إلى جانب ما يثمره التبحر فى اللغة وأساليبها من قدرة على حسن التخلص وتلافى فى الحرج فى المواقف الصعبة:

أنشد بعض الخوارج:

ومنا أميرُ المؤمنين شبيب [ورفع أميرُ]

فلما وصل البيت إلى عبد الملك بن مروان طلب قائله وسأله؟

أنت القائل: ومنا أميرُ المؤمنين شبيب.. قال: لم أقل هذا ولكنى قلت: ومنا أميرَ المؤمنين.. بفتح الراء.. فأعجب عبد الملك بفطنته. وأخلى سبيله..

ولا نقصد بالبيان أيضا ذلك التقعر فى مسائل النحو على جهة الكَلَف بالجرى وراء الشروح والولع بالخلاف.. ولكنا نريد: القول الطيب.. وطيب الكلام يعنى: صدق النوايا. وجمال الأسلوب. وسلاسة التعبير وسلامته أيضا.. وهو بذلك أعلى صور الهداية.. على ما يقول سبحانه: **﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾** [الحج: ٢٤].

لقد هداهم الله تعالى إلى القول الطيب.. فكان سبيلا إلى استقامتهم على الصراط الحميد.

ومن طريف ما يروى:

أن معركة ساخنة دارت بين المفسرين واللغويين حول اللؤلؤ والمرجان...ومن أين يخرج.. من النهر أم من البحر؟

قال اللغويون: يخرج من النهر. ومن البحر.. معا.

وقال المفسرون: بل من البحر..

وكان ذلك الجدل الحسن وهذا الاستبحار سبيلا إلى استنهاض الهمم.. فهب العلماء الكونيون بأجهزتهم العلمية.. ليثبتوا فى النهاية أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من النهر والبحر معا. وانتصر اللغويون!

وقد حرص الفكر الإسلامى على لفت الأنظار إلى شرف البيان الذى يجب أن يكون شرعة الداعية ومنهاجه..

ومن توجيهاتهم هنا: إن الأمة تسير إلى الحق عبر طريقين: التشريع.. والبيان.

وصناعة البيان أشرف صناعة تحلى بها جِيد النوع الإنسانى لاستمدادها من العقل. وحركات النفوس. ودلائل الوجود.

فالعقل الذى امتاز به الإنسان وإن كان له دخل فى كل شىء.. إلا أن صلته بالبيان أقوى: فقد تحيا الصناعة البارعة فى متوسطى العقول.

أما البيان الجيد.. فلا يزدهر.. بل لا يحيا إلا فى الأمم الراقية.. لأنه يُستمد من الغيب أكثر مما يستمد من عالم الشهادة.

ومن الإنصاف أن نقول: إن بعض الناس قد يستنكرون البيان ويعدونه شقشقة باللسان.. بل يعدون صاحبه جاهلا..

وفى هذا الرأى من التجنى ما فيه... التجنى على لغة نبيهم.. وفيها سرّ كتابهم. وفخار أمتهم وعليها وحدها حياة دينهم.

ذلك بأن البيان تستدل به العقول على الله وتُرفع به الحجب عن الحق وينكشف وجه الصواب إذا أحاط به الباطل... وتُنشر الحكمة ويقام صرح العدل..

وتصور معى ذلك الحوار الذى تخيله أحد الأدباء بين الحق والباطل.. وكيف انتصر الحق فى النهاية بما يملك من قدرة على المواجهة.. وحكمة يقذف بها الحقُّ

الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق قالوا:

تمشّى الحق والباطل يوما فقال الباطل: أنا أعلى منك رأسا.

قال الحق: وأنا أثبت منك قدما.

قال الباطل: أنا أقوى منك وقال الحق: وأنا أبقى منك!

قال الباطل: أنا معى الأقوياء والأغنياء. قال الحق: ﴿وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾.

قال الباطل: أستطيع أن أقتلك الآن فقال الحق: ولكن أولادى سيقتلونك ولو بعد حين.

حسن البيان

كان فى طليعة ما طلبه موسى عليه السلام من ربه سبحانه ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ . . وقد استبطنا من ذلك ضرورة أن يكون الداعية على شىء من حسن البيان يأسر به القلوب:

فإذا كان للعقل غذاؤه وهو: البرهان . . فإن للقلب أيضا غذاءه وهو جمال البيان . . والمدعو بين يديك: له عقل . . وله قلب . .

والداعية الناجح من يحاول مخاطبة أقطار نفسه كلها . . ذلك بأن الحقائق لو بقيت عقلية مجردة . . سوف لا تستقر فى النفس طويلا . . ولكن القلب عندما يستثار بجمال البيان فإنها تستقر فى الأعماق . . وتؤتى على مر الزمان أكلها . .

أرأيت إلى الطعام: تُقبل عليه وأنت تشتهيه؟ إنه يعطيك أثمن ما فيه . . كذلك الحقائق العقلية المحمولة على جناحين من دقة المعنى . . وجمال الأسلوب . . فكما أن الطعام بالشهية يتمشى فى دمائك عافية . . فكذلك الحقائق بإثارة القلب . . تتمشى فى كيانك حيوية: تغريك بالعمل بها . . مهما كلفتك من مجهود . . ألا إن الكلمة الجميلة لتسرع إلى أذنك . . وفى نفس اللحظة يسبقها معناها إلى قلبك فإذا هو ينتفض كالعصفور بلله القطر . .

فذلك خير . . أم تلك الكلمة النابية الجافية . . يسمعها غيرك . . ويتعثر معناها فلا يصل إلى القلب . . لأن الكلمة مقصوصة الجناح . . فأنى لها أن تصل إلى الأعماق.

وفى قصة موسى عليه السلام شاهد على ذلك: فى هذه السورة «سورة طه» لا يقول الله تعالى لمحمد ﷺ مباشرة: واذكر قصة موسى إذ رأى نارا . . ولكنه يمهد لذلك بلون من البيان يمهد السبيل أمام الحقائق لتأخذ سمتها إلى القلب . . وذلك قوله تعالى ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ . . .

إن الاستفهام هنا يثير القلب . . مدفوعا بغريزة حب الاستطلاع . . التى تستيقظ على وقع هذا الاستفهام . . فإذا كيان المدعو كله آذان صاغية . . واعية وإذ

يأخذ المنهج الإسلامى فى الدعوة.. أهمية البيان فى عرض حقائق الإسلام.. فإنما ينسجم مع طبيعة الإنسان الذى كان البيان من لوازمه: يقول تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾.

ويلاحظ أن السياق لم يعطف البيان على الإنسان.. لأن العطف يقتضى التغاير.. والحال أن البيان والإنسان ـ إن صح التعبير ـ وجهان لعملة واحدة: وكأنما خلق الله سبحانه الإنسان يوم خلق البيان.. أو خلق البيان فى شخص الإنسان.. فلا يفترقان..

وعن أثر الكلمة المعبرة ودورها فى تحويل الإرادة لتعمل يقول ابن الأثير فى المثل السائر[1]:

[ألا ترى أن حقيقة قولنا: «زيد أسد هى» قولنا: «زيد شجاع».. لكن الفرق بين القولين فى التصوير والتخييل وإثبات الغرض المقصود فى نفس السامع:

لأن قولنا: «زيد شجاع» لا يَتَخيل معه السامع سوى أنه رجل جرىء مقدام. فإذا قلنا: «زيد أسد» يتخيل عند ذلك صورة الأسد، وهيئته.

وما عنده من البطش والقوة، ودقِّ الفرائص.. وهذا لا نزاع فيه.. وأعجبُ ما فى العبارة المجازية.. أنها تنقل السامع عن خُلقه الطبيعى فى بعض الأحوال.. حتى أنه ليجُود بها البخيل. ويشجَع الجبان.. ويحلُم بها الطائش المتسرع ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر.. وهذا هو السحر الحلال].

وربما حلا للبعض الانشغال بالتخريجات النحوية العويصة.. عن إدراك ما فى التراكيب الجميلة وما لها من تأثير عميق فى القلوب..

يقول بعض الباحثين منبها لهؤلاء الغافلين عما فى الجملة القرآنية من بيان يأسر الإنسان بالصيغ القرآنية التى تبدو مصادمة لقواعد النحو والتصريف مثل قوله تعالى: ﴿**لنريك من آياتنا الكبرى**﴾ حيث وُصف الجمع بلفظ المفرد... وكقوله تعالى: ﴿**فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى**﴾ فأفرد «تشقى» والأصل المستَحَقُّ فى تركيب الكلام «فتشقيا». وكان عليهم أن يدرسوها متعمقين. لتحليلها وتأصيلها.

---

(١) ج١/ ١١١.

ويرى الباحث . .

{أن الموسيقى ـ يعنى موسيقى الألفاظ العربية ـ عنصر من عناصر بناء اللغة العربية فى تركيب جُملها ورعاية توافق اللحن بين الجملة والجملة.

وأن هذه الموسيقى هى تمام البلاغة فى وضع هذه اللغة، من حيث إن وظيفة البلاغة إنما هى التأثير فى نفس السامع تأثيرا يصل به إلى اقتناع نفسه، وانقياد وجدانه . . بالحكم الذى وقع الكلام البليغ تعبيرا عنه.

وعنصر الموسيقى في الكلام يشارك التعبير البليغ حين يداخل تراكيب نظمه هذا التأثير المقصود الأساسى بسَوْق الكلام . . وإجرائه مجرى البلاغه.

و«الجمال» أقدر من المنطق فى تطويع النفوس لما يراد لها من المقاصد}.

ويخلُص الباحث إلى القول: بأن معنى الجملة ما دام واضحا للمخاطب . . ومادام المقصود الأصلى لا يلحقه خلل . . فلا بأس بخطاب الواحد فى مقام الاثنين، إذا وفّر ذلك عنصر الجمال الذى هو عنصر أساسى فى عملية التأثير.

وقد شدد بعض المخلصين النكير على الشعر . . وقد يحرّمون على المربين استعماله فى أغراضه المختلفة ـ كما قيل ـ

لكن المنصفين الغيارى على الدعوة . . يقولون {ربما يسمع المرء المعنى نثرا فلا يهز له عِطفا ولا يُهيج له طربا. فإذا حوّله نظما: فرّح الحزين . . وحرك الرزين . وقرب الأمل البعيد}.

وفى هذا يقول الرافعى {وإنما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت . . يراد منه إضافة صناعةٍ من طرب النفس . . إلى صناعةِ طرب الفكر}.

ولهذا يقول أنصار استخدام الشعر ـ ذى المعانى الشريفة ـ ليكون سلاحا من أسلحة الدعوة:

{لهذا ملنا إلى إيراد الأشعار والأستعانة بها فى هذه المواعظ، قاصدين أن نضيف إلى هذه المعانى التى يستحسنها فكر الداعية نوعا من استحسان نفسه لها؛ ليرسخ المعنى، ويطول تأمله وتذكره}.

لقد كان ابن تيمية ـ رحمه ـ الله فارس الحلبة بلا منازع: تمكينا لعقيدة التوحيد. ورفعا لراية الإسلام.. فيما يشبه كوكبة من الجند أعز الله بها الحق. وأذل الباطل..

ولكنه ابتلى بأهل البدع الذين امتشقوا حسام الشعر.. ترويجا لبدعهم.. مستثمرين ما فى نظمه من تأثير على الدهماء ممن يحتطبون فى حبلهم.. وكما يقول إقبال:

ولا ريب أن منطق ابن تيمية القوى.. أثّر أثره.. ولكن جفاف المنطق لا يقوى أحيانا ـ على مقاومة نظرة الشعر وفتنته. ومن هنا قالوا: إن الذى قلل من سريان كلام ابن تيمية أحيانا لدى العامة. ما كان عليه أئمة الضلالة من فنون الكيد..

فبينما كان ابن تيمية رحمه الله وتلاميذه يفندون مزاعم أهل البدع والأهواء ببراهين السنة الغراء.. كان المبطلون على شىء من روعة البيان.. ورقة الشعر.. حتى استطاعوا ـ أحيانا ـ أن يسحروا أعين الناس.. بينما لم يتهيأ للإمام شاعر يسابق هؤلاء إلى قلوب الدهماء.

بعد ذلك يجوز لنا أن نقول: إن لِفَنِّ الكلام.. وعنصرِ الجمال فيه مكانته المكينة فى المنهج الإسلامى فى الدعوة.. وبالذات.. ذلك المنظوم من الكلام.

ومن الحكمة أن نحارب المبطلين بنفس السلاح.. وإنا لمنتصرون بإذن الله تعالى.. فى معركة لا ينتصر فيها إلا من تعرف على دوافع الإنسان. ومواقع رضاه وغضبه ليضرب على الوتر الحساس.. وفى الوقت المناسب.

يقول بعض الباحثين:

[إن للشعر هذه القابلية فى إسعاف من يستعمله وتزيين الخطأ أو الصواب. ونصرة الحق أو الباطل على حد سواء. فى كل شئون الفكر وحقائق الحياة.

إذ النفس الإنسانية تحب الجمال.. والشعرُ جمال كله. وبإمكانه أن يزيد الحق والصواب نَضرة ووضوحا.

أو أن يُخفى مايشين صفحة الباطل والخطأ والوهم من خروق ونتوء

واعوجاج. فينطلى عيبه بالتزويق ولا يتخلص من أسْر الشعر وتأثيره إلا قلب عامر بالإيمان عمرانا كافيا].

ولا نريد للداعية أن يكون راوية للشعر. ولا سبَّاحا ماهرا فى أبحره المترامية.. لكننا فقط نهيب به أن يفتح قلبه لبعض الشواهد التى تَزِين المعنى المقصود.. تزيينا يحمل المدعو على الإقبال عليه والاستماع إليه بل والاستمتاع به.. فى زمان يتنادى فيه شياطين الإنس والجن.. يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا...

رفقة الخير على طريق الدعوة

بقيت من آمال موسى عليه السلام أن يشد الله أزره بأخيه على طريق الدعوة التى حفت بالمكاره.. ولابد من الرفيق قبل الطريق. وذلك قوله تعالى: **﴿واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا﴾**.

لابد على طريق الدعوة الطويل من رُفقة الخير.. من أعوان يواجهون معه المواقف بالجهد المشترك.. وبخاصة من أهل ثقته.. وهم أقرباؤه.. فإذا كان القريب أخًا فقد تمت كلمة ربك صدقا وعدلا.

وكلما كثرت الأصوات فى لحن متناغم متناسق كلما كان التأثير أشد.. وذلك قول الشاعر:

فقلت ادع وأدعو إن أندى   لصوت أن ينادى داعيان

ثم إن موسى عليه السلام لم يطلبه مجرد مساعد.. وإنما طلبه وزيرا: يعنى.. مسئولا معه.. وبنفس النسبة.. قادرا على النهوض معه بالعبء الثقيل.. شريكا له فى تحمل الأمانة..

ولعمرى.. إنه لدرس فى صلة الرحم عظيم حتى قيل:

ما بَرَّ أخ أخاه.. كما بر موسى أخاه هارون إذ طلب له أشرف مطلب وهو: الرسالة والنبوة.

وعلى هذا الأساس ينبغى أن تقدم علاقة القرابة.. ألا وإن ما يحدث بينهم من تحاسد فهو الاستثناء من القاعدة.. قاعدة البر.. والذى هو من نزغ الشيطان على ما جاء فى سورة يوسف: **﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾**

وإذن فنحن أمام أعلى صور التعاون على البر والتقوى بين الأخوين..

ومع التسليم ابتداء بقدرة موسى عليه السلام على البلاغ.. إلا أن الأمر على ما قيل:

إن أجود السيوف لا يستغنى عن الصقل.

أما لماذا طلب موسى عليه السلام أخاه هارون بالذات.. فيجيب العلماء بأن هارون كان:

أ ـ أوسع صدرا.

ب ـ وأكبر سنا.

جـ ـ وأفصح لسانا..

وقبل ذلك فهو أخوه:

ومن ثمرات الأُخوة: الإخلاص والتفانى والتضحية.. ومع الرفيق تهون مصاعب الطريق..

وعندما يطلب أخاه ليذكرا الله تعالى معا.. فهو بطبيعة الحال لا يريد التسبيح فى الخلوة ـ على ما يقول المفسرون ـ وإنما يريد ما يكون فى تضاعيف الرسالة:

وذلك أن كلا منهما يصدر عنه ما يؤيد صاحبه.. ويترتب على ذلك أن مرتبة التأثير تكون فى أعلى مستوياتها.. فى الوقت الذى يضعف فيه أثر الصوت الواحد.. الذى ربما تَعرَّض له الطاغية فخنقه.. فضاع فى دوامة الكيد.

وهناك حقيقة نفسية تقول: إنك حين تعتقد أن أمرا من الأمور حق، تشعر بالراحة عندما تميل نفسك إليه موقنا به مذعنا له.

وإنك لترتاح أكثر إذا ما وجدت إنسانا ما يقاسمك الإعجاب بهذا الأمر.. بل إن إحساسك بالراحة حينئذ ليبلغ مداه.. فى الوقت الذى يغضبُك أن ترى من يعمل ضد هذا الحق فى محاولة للقضاء على مبدأ صار جزءا من كيانك.

هذا إذا كان الموضوع مجرد أمر عادى بسيط.. يتعلق بالحياة اليومية العارضة..

أما إذا كان الموضوع من الخطورة بمكان.. وهو موضوع العقيدة المنوط بها سعادة الدارين.. فإن نسبة الراحة عندئذ. وفى حال الموافقة بالعثور على الصاحب الأمين تبلغ درجة التشبع..

ذلك بأن الحقائق تتفاوت بحسب ما يترتب عليها من نتائج.. ولا شك أن أمور العقيدة بالغة الذروة.. من حيث صلتها بسعادة الدنيا.. وسعادة الآخرة..

وعلى هذا الأساس طلب موسى عليه السلام أخاه هارون وزيرا.. ليزداد قوة.. ويقوى ظهره فى مواجهة عدو ماكر لا يألوه خبالا.

وهناك أمر آخر:

لقد كان موسى عليه السلام حاد الطبع سريع التأثر.. ولو أنه انفرد بالدعوة والرسالة لبقى متجدد الحاجة إلى الصدر الرحيب.. والقلب الوسيع.. الذى يدور بالحكمة حول الشدائد لاحتوائها.. وذلك هو الدور المنوط بهارون عليه السلام..

إن المزاج الحاد المشاعر الحساس.. يحقق على طريق الدعوة نجاحا ولا شك.. وأحيانا.. وفى مواجهة الكفار.. يحس الحق بضغط الرذيلة البغيض من قبل عدو يجاهر بها.. متحديا.

ولا يَفُل هذا الحديد إلا دفاع قوى.. ومع هذا.. فليس من الحكمة أن ينفرد المزاج الحاد بتصريف أمور الدعوة..

ولابد مع ذلك من وجهة النظر الهادئة.. المعتدلة.. والتى تستثمر مواقف الشدة لحساب الدعوة.. وبهذا يتكامل الدعاة على الطريق.. يتكاملون.. ولا يتلاومون يتساندون.. ولا يتعاندون.

ومن ملامح المنهج الإسلامى فى الدعوة هنا: أن الداعية قبل أن يخطو الخطوة الأولى.. يتحسس قواه ويستكشف إمكاناته:

فهو يعلم جيدا أنه مكلف بمهمة صعبة تتقاضاه أن يواجه أعتى الجبارين.. فرعون.. ولأن العظائم كفؤها العظماء. فلابد أن يكون على مستوى التكليف..

وإلا.. فإن مجرد الإخلاص للدعوة لا يكفى للنهُوض بتبعاتها.. ولابد مع الإخلاص من توفر عدة الكفاح.. وهو لون من نقد الذات.. يكشف عن صدق الداعية مع نفسه حين يطلب المزيد من التأييد ضمانا لنجاح يتوِّج الله تعالى به ما يقدمه الداعية من نفسه وماله ووقته.

ثم إن فى طلب موسى عليه السلام لأخيه ما يحقق الانسجام بين الدعاة. . الانسجام المحكوم بقيم الحق والخير والجمال. . فرارا من التفرق الذى يصبح فى أيدى أعداء الإسلام سلاحا يجهزون به علينا. . وهم لا يفرطون. .

ويجيء ذكر الله تعالى زاد الطريق. . ولا زاد سواه: **﴿كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بصيرا﴾**.

وهو درس للدعاة ألا يعتمدوا على أنفسهم. . وقصاراهم أن يبذلوا الطاقة. . والنتيجة فى النهاية على الله سبحانه وتعالى.

فنحن نسبحه. . ونذكره تعالى. . كما أمَرَنا. . وهو سبحانه يحقق أملنا فى النصر كما وعدنا. . وهنا يجيء قوله تعالى: **﴿قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾**.

أوتيت سؤلك. . وتحقق أملك فعلا. . وقبل أن تخوض المعركة. . فسِرْ على بركة الله تعالى. منصورا مأجورا. . واثقا بنصر الله والفتح. .

ولكن الخطوة الأولى على الطريق تبدو دائما صعبة. .

إن الدرس الأول لمدرس ناشئ. . والليلة الأولى فى حياة الجندى. . كلها صعبة. . شديدة الوقع. . محفورة فى الذاكرة لا تنسى. . وهكذا الأمور فى بداياتها. .

وعندئذ يتنزل عون الله وتأييده على موسى عليه السلام. . وقبل أن تبدأ المواجهة مذكرا إياه بما فى ماضيه من مواقف حرجة. . وشدائد مخيفة. .

وكيف ولد. . وقد حُفَّت حياته بالمكاره. . رضيعا. . فطفلا. . فصبيا. . ثم كيف كان مشمولا مع هذا كله برحمة الله تعالى ولطفه. .

والله الذى أنقذه من كل هذه الشدائد. . ما يزال معه بالنصر والتأييد. .

والمشكلة ليست فى نصر الله تعالى. . **﴿فلقد أوتيت سؤلك يا موسى﴾** ومن الآن. . لكن المهم. . أن تبدأ. . أن تتحمل مسئولية الدعوة باذلا كل وسعك. . وعندئذ تنتهى مهمتك.

وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ . إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ . أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي . إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ . وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه٣٧ـ٤١].

أهمية التعاون على البر

وما يزال الحديث موصولا فى ضوء قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:

﴿واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا﴾.

وتثير الآيات الكريمات أمرين.. هما من أبرز العلامات على طريق الدعوة الطويل:

أ ـ التناصر من أجل الدعوة وما يحققه من فوائد جامعة مانعة.

ب ـ الذكر.. تلك الطاقة الدافعة.

وفيما يتعلق بالأمر الأول.. فإننا نسجِّل ابتداء ظاهرة من ظواهر المجتمع البشرى، كما قررها البصراء الداعون إلى التعاون على البر والتقوى.. فرارا من العزلة الهاربة من الحياة... قالوا:

لن تجد ناجحا واحدا وصل إلى القمة من غير أن يستند إلى صديق أو زوجة ودود.. كل واحد منا مدين لأشخاص مجهولين أو معروفين.. مَدُّوا له يدهم عندما وقع على الأرض... أضاءوا له شمعة عندما احتواه الظلام.. قالوا له كلمة طيبة.. بينما مطارق الحياة تنهال على رأسه.. أعطوه ابتسامة عطف.. والدنيا تكشر عن أنيابها فى وجهه..

وفى الوقت الذى يَفْسد فيه الصالح إذا صاحب فاسدا كماء النهر الحلو.. يصبح ملحا بعدما كان عذبا فراتا.. فى هذا الوقت يجىء الصاحب الصالح وهو ساحب كما يقولون ـ يجىء رزقا يسوقه الله تعالى إلى الإنسان.. وهو ينقل خطاه وحيدا على درب الحياة الموحش.. فإذا هو بالصديق الصدوق فى حقل من التجارب.. تنمى المواهب وتمحو المعايب.. تجعل العاقل حكيما.. والحكيم رائدا.. ويصير الأمر على ما قال ابن القيم رحمه الله: مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست:

من الشك.. إلى اليقين. ومن الرياء.. إلى الإخلاص... ومن الغفلة إلى

الذكر.. ومن الرغبة فى الدنيا.. إلى الرغبة فى الآخرة... ومن الكبر إلى التواضع.. ومن سوء النية إلى النصيحة.

وإذا كان ذلك واقعا ملموسا فى حياة المؤمن العادى.. فكيف بآثار الصحبة الطيبة على مستوى النبُوة فى أفقها العالى؟ لسوف يكون عطاؤها موفورا مشكورا..

لكن سؤال موسى عليه السلام ربه أن يجعل له من أهله وزيرا يتيح لنا فرصة الحديث عن موضوع الاستعانة بالغيْر على طريق الدعوة.. ومدى ما يحققه من نجاح..

وقد شُغل الفكر الإسلامى بهذه القضية حتى تساءل علماؤنا الكرام من سلفنا الصالح: هل يكفى الواحد لينهض بعبء الدعوة منفردا؟ على ما تثيره الوحدة من وحشة؟

وأجاب جماعة: نعم.. يجوز للواحد أن يدعو منفردا... واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. إن الطائفة فى لسان العرب تطلق على: الواحد.. فما فوقه.

وقد نوقش هذا الرأى بما ينهى الحوار لصالح الداعية مقررا ضرورة أن يتناصر الدعاة: يشد بعضهم أزر بعض.. ونلخص القضية فيما يلى:

الداعية الواحد مفيد فى حالة ما إذا كان المدعو جماعة من الغافلين الذاهلين عن الحق.. ويراد وضعه بين أيديهم.. وإبلاغهم بالحكم الشرعى.. لعلهم يتذكرون.. فينشطون.. أما من حيث أثرُ الدعوة البالغ فى النفوس.. فللدعوة الصادرة عن الجمع المتآزر المتعاون آثارُها.. ولكن الأمر هنا محكوم بضوابط تفرضها الظروف المتغيرة.. والتى يناسب كلٌّ ظرف منها أسلوبه الخاص:

أولا: يكفى عدد من الدعاة قليل إذا كان المدعون فى مستوى نفسى متقارب.

ثانيا: إذا اختلفت مشارب المدعوين، فكثرة الدعاة مطلوبة.. كما أن تنوعهم مطلوب أيضا: لأن تباين الألوان يستدعى دعاة من كل التخصصات بعدد هذه الألوان.. ليدخلوا القلوب من زواياها المختلفة.

وقد يخطر للجمع من الدعاة ما لا يخطر على بال الواحد منهم.. بل قد

تهتدى النفوس أحيانا بأسلوب قليل العلم.. كثير التقوى.. ولا تهتدى بأسلوب عالم غزير العلم.. لم يتمكن من الوسيلة الواصلة به إلى قرار النفوس.. وإنْ ظل بعلمه بين الدعاة عَلَمَ هدى.. ودليل الطريق.

ثالثا: ينبغى أن نعلم أن الدعوة إلى الإيمان ابتداء.. على جانب كبير من الصعوبة: لأنها نقلة بعيدة من وضع متخلف.. إلى وضع مختلف تماماً؛ من عبادة العباد.. إلى عبادة الواحد الديان.. ومن ضيق الدنيا.. إلى سعتها فى ظل الإيمان.. ومن ثم فهى تحتاج إلى جمع من المتخصصين.. بينما الدعوة إلى الأحكام العملية من السهولة بمكان.. من حيث إنك تدعو إليها ناسا آمنوا فعلا.. فعقيدة الإيمان فى قلوبهم تقف مع الداعية فى مواجهة النفوس الغافلة..

رابعاً: وقد تكون هناك جماعة متسلطة.. سول لهم الشيطان وأملى لهم وزين لهم أعمالهم كفرعون وملئه: الذين كانوا يمسكون بمقاليد الأمور..

ومشكلة الدعوة مع هؤلاء.. أنها لا تطمع فى إصلاح أنفسهم أوّلا.. بل إن مشكلة الدعوة الأولى معهم، هى: تنبيههم إلى خطر ما يصنعون.. ثم مواجهتهم بالحقائق التاريخية التى تكشف عن مصير إخوة لهم على طريق الضلال.. أخذهم الله بذنوبهم.

ومثل هذا الصنف يحتاج إلى كوكبة من الدعاة على طراز خاص من الشجاعة الأدبية الملتزمة بالحكمة.. والتى تقتصر مهمتها على الكلمة الهادية الساجية... فلعل وعسى..

وهم أبدا: لا تنعقد ألسنتهم عن قول الحق.. ولا تنقبض أيديهم عن فعل الخير شرعة لهم ومنهاجا يملأ العيون التى تستهويها منهم القدوة الطيبة: التى تقول الطيب.. وتفعل الأحسن..

يتعاونون على البر والتقوى، فى مواجهة الكفار الذين يتعاونون على الإثم والعدوان.. وبهذا التعاون يشد بعضهم أزر بعض.. وكذلك فعل موسى عليه السلام وأخوه هارون فى مواجهة فرعون وملئه.

ومن دلائل السنة المطهرة على هذا:

أن رسول الله ﷺ بعث أبا موسى، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما إلى

اليمن وقال لهما: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا**».

إن الانفراد قد يحمل على اليأس.. حيث تقل إمكانات مواجهة الباطل بكل الأسلحة: المادية والمعنوية..

ومن أجل ذلك كانت المصلحة في الصحبة: أُنسا بها في وحدة تستعصى على الكفار فلا يستطيعون شقها.. شق الصف المؤمن.. والذى يجدون أنفسهم منه أمام حائط من الصلب عصى على الاختراق.. ويصير أمرهم على ما يقول الشاعر:

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها، و أوهى قرنه الوعل

ولن يتم ذلك إلا باستلهام نصيحة الرسولﷺ لمعاذ وأبى موسى رضى الله عنهما.. لاستيعاب ما فيها من دروس:

دروس فى التيسير.. والتبشير.. والتطاوع والانسجام.. فى وحدة يغيظ الله بها الكفار.. وتجاوزاً لفتنة التفرق وما يترتب عليها من تمزق.. ومن معانى التطاوع هنا: ألا يقول أحدهما ما يناقض الآخر.. وما يحبط مسعاه..

ويفرض هذه الوحدة ما نراه من وحدة أعدائنا فى الكيد لنا.. ولا يجمل بنا أن نمكن الأعداء من العمل فى وحدة هى أساسا بضاعتنا.. وثمرتنا التى أنبتتها شجرة التوحيد.. وحرام أن يتفرق الموحدون! ويتجمع اللصوص!!

وفى ضرورة أن يكون الدعاة أمة واحدة نقرأ ما لاحظه بعض الباحثين.. قال: يقول تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير**﴾ وقال تعالى: ﴿**ومن قوم موسى أمة..**﴾ فالأمة مأخوذة من الائتمام.. أى: يأتم بعضهم ببعض: يتكاملون. فى وحدة لا تنفصم عراها.

فلفظ «قوم» أقل عددا.. فهو أليق بالإطلاق على الدعاة.. ولفظ «الأمة» أكثر عددا.. فهو أليق بالمدعويين.. وهذا هو الأصل.. ولكن الآية الكريمة اختارت لفظ «الأمة» للدعاة.. ولعلها تلفت الأنظار إلى ما يُشعر به اللفظ من معانى: التعاضد.. والتناصر.. والوحدة.. لتكون هذه المعانى شعار الدعاة الذين يستشعرون مهمتهم الكبرى وهى الوحدة.. التى هى ثمرة التوحيد.. وليس التمزق.. حتى لا ننقض غزلنا من بعد قوة أنطاثا.

الاستعانة بالكافر

ما تزال هناك بقية نستبين بها كيف كان التضامن على طريق الدعوة أمرا ضروريا. وهو السبب الذى حدا بموسى عليه السلام أن يخاطب ربه سبحانه قائلا:

﴿واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى...﴾

وما تزال السنة المطهرة تعطينا من شواهدها ضرورة الاستعانة بالغير فى الدعوة استعانة تحمل طابع الرحمة التى هى شعار أمتنا. . **﴿.. رحماء بينهم﴾** ففى بيعة العقبة الكبرى قالﷺ:

«تبايعونى على السمع والطاعة؛ فى النشاط والكسل - أى فى الحرب والسلم - والنفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فيه لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة إن وفّيتم».

وإذن. . فلا مانع من الاستعانة بالغير. والطمع فى حمايته. . مادامت هذه الاستعانة لمصلحة الدعوة وليست مخصومة من حسابها. . كما وأنها ليست ضعفا يستجدى النّصير. . بقدر ما هى استعداد يكافئ إعداد أعدائنا الذين يتحالفون حتى مع الشيطان من أجل القضاء علينا.

وقد يسألنى طالب وقد سأل بالفعْل: إذا كان المسلم منطقيا مع نفسه ومع دعوته عندما يستعين بمسلم مثله. . يجاهدان معا عدوا مشتركا. . فما بال المسلم يستعين بكافر. . هل يجوز؟

وأجبته وأنا أعرف ما يعنيه: خلاصة القضية أن رجلا مسلما هجم عليك فى بيتك بينما أنت آمن فى سربك. معافى فى بدنك ميسر لك فى رزقك. فجعل غزلك من بعد قوة أنكاثا. . فإذا أضيف إلى ذلك أن الهاجم جار لك. وأسير إحسانك من قبل. فماذا يفعل المظلوم هنا؟لقد احتال فقط لرفع الظلم عنه. فاستعان بجاره الكافر. . فى إخماد حريق يوشك أن يقضى على الظالم والمظلوم. . معا!!

وعلى السائل هنا: ألا يخلط الأسباب بالنتائج:

فالسبب الأساسى فى الاستعانة بالكافر.. هو ذلك الظالم المهاجم.. وإذن فقد حفظ السائل شيئا وغابت عنه أشياء: غاب عنه أن يقول لهذا الظالم المعتدى أولا: أنت ظالم.. فيما فعلت.. وفيما جلبت على حيّنا الذى كان قبل هجومك آمنا.. خاليا من الأجانب!

يقول له ذلك قبل أن يعاتب المظلوم الذى يريد الظالم حرمانه حتى من حق الشكوى! فإذا تم ذلك.. جاء دور المستعين بالكافر ليبسط دعواه.. على بساط البحث.. أما التركيز على المظلوم.. وترك الذئب يعبث بلا رقيب..

فتلك هى الغفلة الكبرى.. والظلم المبين.

أجل ظلم مبين أن تغمض العين عن هذا المعتدى الذى يسترخص الدم العربى والإسلامى.. بينما هناك من الأعداء من هو أولى بهجومه..

لقد قال بعض السلف: إذا قلتُ كلمة يوما فى حق رجل.. فقتله غيرى بعد ذلك.. فما أظننى إلا مشتركا فى دمه!

فما بالك.. بمن يقتل الآلاف؟ ظلما وبغيا؟ كيف تغمض عنه العين.. لتصير شريكا له فيما فعل؟

لقد اختفى جندى واحد فى دولة أجنبية.. فصلى من أجله عشرات الألوف رجاء أن يبقى حيا.. فكيف بنا نحن المسلمين لا تهزنا فجيعة الظالم يفسد فى الأرض بعد إصلاحها فيأكل الأخضر واليابس؟

على أن فى تاريخنا ما يجيز الاستعانة بالكافر أحيانا مادام ذلك فى مصلحة الدعوة: والشاعر العربى يقول:

وليت من لم يكن بالحق مقتنعا ... يخلى السبيل ولا يؤذى من اقتنعا

ذلك هو المتوقع.. ولكن أعداء الحق لا يقتنعون به.. وفى نفس الوقت لا يفسحون الطريق لتعبرُ كلمة الحق إلى قلوب متطلعة إلى هداية السماء.

وعندما كانت الدعوة الإسلامية تعيش هذه الظروف الصعبة حدث ما يأتى:

١ ـ حمى أبو طالب رسول الله ﷺ.

٢ ـ ذهب ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف.. ولما عاد أرسل للمطعم

ابن عدى يطلب جواره. فأجاره.

٣ ـ ولما عاد المسلمون من الحبشة لم يستطيعوا دخول مكة إلا استخفاء أو فى ظلٍّ من حماية واحد من المشركين.

٤ ـ وقد استعان ﷺ ـ فى طريق الهجرة ـ بعبد الله بن أريقط وهو مشرك.

٥ ـ وقَبِل أبو بكر رضى الله عنه جوار ابن الدغنة.. لكن أبا بكر رفض جواره لما أراد ابن الدغنة التدخل فى عقيدته. فأفصح رضى الله عنه عن شرط هذه الحماية وهو: ألا تكون على حساب المبادىء.. وإلا.. فلا تجوز بحال.

وهو موقف التأسى برسول الله ﷺ لما تأثر عمه أبو طالب يوما بعتاب قومه بشأن محمد قائلا له: أبْقِ علىّ.. وعلى نفسك. فقال له ﷺ:

«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى. والقمر فى يسارى..» الحديث.

معنى هذه الحماية:

ومعنى هذه الحماية هو:

١ ـ أنها تهيئ الجو أمام الداعية ليقول كلمة الحق فى ظروف مناسبة.

٢ ـ عدم تبديد الجهد فى رد العدوان المستمر.. وخاصة عندما لا تتكافأ القوى.

٣ ـ المشرك المستعان به ـ على حد تعبير بعض العلماء ـ رجل يلتقط الشوك من طريق الداعية. ولابأس من تقبل هذا الجهد إلى أن تستوى الدعوة على سوقها.

وهو لون من الوفاء للدعوة يفرض علينا.. «التكتيك».. نمتلك به زمام المواقف ولا نُسلم أمورنا للغير فى دوامة اليأس القاتل.

وقد تَحقَّق فى ظل هذه الحماية ما كان محتملا:

فقد دخل أثناء صلح الحديبية فى الإسلام أكثر ممن دخل فى أى ظرف آخر..

وقد ظل المسلمون على وعى بهذا الدرس: فلم ينسفوا الجسور بينهم وبين أهل الديانات الأخرى.. فكانت بينهم معايشة.. وكان الاحترام المتبادل.. الذى لا يصل إلى مرحلة المودة المنهى عنها.. والداعية واحد من هؤلاء الناس.. ويجب أن تكون علاقاته مع كل الأجناس من الناس طيبة.. على نحو يجعل منه شخصية مقبولة.. وسوف تكون مبادئه على مستوى شخصيته مقبولة أيضا: ذكر

القاضى عياض فى ترتيب المدارك قال: حدثنى الدارقطنى: أن القاضى إسماعيل ابن إسحاق[1] دخل عليه الوزير «عبدون» بن صاعد النصرانى، وزيُر الخليفة المعتضد بالله العباس.. .فقام له القاضى، ورحب به... فرأى إنكار الحاضرين لذلك.

فلما خرج الوزير قال القاضى إسماعيل للمتحمسين المنكرين قد علمت إنكاركم وقد قال الله تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾**.

وهذا الرجل يقضى حوائج المسلمين.. وهو سفير بيننا وبين المعتضد وهذا من البر.. فانظر كيف اختلف الدين، وتناقضت المفاهيم، وتباعدت الأهداف.

ومع ذلك.. فقد كان هناك لون من المعايشة.. لا يضير الدعوة أن تمارسه.. مابقيت العقيدة فى مأتى من آثاره وقد لبس ﷺ الثياب التى كان ينسجها المشركون.. بل وصلى فيها.

ولما قدم عمر رضى الله عنه «الجابيه» بالشام. استعار ثوبا من نصرانى. فلبسه. حتى خاطوا له قميصه. وغسلوه.

وقد توضأ من جرة امرأة نصرانيه[2].

ومما أذكره هنا أن رجلا نصرانيا ألقى السلام على الشعبى فرد الشعبى السلام: وعليكم السلام ورحمة الله.

ولما عوتب فى ذلك قال لهم: أليس يعيش فى رحمة الله؟!!

أما بعد فنعُود للسائل الفاضل لنقول له: لا تخلط الأسباب بالنتائج..

أولا: ناقش الحسابَ ذلك الذى أثار العاصفة.. وأيقظ الفتنة النائمة.. فإذا انتهيت من حسابه فلك أن تناقش ذلك الذى استعان على ظالمه بكافر.. وأحسبَه قائلا لك.

وقالوا قد جننت فقلت كلا	وربى ما جننت ولا انتشيت
ولكنى ظلمت فكدت أبكى	من الظلم المبيت أو بكيت
فإن الماء ماء أبى وجدى	وبئرى ذو حفرت وذو طويت

(١) من أعلام المالكية وكان قاضى بغداد.

(٢) راجع العبادة فى الإسلام للقرضاوى ص٣١٤.

من هدى القرآن:

ومن هدى القرآن فى هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾[1].

إن القائد العسكرى لا يدفع بكل قواته إلى أرض المعركة فراراً من تطويقها أو تدميرها.. إنه يستبقى من الاحتياطى ما يعده للساعة الفاصلة.. فإذا انتصر الجيش فبها.. وإلا ساق إليه من ذلك الجيش الاحتياطى ما يعينه على كسب الجولة من جديد..

هكذا يفعل القواد العسكريون، وهو نفس الدرس المستفاد من هذه الآيات الكريمة: فلم يجئ المرسلون دفعة واحدة.. وإنما أرسل إلى القرية اثنان أولا.. فى محاولة للبلاغ..

ثم جاءهم الثالث تعزيزاً يسد الله به الثغرة.. ويستكمل به النقص.. وليكون مجيئه شاهداً آخر يقوى به وجهة نظر أخويه..

واقعنا فى ضوء هذه التوجيهات:

ما تزال هذه الصورة تلح على خاطرى:

دعى أستاذ الجامعة لإلقاء محاضرة فى مؤسسة عامة.. ولما انتهى من محاضرته تساءل شباب تجاوبوا معه، والتفوا حوله:

تساءلوا: هل صحيح أن المحاضر يعمل بجوارنا.. وعلى بعد أمتار منا؟ ولماذا لم نعرفه إلا الآن؟ وهل يمكن أن نستمع إليه بعد الآن!؟

وكان الجواب:

إنه التعتيم الإعلامى.. حتى لا يعتلى المنصة إلا من استجمع ما يلى:

١ ـ أن يكون واحداً ممن سجنوا يوماً..

---

(١) يس ١٣، ١٤.

٢ ـ ألا يكون قد انتسب من قبل إلى حزب سياسى!!

أما أفكاره.. وتجربته.. وخبرته فى مجال الدعوة... أما إخلاصه.. واستعداده لتوجيه هؤلاء الشبان مجاناً. فذلك أمر لا يدخل فى تكوين الداعية.. ولا يشكل مرجحاً لشرف الاستماع إليه!!

وعرفت واحدا من أدق الأسرار فى عرقلة مسار الدعوة يومئذ.. يوم تفرد الشباب.. بالشباب.. وصدرت الأوامر المشددة.. حتى كان الاستماع بالأمر.. والحب.. بالأمر. والكره بالأمر.

وحيل بين الشباب.. وبين ما يشتهون من سماع رائد لم يكذب أهله يوماً!.

وعدت إلى صور من تاريخنا أهديها إلى القائمين على تثقيف الشباب فى محاولة للقاء الأحبة على كلمة الله.. وضرورة تضافر الجهود فى زمان تلتقى فيه الكيانات الصغيرة لتكون شيئاً مذكوراً.

وإذا كان مجرد الانتساب إلى حزب سياسى مانعاً من التلقى من داع متخصص.. فقد عاد الأمر إلى سياسة عفنة قديمة كانت تقول: الاستعمار على يد فلان.. خير من الاستقلال على يد علان!!

(المأساة أننا نحن المسلمين مولعون بضم تقاليدنا وآرائنا إلى عقائد الإسلام وشرائعه لتكون ديناً مع الدين، وهدياً من لدن رب العالمين، وبذلك نصد عن سبيل الله.

وأذكر هنا قصة الناقة التى عرضها صاحبها بعشرة دراهم، واشترط أن تباع قلادتها معها بألف درهم، فكان الناس يقولون: ما أرخص الناقة لولا هذه القلادة الملعونة ـ وأقول كذلك:

ما أيسر الإسلام وأيسر أركانه، وما أصدق عقائده وشرائعه لولا ما أضافه أتباعه من عند أنفسهم، واشترطوا على الناس أن يأخذوا به ويدخلوا فيه)[1].

---

(١) محمد الغزالى: السنة النبوية ص٢٩.

الحق والباطل وجها لوجه

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي . اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ .

تمهيد:

ماذا يعنى: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟

والجواب: أنه وظيفة تشترك بها الأمة فى إدارة دفة الحكم بهذه الرقابة الشعبية الممنوحة لها بحكم إيمانها بالله ورسوله:

فلها حقها فى أن تقول لا. للمنحرف عن سواء السبيل. . . ومعنى ذلك أن يقف كل فرد فى الأمة الإسلامية على ثغرة فى الدولة يقظا فلا تؤتى من قبله.

وبذلك تسد كل منافذ الشر فلا تهب رياح الفتنة مع هذه الرقابة المستمرة.

أى أن الجو يصير بهذه اليقظة مناسبا لنهضة الأمة واستثمار طاقاتها فى تربة صالحة من الأخوة هى أعلى ما يتصوره بشر. . . وهى سر الخيرية التى هى سمة الأمة الإسلامية.

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ وحين توعد الرسول ﷺ الساكتين عن الحق فى قوله: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**» كان ذلك الإنذار ملفتا إلى أهمية الكلمة الواعظة الزاجرة فى تنقية ضمائر الأمة وتقوية صفوفها قبل أن يصل بها السكوت إلى مرحلة يستشرى فيها المنكر ويسيطر الأشرار على مقاليد الأمور، فيعزلون الأخيار عن المنصة.

هؤلاء الأخيار الذين لا يملكون حينئذ إلا الدعاء أن يكشف الله البلاء. . . وهيهات أن يستجاب لهم، من حيث جاءت الدعوة متأخرة، وكان يجب أن تواكب ظهور المنكر ابتداء قبل أن يستفحل ويستحيل علاجه.

وإذا كانت هذه مسئولية العلماء الكبرى فإن العامة يتحملون أيضا مسئولياتهم

أيضا والتى تتلخص فى:

١ـ أن يرفعوا للعلماء ما خفى حكمه من أخطاء المجتمع ليقولوا كلمة الفصل فيه.

٢ـ أن يسوقوا الظالمين إلى الحكام.. ولا يهدأون حتى ينفذ فيهم حكم الله شريطة ألا يترتب على ذلك ضرر أكبر.

٣ـ عدم الاستكانة إلى هذا الشعار: «ليكنس كل منا فناء داره. لتعم النظافة»، لأننا إذا اكتفينا بذلك فسوف يحمل البعض القمامة إلى الأماكن المكنوسة!!

وفى ضوء هذه العجالة يمكن أن نقول إن مواجهة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية إنما هى مدخل لنهضة الأمة التى تتحطم أمامها حواجز الانطلاق لإنقاذ شعب بأسره... إيقاظ ملكة النقد فيه ليقول كلمة الحق وصولا إلى رأى عام له وزنه فى تسيير دفة الأمور فى اتجاه الإسلام.

أهمية النصيحة:

وهنا تبرز أهمية نصيحة الحاكم بالذات التى جعلها الإسلام هى الدين فى قوله ﷺ: **«الدين النصيحة: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»**.

ولو تأملنا ما ضمت عليه كلمة «النصيحة» من الفضائل لأدركنا كيف أصاب الرسول بهذا التوجيه كبد الحقيقة:

قال ﷺ: **«الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»**.

ففى النصيحة من المعانى للنبيلة: الإخلاص والصدق. والمشورة والعمل.

فلا عجب إن كانت هى: الدين. فما هى النصيحة؟ ولمن تكون؟ النصيحة لله طاعة... وللرسول اتباعا... وللمسلمين إقناعا بما التزم به الناصح من الفضائل الإنسانية.

ولأن النصيحة تعنى: اهتمام الناصح بمصالح دينه وأمته... فإن على الناصح أن يسوقها فى إطار من الحكمة يحقق الهدف منها، مستبعدا من قاموس معاملاته شهوة المغامرة، وإثارة العامة، وسوء الأدب مع من له قدم فى الدين، وفى مجالات الخدمة العامة.... وعلى المسلم أن يعرف حساسية موقف الحاكم بخاصة

مدركا صدق حاجته إلى نصح الناصحين:

الذين يعينونه على إدارة دفة الحكم... والتمكين لفضيلة العدل بين الناس... والتبصير بمواضع الخلل فى جهاز الحكم... وضرورة الرفق فى مخاطبته، فلا تكون الموعظة جدلا، ولا ترسل إليه جبلا.

ومن يفعل ذلك ابتغاء الشهرة، وحبا فى الإنتقام، فإن عليه أن يتخلى عن مكانه، ليمارس عملا يكون فيه أكثر توفيقا.

إن الدعوة ليست حظيرة من غير باب يدخلها من شاء، كيفما شاء، وإنما هى وظيفة الإنسان الأولى.

من آثار الغش فى النصيحة

من كلمة للدكتور محمد سعاد جلال قال: قال رسول الله ﷺ: **«من غشنا فليس منا»**.

[الغش قسمان: غش فى النصيحة، وغش فى المعاملات المادية، وهو فى كلا القسمين تزيين غير ما هو مصلحة الطالب، وباعثه: الحسد والبخل، وحب الكذب، فالحسد باعث على إرادة الشر للغير والبخل مانع من إعطاء الحق لأهله، والكذب داع لإخفاء الحقيقة.

ومن هنا كانت رذيلة الغش من أدل الدلائل على سقوط نفس صاحبها وانسلاخها من فطرة «الإنسان».

وأسوأ الغش، وأكبره جريمة.. الغش فى النصيحة فإنه أخس ألوان الخيانة، واستغلال ثقة الناصح بالمنصوح، والامتناع عن غوثه، فيما لا يكلفه مؤنة، وقد جعله المنصوح فى موضع الهداية والكرامة، فحط نفسه لمنزلة الإضلال، والنذالة.

وأما الغش فى المعاملات المادية من البيع، والشراء، والإجارة، والمقاولات وأشباهها، فجماعها بأنها سرقة، وأكل أموال الناس بالباطل، وقد أجمع الفقهاء على تحريم الغش، وتفسيق فاعله.

ولعل أكبر أضرار شيوع الغش فى المجتمع فقدان ثقة الناس ببعضهم فى علاقاتهم الاجتماعية، مما يشقون بآثاره كلهم: لذلك حكم الحديث على الغاش بإخراجه من أمة محمد، ليس له فيهم كرامة، وليس له عليهم حق التضامن والرعاية].

من آثار التناصر على الحق

يقول الله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾.

تشير الآية الكريمة إلى تكليف موسى وأخيه هارون بالدعوة.. دعوة فرعون.. بالذهاب إليه فى عقر داره..

ويشتمل أمر التكليف على خط من خطوط المنهج الإسلامى فى الدعوة وهو: إنزال الناس منازلهم:

فموسى عليه السلام بحكم أقدميته ـ إن صح التعبير ـ قائد مسيرة الدعوة.. وليس معنى اشتراكهما فى مسئولية الدعوة أن يتبادلا المواقع.. وإنما كلٌّ فى موقعه المناسب، وذلك ما تشير إليه الآية الكريمة.. اذهب.. أنت.. أنت يا موسى المكلف أولا.. وأخوك معك عضد لك.. إن للخبرة فى مجال الدعوة مسئولياتها.. وعليها أن تقود المسيرة الظافرة.. وإلا.. فلو تصدر الحدث.. لفات الأمة علم كثير.

فإذا انطلق الدعاة إلى الله تعالى من هذه القاعدة.. قاعدة إنزال الناس منازلهم.. توفر للجهود المبذولة عنصر الانسجام.. فتتضافر.. ولا تتنافر.. ثم تصب كلها فى نهر واحد يظل موصول العطاء..

وأمر آخر: فالمكلفان بالدعوة هنا على مستوى المسئولية: فقد طلب موسى أخاه هارون.. بالذات.. وآتاه الله تعالى سؤله ضمانا لنجاح المهمة الموكولة إلى اثنين.. الله تعالى ثالثهما.

وهو درس قدَّمتُه للفتى المسلم فى دولة عربية والذى آتاه الله تعالى سعة فى المال.. وكان يخرج داعيا إلى الله فى أمم أخرى.. فى صحبة فتيان من أرباب الصناعات اليدوية.. قلت له: تخير معك من أهل الذكر: طبيبا.. وعالما كونيا.. وعالما شرعيا.. فى طاقة من الزهر.. يفتح الله بهم أعينا عميا.. وقلوبا غلفا.. بما يكشفون من آيات الله تعالى فى الأنفس والآفاق.. وهو أسلوب الدعوة اللائق اليوم باعتباره لغة عالمية..

وتصور ما يمكن أن تكسبه الدعوة لو كان رفيقك طبيبا بَيْطريا يقول للناس هناك: قال تعالى: ﴿.. فصل لربك وانحر﴾.

لماذ قال وانحر.. ولم يقل واذبح؟ لأن الفتحة حال النحر أسفل رقبة الحيوان.. فهى قريبة من القلب.. وإذن فسوف يُسهِّل قرب الفتحة من القلب عملية خروج الدم كله.. فلا يبقى له أثر يستحيل فى اللحم سما.. وهو ما كان سيحدث لو كان الذبح من أعلى الرقبة.. وهكذا قال أهل الذكر.. ثم يُعزِّز موقفُ الطبيب عندما يقف العالم الشرعى ليقول: يقول الله تعالى: فى سورة الرحمن: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾

ويقول عز وجل فى سورة النحل: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فالفعل يخرج سهل فى النطق: سخر.. والفعل تستخرجوا.. فيه تفعُّل أى: معاناة..

فهل إخراج اللؤلؤ والمرجان من السهولة بمكان كما قيل: صالح للتزين به من غير حاجة إلى عمليات كيمائية معقدة.. وإذا كان الفعل: استخرج.. فيه من المعاناة ما ليس فى يخرج فلعل الحلية المذكورة معه تحتاج إلى عمليات كيماوية حتى يصلح ليكون حلية تلبس!

ويجىء دور العالم الكونى ليكشف عن سر الله فى الكون.. على نحو يعطف قلوب الناس حقا إلى الإسلام.. لأنهم خوطبوا باللغة التى يفهمونها.

إن العامل الحِرَفى.. أهل ذكر فى صنعته.. فليبق هناك فى موقعه أستاذا فى مهنته.. ولقد حدث أن سأل أحد المستشرقين الشيخ محمد عبده منكرا أن يكون فى القرآن تفصيل كل شىء كما قال الشيخ.. قال المستشرق: أين فى القرآن عدد الأرغفة فى أردب القمح.. فاستمهله الشيخ قليلا.. ثم عاد فأخبره بعدد الأرغفة.. فقال المستشرق وكيف عرفت؟ قال الشيخ: سألت خبازا.. فأخبرنى.. وربنا تعالى يقول: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

وتأمل كيف انتصرت الدعوة فى شخص الشيخ المتخصص فيها.. وكيف هُزمت فى شخص المستشرق الذى لم يكن ليهزمه إلا من كان له فى الدعوة قدم راسخة.

[زاد المسير]:

ولاحظ أن الدعاة هنا يخوضون المعركة بسلاحها:

أ ـ بالبراهين الساطعة.. نقنع بها العقول.

ب ـ والذكر الطيب نجلو به القلوب..

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ لا تفترا فيه..

إن المدعو قد يكون مستوعبا للحكم الذى تُواجهه به.. بيد أن العناد يعقد لسانه فلا يعترف.. بعد إذ عرف.. وإذن.. فلابد من الدليل.. من السلطان الذى يُحرج العقل ويطوقه.. ولعل هذا هو السر فى قوله تعالى فى آيه أخرى: **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾**

فعلى رغم أنها آيات واضحات فلابد من رصيد مذخور من الأدلة تنازل به الخصم.. فى محاولة لاحتوائه..

أهمية الذكر:

ولأن الله تعالى قد اصطنع موسى عليه السلام لنفسه بما من عليه من نعم تُوِّجَت بهارون وزيرا. فعليه.. بل عليهما من الآن أن يستعدا للسباحة الطويلة ضد التيار.. ولا يكون ذلك إلا بالذكر.. والذكر الدائم.. بقلب لا يفتر عنه فى الليل إذا عسس والصبح إذا تنفس.

ويحملكما على دوام الذكر ـ إضافة إلى ما سبق ـ هو تعهد كما به فى قوله تعالى: **﴿كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا﴾** وأوُلى خصائص الداعية: الوفاء.. الوفاء.. فى زمان قل فيه الأوفياء.

فإذا تصورنا طبيعة المدعو وهو: فرعون.. الذى أنكر وادعى.. أنكر الإله الأحد.. ثم ادعى فقال: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** بل قال متبجحا **﴿ما علمت لكم من إله غيرى..﴾**.. إذا تصورنا ذلك تبين لنا خطورة المهمة.. مهمة دعوة فرعون المطموس على بصيرته.. المشدود على قلبه.. وهو واحد من مجالات الابتلاء التى لا يلقاها إلا الأصفياء وكما قيل:

[في المآزق ينكشف لؤم الطباع.. وفى الفتن تنكشف أصالة الرأى. وفى الحكم ينكشف زيف الأخلاق.. وفى المال تنكشف دعوى الورع.. وفى الجاه ينكشف كرم الأصل.. وفى الشدة ينكشف صدق الأخوة].

فإذا أمَرَهما الله تعالى بالذكر فى هذا المنعطف الخطر.. فهو الدواء ولا دواء سواه.. إنه دواء الإنسان بعامة.. ودواء الدعاة إلى الله بخاصة.

فالضعف: جبلة الإنسان.. ولا شىء فى الدنيا يمده بالقوة لأنه مخلوق مثله.. وبالذكر يستمد الداعي قوته من مالك القوى والقدر سبحانه وتعالى.. يقول سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

اذكرونى بضعفكم أذكركم بقوتى..

اذكرونى بفقركم.. أذكركم بغناى.

اذكرونى بجهلكم.. أذكركم بعلمى.

اذكرونى بذنوبكم.. أذكركم برحمتى.

اذكرونى بصفات ربوبيتى.. بآثارها.. فإنى على كل شىء قدير.. وهكذا قال العارفون.

ومن ثمرات الذكر: الخوف من الله تعالى.. وبالخوف تُقمع الشهوات.. وكما قيل: تصير المعاصى المحبوبة.. مكروهة.. كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سمّا.

ولكن من أين يأتى هذا الخوف؟ من دوام الذكر.. ذكر الله تعالى بما يليق به من صفات الجمال والجلال.. الذكر باللسان.. والذكر بالقلب وكلاهما يُمد صاحبه بالقوة.

يقول مالك بن دينار: إذا رأيت قسوة فى قلبك، وضيقا فى رزقك، فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك..

فانظر كيف كان هذر اللسان.. راجعا على القلب قسوة وجفاء.. وضيقا فى الرزق.. بقدر ما يكون ذكر الله عائدا عليه بالقوة والطمأنينة والثبات.. والرخاء..

وكذلك قال الطب الحديث:

إن بين القلب واللسان صلة وثقى.. وتأمل نفسك بعد كلام طويل منفعل.. كيف تعود إلى بيتك مرهقا تجرجر قدميك..

ولنأخذ المثل من فم العجوز المؤمنة:

لقد سئلت العجوز يوما.. لماذا يفيض وجهك دائما بشرا وجمالا؟.. أى مواد التجميل تستعملين؟

فقالت: أستخدم لشفتى الحق، ولصوتى الذكر، ولعينى غض البصر، وليدى الإحسان، ولقوامى الإستقامة، ولقلبى حب الله، ولعقلى الحكمة، ولنفسى الطاعة، ولهوا الإيمان.

فانظر إلى العجوز كيف صار يومها انغماسا فى الطهر الناشىء عن ذكر الله تعالى.. فاحتفظت بشبابها.. بل وبجمالها.. رغم تقدم سنها.. فى الوقت الذى يحسدها فتيات مغرورات حرَصن على التجمل بما رمتنا به المدنية من زينة عجلت بالمشيب.. قبل المشيب!

وصار الأمر على ما يقول الشاعر:

ليت وهل ينفع شيئا ليت ليت شبابا بيع فاشتريت

عندما يصير المانع.. مقتضيا

يقول الله تعالى فى سورة طه: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾.

تحدثنا فى الحلقة الماضية عن الذكر كزادٍ للمسير. إلى أكرم مصير.. هذا الذكر الذى يصير منه الداعية فى حصن حصين فلا تطوله يد الأعداء.. وهكذا كان موسى عليه السلام مع أخيه.. وهما ينقلان خطاهم الواثقة ذاهبين إلى فرعون..

فإذا استغنى فرعون بالدنيا.. فهما مستغنيان بالله تعالى.. وإذا فرح بهذه الدنيا.. فهما يفرحان بفضل الله وحده.. وإذا أنس الطاغية بأحبائه من خلان السوء.. فهما لا يأنسان إلا بالله.. وإذ يحشد فرعون مِنْ حوله الأشياع والأتباع يبتغون عندهم العزة.. فإن موسى وأخاه عليهما السلام يعتزان بالله جل وعز.. ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وأذكر هنا ـ وفى ضوء الآية الكريمة التى نحن بصددها ـ أذكر سؤالا وجهه إلىّ طالب العلم: ألم يكن طغيان فرعون مانعا من الذهاب إليه؟ قلت له: بل إن الطغيان مقتض للذهاب.. وليس مانعا.. ذلك بأن فرعون مريض بعلة شديدة التعقيد.. ولأنه معلول فهو أولى بالطبيب من الصحيح.. ولأن العلة ضاربة الجذور فى نفسه.. فلابد أن يكون الطبيب ماهرا.. بل ما أحوجه إلى مجموعة من الأطباء من ذوى الاختصاص.. لعل وعسى.. وكان الطبيب المداوى هو موسى وأخاه عليهما السلام.. واللذان انطلقا من قاعدة نفسية تقول: إذا أحببت.. فبلا كَلَف: [أى لا تلح إلحاح الطفل متبذلا] وإذا كرهت.. فبلا تلف.. أى لا تتمنى هلاك خصمك.. بل تمن حياته.. وليبق الأمل فى نجاته من الهلاك شعارك دائما.. وذلك كله مشتق من قاعدة قرآنية تؤكد احتفاظ المسرف بحقه فى الموعظة إلى آخر لحظة فى حياته.. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

ومعنى ذلك: أن الحق سبحانه يُوَصِّل القول والتذكير للموغلين فى الكفر.. وماتزال أوامره سبحانه ونواهيه تحاصر الطاغين دائما.. ولن يقف بها إن قابلها المسرفون بالجحود والتجنى - وليت شعرى.. إذا كان حق فرعون الطاغية فى الموعظة قائما.. فكم يكون قصورنا لو يئسنا من مسلم مثلنا.. فلم نعظه.. مع أنه بالإيمان.. فى مكان قريب..

وأمر آخر: فمن قوانين العلاقات الدولية اليوم: ما يسمى بالحجر الصحى.. والذى يفرض اتخاذ إجراءات وقائية تمنع تسرب المرض من دولة إلى أخرى..

وليس هناك مرضٌ أشدُّ فتكا من الظلم.. الذى يُمْكن أن يتسرب إلى أمم أخرى بالعدوى.. وإذن.. فلابد من التصدى له..

وتلك هى مهمة موسى عليه السلام تجاه فرعون الذى يمثل حينئذ رمزا من رموز الظلم والكفر.. ومن ورائه أعوانه الكفرة الفجرة: وكان موسى وهارون عليهما السلام.. هما طوق النجاة.. نجاة الأمة من مرض الظلم ومضاعفاته.

فمن سمات الأمة الظالمة:

أ - يغيب فيها ضابط الأخلاق فتهيم فى غابات من الفواحش..

ب - ثم تنقسم إلى طبقات: يتعالى القوى على الضعيف.. ويستأثر دونه بأسباب العيش والكرامة.

جـ يميل أفرادها للتحزب والاستجابة لدواعى الحقد والحسد..

وعندئذ توشك سنته تعالى فى الظالمين أن تنزل بأمة هذا شأنها..

ومن واجب الدعاه المسلمين أن يكونوا أصدق تعبير عن الإسلام.. وهو دين الإنسانية.. لإنقاذ الأمة الظالمة بالنصيحة وقبل أن يستأصل الله تعالى وجودها بالجوائح وإطماع أعدائها فيها.. وفاء من الدعاة لإنسانية الإسلام..

وها هو ذا موسى وأخوه عليهما السلام ينقلان خطاهما نحو فرعون: أثبت من الأرض.. وأخلد من الزمان.. استجابة لأمر الله تعالى: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى..﴾.

وإذا قلنا من قبل: إن الذهاب إليه واجب.. لأنه طغى.. فإننا نقول أيضا: ولأنه طغى.. فلابد أن يكون خطابه: قولا لينا..

فلا يليق بالطغاة إلا القول اللين.. الذى لا يصطدم بحمية الجاهلية فيهم.. فيهب الوحش الكاسر ليضرب ضربته..

إن مخاطبة الناس فن، لأن الناس مستويات.. ولكل وجهة هو موليها.. وطبيعة نشأ فيها.. وما يصلح للعامة لا يصلح للخاصة..

ونذكر هنا ما قاله الأصمعى: قال لى عمرو بن العلاء: يا عبد الملك: كن من الكريم على حذر.. إذا أهنته.. ومن اللئيم.. إذا أكرمته.. ومن العاقل.. إذا أحرجته.. ومن الأحمق.. إذا مازحته.. ومن الفاجر.. إذا عاشرته..

ولقد كان فرعون ذلك الأحمق.. اللئيم.. الفاجر.. وإذن فحظه من اللين مضروب فى ثلاثة!!

ومن أجل ذلك قال الله تعالى: ﴿فقولا له قولا لينا..﴾ إنه: قول: وليس كلاما.. إن الكلام مشتق من الكَلْم وهو: الجُرح.. والجراحة.. وفيه معنى الشدة.. والضغط.. والعنف.. أما مادة القول: فهى أرق.. فهى أحق بالاختيار.. والاعتبار ومن دلائل رقتها أن القوَّال يطلق على المُغَنِّى!!.. وعلى الرئيس وهو دون الملك فى الرتبة..

وتقول اللغة أيضا: تقاول الرجلان.. أى: تفاوضا.. بمعنى أنهما استبعدا العنف.. لتكون أداة التفاهم هى: اللسان.. لا السنان!

ويمكننا فى ضوء ذلك أن نقول - والله تعالى أعلم بمراده - إن موسى وأخاه عليهما السلام مأموران بأن يقولا قولا.. يحمل الموعظة إلى قلب المدعو على جناحين من الرفق.. واللين..

ويعنى ذلك: أن الذين يختارون العنف فى مواجهة الجبارين.. إنما ينسفون بأيديهم جسور التفاهم..

وقد يكون لديهم من الإخلاص ما ينهض شفيعا لهم.. ولكن الإخلاص كقيمة إسلامية أساسية لابد أن يلبس ثوب الأناة واللين فى مواجهة من يملك القرار.. ويملك تنفيذه..

ثم إن فرعون رأس الحربة فى يد الشيطان المريد.. ولا يقال هنا لا يَفُلّ الحديد

إلا الحديد.. لأنه كذب من قال: إن الشر يُطفأ بالشر.. فإن كان صادقا فليوقد نارين: ثم ينظر: هل تطفئ إحداهما الأخرى؟ وإنما يطفِىءُ الخيرُ الشر.. كما يطفئ الماء النار.

وإذا قيل {قيَّد الإيمانُ الفتك.. لا يفتك مؤمن} فإنا نقول على ضوء هذه القاعدة: قيّدت الحكمة العنف.. لا يشتط حكيم.

{من العلم إلى الحكمة}:

إن هناك مسافة واسعة.. شاسعة بين العلم.. والحكمة:

فموسى وأخوه عليهما السلام يَعْلَمان الحكم هنا وهو: فرعون طغى.. والسكوت على طغيانه مرفوض.. وقد أُمرا بمواجهته آمِرَين.. ناهيين..

وهنا ينتهى دور العلم ليبدأ دور الحكمة فى إتمام المهمة لحساب الحق.. فكيف يدعوان؟ وبأية وسيلة؟

ولا يرتقى الإنسان إلى أفق الحكمة إلا إذا انتصر فى معركته مع لسانه أوّلا: ليجادل بالحسنى.. وفى معركته مع نفسه ثانيا ليجالد فيها نوازع الانتقام!

إنه لا يكفى أن يكون الماء عذبا فراتا.. بل لابد أن يُقدَّم فى إناء نظيف.. يثير الشوق.. ويريح النفس فى ذات اللحظة..

وما أكثر العلماء المخلصين. والذين يتحرقون إلى الفضيلة لتصبح شرعة الأمة ومنهاجها..

وفى نفس الوقت: ما أكثر ما تناديهم الحكمة: أن اصبروا.. بل.. صابروا.. فى صحبة الحكمة التى تثبت الخطى حتى لا تقفز قفزا يتجاوز مراحل العلاج.. فتكونَ الطفرة. ومن بعدها تجىء الحسرة.. الحسرة فى قلوب غضة طرية. مخلصة. هى من النجاح على بعد خطوة واحدة وهم قادرون عليها ولكنهم يستعجلون:

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

إن الواقع.. واقع الناس. قد يبدو لنا على غير ما نشتهى.. وما يريد الحق.. ولكن تغييره لن يكون لمجرد أننا نريد..

وما علينا إلا أن نقول كلمتنا ونمضى.. والنتيجة من قبل ومن بعد على الله تعالى: إذا لم يكن ما يريد الفتى ـ على رغمه.. فليرد ما يكون!

من مظاهر اللين

يقول الله تعالى: ﴿إذهبا إلى فرعون إنه طغى: فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾.

قلنا ذلك في ضوء الآية الكريمة؛ لأن المدعو فرعون.. فهما مأموران بالذهاب إليه.. ولأن فرعون طغى.. فلابد أن يقولا له: قولا لينا..

ويترتب على ذلك سؤالان نحاول الإجابة عنهما:

ما هو القول اللين؟.. ولماذا كان هو الأسلوب الأمثل في خطاب الجبارين من أمثال فرعون؟

ذكر المفسرون[1] أن المراد بالقول اللين: تكنية فرعون بواحدة من كنى ثلاث:

«أبو العباس. أبو الوليد. أبو مرة».

وقيل: [قال له موسى: تؤمن بما جئنا به، وتعبد رب العالمين... على أن لك شبابا لا يهرم إلى الموت، وملكا لا ينزع منك إلى الموت.. ويُنْسأ أجلك أربعمائة سنة فإذا مت دخلت الجنة.. فهذا القول اللين].

وفي المراد بالقول اللين يقول ابن كثير رحمه الله:

[قولا له: إن لك ربا، ولك معادا، وأن بين يديك جنة ونارا].

ولكن أبا السعود رحمه الله يختار أن يكون القول اللين هو ما صرّحت به آيات سورة النازعات: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ .وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

[دلالة هذه الآراء]:

ولهذا الآراء مجتمعة دلالات.. هي في نفس الوقت علامات على الطريق بين أيدي الدعاة لعلهم يهتدون...

١ ـ يجوز تكنية الكافر إذا كان وجيها في قومه، طُمع في إسلامه، أم لا.

---

(١) القرطبي.

[لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملا وقد قال ﷺ: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**» ولم يقل: إن طمعتم فى إسلامه] ومن صور الإكرام دعاؤه بالكنية..

وقد قال ﷺ لصفوان بن أمية: «**انزل أبا وهب**» وقال لسعد:

«**ألم تسمع ما يقول أبو حباب**» يعنى: عبد الله بن أبى[1] مع ماضيه الكالح مع الدعوة والداعية ولا شك أن فى التكنية استثارة لغريزة الأبوة بأحب الأسماء إليها.. فتصحو.. بل وتنتشى بذكر من به يمتد وجودها.. وربما توفرت حينئذ لحظة يلين فيها قلب المدعو المتأبى على الحق.

٢ ـ تجوز عِدَة المدعو بشىء من منافع الدنيا العاجلة.. تجاوبا مع الفطرة الإنسانية التى تتطلع إلى هذه المنافع.. وقد تُسْلم قيادها لمن يلوّح لها بذلك..

فإذا كان المدعو قائدا.. كان أحوج إلى هذه اللفتة المبقية على ما هو فيه من دنيا مؤثرة.. إلى حين.

والأصل فى ذلك قوله تعالى: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[2].

٣ ـ أنْ يبدأ الداعى بالرغبة قبل الرهبة [ليلين بها توطئة للوعيد من بعد.. والذى يجىء فى لحظة استعد فيها القلب للاستجابة.

وإذن.. فلا ضير على الداعى أن يتودد ويتحبب إلى المدعو وإن كان فى قمة الطغيان.. وهو موطن يعكس وجهة النظر الإسلامية الآخذة بأعلى صور الحكمة فى مخاطبة المعاندين.. لمصلحة الدعوة ذاتها.. وهو المعنى الذى ركز عليه سلفنا الصالح فى مثل قولهم: «يا من يتحبب إلى من يعاديه.. فكيف بمن يتولاه ويناديه»[3].

وبمثل قول يحيى بن معاذ فى هذه الآية: هذا رفقك بمن يقول: أنا الإله.. فكيف رفقك بمن يقول: أنت الإله] ـ القرطبى.

ولماذا القول اللين؟ أما لماذا كان لابد أن يكون القول لينا..

---

(١) راجع القرطبى. (٢) نوح: ١٠ ـ ١٢. (٣) ابن كثير.

أولا: لأن الداعية مسلم كمبدأ. .

وثانيا: لأنه مكلف بالقيام بوظيفة الدعوة. . وللوظيفة طبيعتها.

وثالثا: لأن سلاحك هو الكلمة بما لها من آثار فى عالم النفوس وعالم المحسوس. . والتى تفعل مالا يفعله السلاح على أرض المعركة.

ورابعا: طبيعة المدعو نفسه. .

وخامسا: ما يترتب على القول اللين من نتائج يشهد بها الواقع الماثل. . . بعد ما شهد بها التاريخ.

أما أنك مسلم أيها الداعية: فاللين هو مفتاح شخصيتك: والحديث الشريف يقول: «**مثل المسلم مثل السنبلة: تميل أحيانا وتقوم أحيانا، ومثل الكافر مثل أرز: يخر ولا يُشعر به**»[1].

فالمصائب كالرياح الهوج. . والناس على أرض هبوبها مستويات. .

أما المؤمن فقائم على سوق مرنة رطبة، فيميل مع الرياح: رضا بها. . وتجاوبا معها لأنها قضاؤه سبحانه، ومن ثم. . لا ينكسر. . . أما الكافر: فهو فرح بالدنيا مستغرق فيها، فإذا أصابه ضر انكسر وتحطم لأنه: جامد بغير فطنة أو تسليم لله تعالى. .

وهكذا كان اللين سمة المسلم. . وركيزة شخصيته. . فإذا تعامل مع الآخرين. . فهو يبذل فطرة اللين بلا تكلف.

وفيما يتعلق بطبيعة الوظيفة: فعلى الداعية أن يدرك ما يلى:

إنك فعلا على شيء من العلم. . بل قد تكون فيه نجما لامعا. . ولكن: لكى تكون نجما. . وتظل كذلك. . لابد لك من سماء. . من منظومة. . تنتسب إليها. . وهى سماء الحكمة. .

إن التفوق العلمى. . لا يغنى عن النضوج العاطفى. . الذى يمكِّن من الإحساس بمواقع الضعف فى كيان الإنسان. . لنلمس هذه المواقع برفق ولين. .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير.

حتى يأخذ العلم سبيله إلى التطبيق.. مع رفاق الدعوة على طريق التوحيد.. طريق الوحدة..

وتلك طبيعة الوظيفة.. وظيفة الدعوة: إنها دعوة الجمال.. والكمال معا.. ولن تكون كذلك حتى تكون وسيلتُها كمثلها: جميلة.. كاملة.

وقديما: شاهد حكيم شابا دميما يسب آخر وسيما، فأمره بالكف عنه، وأن يكون أكثر أدبا وتسامحا معه، وهنا سأله الشاب الدميم:

هل الأدب والتسامح وقف على بعض الناس دون بعض؟ فأجابه الحكيم: كلا: ولكن يجب على الإنسان أن ينظر إلى وجه فى المرآة... فإن وجده حسنا لم يخلطه بقبح.. وإن وجده قبيحا لم يجمع بين قبحين!!

ولا ريب أن الدعاة إلى الله من دعوتهم فى الموقع الأجمل.. والأسنى.. وعليهم أن يحافظوا على الدعوة أن يخالط حسنها شىء دميم.

هذه من ناحية طبيعية الوظيفة.. أما من ناحية المدعوّ.. وما يحيط به من ظروف: فإذا كان المؤمن لا تلهيه الرغائب.. عن العواقب.. فعليه أن يدرك طبيعة المدعو.. وملابسات حياته ليتخذ من اللين شرعة له ومنهاجا.

إن الداعية يغالب فى العصاة ما يشبه الموجة العالية.. وتبدو صعوبة مواجهتهم بالحق فيما يلى:

أ ـ إن الداعية يقف ـ بالحق ـ ضد ميولهم ونزعاتهم المندفعة نحو الشرور.

ب ـ ثم هو يعدهم بحياة أبدية. لكنها متوقعة.. وليست كمناعم الدنيا واقعة. وانتظار المتوقع مقلق للنفوس.

جـ ـ وتزداد نسبة القلق إذا ما تصورنا سهولة الحصول على المتع الدنيوية المتاحة. والتى تناوش الإنسان من كل جانب.

د ـ وعوامل الشر أظهر من دواعى الخير.

هـ ـ ومن طبيعة النفوس: أنها أقرب إلى المحسوس منها إلى المعقول.

كل أولئك يحجب النفوس.. فلا ترى الحق.. أو تراه ولكنها تحت هذه

الضغوط الثقيلة لا تستجيب للحق عنادا. . ألا وإن إدراك هذه العقبات عبر الطريق. . يفرض على الدعاة أن يحاولوا اجتيازها برفق وحكمة وحذر، لا سيما إذا كان المدعو فرعون الذى طغى. . فهو أحق باللين كما أشرنا. . فهو شديد الإحساس بكرامته. . حاد الشعور بأحقيته بالاحترام. . فإذا جاءه النذير من رجل يراه مهينا ولا يكاد يبين فى زعمه فسوف ينتفض كالوحش الكاسر. .

إن الجهاز العصبى أخطر ما فى كيان الإنسان من أجهزة تنظم حياته. . فإذا كان المدعو فرعون. . فماذا تنتظر من الأسد. . لا سيما الأسدُ الجريح. . إنه الانقضاض على الضحية، وبلا رحمة. . . ولكن لا ضحية هنا ولا أسد. . لماذا؟ لأن موسى عليه السلام يتسلح بالحكمة البالغة التى تضرب على أذن الوحش الكاسر ليظل نائما. . أو مخدرا. . وذلك بالقول اللين. . فإن أثّر. . فبها. . وإلا. . فقد ينجح فى «تحييد» العدو. . فلا يكون لنا. . ولا علينا. . وبذلك. . يخلو الطريق للدعوة. . كى تواصل المسير. . إلى قلوب مستعدة للإيمان. . ألا ما أحوجنا إلى القلب الكبير. والذى يسع الدنيا. . يستقبل به الصغير. . ولدا. . والمساوى أخا. والأكبر والدا. . وبهذه الرحابة يكسب الداعية حب القلوب. . فإذا لم ينل حظه من الحب. . فسوف يأخذ نصيبه من الاحترام. . وعلى الدوام.

لماذا القول اللين

ما زال الجواب موصولا عن هذا السؤال: لماذا القول اللين فى مواجهة الطغاة من أمثال فرعون؟

إن سلاح الداعية هو الكلمة الهادية.. البانية.. اللينة.. وإذ ينحت الغلاظ كلماتهم من الصخر.. فتنطلق كالسهم.. نافذة فى الجسم.. ترمى بالشرر.. فإن الدعاة يغترفون قولهم من البحر.. لينا هينا.. فيقدمونه إلى الناس: لؤلؤا.. ومرجانا.. ولحما طريا، وكما قيل [أحسن شيء: كلام رقيق يستخرج من بحر عميق على لسان رجل رقيق][1].

وإذ يتبادل الملحدون التكفير.. فنحن فى أمة الإسلام نتهادى إلتفكير.. ألا فليفعل الملحدون ما يليق بهم.. ولنفعل نحن أجمل ما يليق بنا: القول اللين.. الذى يلامس من المدعو مساحة واسعة.. فلا نصدم إحساسه.. ولا نستفزه.. لأن الكلمة لينة.. وليست حجرا مسنونا.. إنها الكلمة الصادقة.. السليمة..

وإذا كانت سليمة فهى حية.. وحياتها أن تكون شريفة.. وشرفها أن تجلب هدى.. أو تدفع ردى.. وخير زكاة يقدمها الداعى إلى دعوته أن يكون على مستواها: علما وعملا..

إن الدعوة ليست برقا خاطفا.. ولا رعدا قاصفا.. لكنها رقة ولين.. هما نضح اليقين.. وليت الذين يغضبون يعرفون أننا فى فورة الغضب نحتاج إلى تحريك عضلات فى الوجه أكثر من حاجتنا لحظة التبسم..

فلم يُتعب البعض أنفسهم؟ بهذا الجهد الضائع؟ ثم لماذا يثيرون بالغضب عليهم سخرية الذين يروننا.. ومن خلال الصورة الكابية التى يصنعها الغضب فى وجوهنا.. يفرون منا؟

لقد ذكروا أن رجلا كان يركب حافلة فيها مرآة.. وعلى صفحة المرآة رأى صورة مزعجة.. فأدار وجهه ضيّقا بها صدره... ثم رجع البصر كرة أخرى فإذا

(١) تاريخ بغداد: ١٤/٢٠٩.

هو أمام وجهه الغاضب فى المرآة فأقر بالحكمة النبوية المحذرة من آثار الغضب.. وبعد أن أقربها.. عزم على ألا يكرر المحاولة.

على أن طبيعة الصراع بين الحق والباطل تفرض على الداعية حسن قراءة الظروف.. الظروف التى يتحرك فيها المحقوق والمبطلون.

يقول شاعر فارسى: إن الزمن لا يتواءم معك.. وأنت فى خصام مستمر مع الزمن.. وخير زكاة نقدمها لقضية الحق: أن نفهمها.. ونتلاءم معها.. ونستلهمها العبرة.. وإذا كان لدينا الكثير مما نقرأ.. فإن فيه ما يمد عنقه يناديك: تأملنى.. ومنه ذلك الذى يقول لك:

حاول أن تزامل الزمن فى سيره.. وبدل أن تواجهه.. حاول أن تستعلى به إلى الأفق الذى تريد.. فرارا من عداوة مستمرة تستنفذ قواك المرصودة ابتداء للبناء..

إن صدام الغرائز من شأنه أن يولد الانفجار.. فهى لذلك فى حاجة إلى عملية استعلاء تقلم بها أظافرها الشرسة.. وتهدهد من دواعى الانطلاق الطائش..

ومعنى ذلك: أن الداعية مطالب أحيانا أن يساير الأوضاع السائدة باللين.. لحساب غد تستقر فيه الأوضاع على قواعد الإسلام.

وهذا ما يشير إليه الشاعر الهندى: اتجه أنت فى اتجاه الريح..

ولا يعنى ذلك أن تصير قشة تلعب بها الريح.. وإنما المقصود: أن تحاول ـ باللين ـ تطويع الحوادث لتملك ناصيتها.. بعد أن تكون قد تكيفت معها.

والطغاة ـ وعلى رأسهم فرعون أحوج ما يكون إلى هذا اللين.. وهذا التطويع.

وهكذا قرر العارفون بطبائع النفوس الذين يقولون: لا تخاشن العاصى وأنت تدعوه إلى الحق فتجمع عليه مرارتين:

مرارة التخلى عن عقيدة متعفنة عششت فى قلبه.. وعادات ـ رديئة انبثقت عنها.. وأنس بها زمنا طويلا.. ثم مرارة الشدة المزعجة له.. وفى ضوء هذه

القاعدة نفهم لماذا أُمر موسى وأخوه عليهما السلام أن يقولا لفرعون قولا لينا:

إنهما يريدان فطمه عن طغيان تمشى فى دماه.. وحرمانه من سلطة مرد عليها دهرا طويلا.. وهذا بالنسبة له مسألة حياة أو موت.. ومن ثم كان اللين هو العلاج ـ تحاشيا للفورة المحتملة.. من رجل.. ليس عاديا يكتفى من صور الرفض بالبعد عنك.. لكنه يملك من وسائل البطش ما ينهى حياة الداعية فى غمضة عين.. ومن أجل ذلك كانت الشدة فى مواجهته عملية انتحارية.. يُهدِر فيها الداعية حياته.. بينما الدعوة فى أمس الحاجة إليه..

ومن هنا يقول الرازى: [من عادة الجبابرة إذا غلّظ الداعى لهم فى الوعظ أن يزدادوا عتوا وتكبرا. والمقصود من البعثة: حصول النفع لا حصول زيادة الضرر؛ فلهذا أمر الله تعالى بالرفق].

ومن الأمور التى تجعل من اللين أمرا ضروريا.. ما نعرفه من أحوال القلب البشرى فى صلته بالحق، هذه المعرفة التى ندرك بها أثر القول اللين فى تحقيق قدر من النجاح مهما كان ضئيلا.

وإذا بدت نعمة الله تعالى على المسلم فى زحزحته عن النار أولا.. ثم فى دخوله الجنة ثانيا.. فإن من شكر هذه النعمة أن نستثمر الكلمة الطيبة نهز بها إصرار المذنب على موقفه ليغيره إلى حد ما.. ولو لم يدخل فى دائرة الحق.

وفى هذا المعنى يقول الفخر الرازى: أحوال القلب ثلاثة:

أحدها: الإصرار على الحق..

وثانيها: الإصرار على الباطل.

وثالثها: التوقف فى الأمرين.

وإن فرعون كان مصرا على الباطل.. وهذا القسم أردأ الأقسام.

فقال تعالى: ﴿**فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى**﴾ فيرجع من إنكاره إلى الإقرار بالحق، وإن لم ينتقل من الإنكار إلى الإقرار.. لكنه يحصل فى قلبه الخوف، فيترك الإنكار.. وإن كان لا ينتقل إلى الإقرار.. فإن هذا خير من الإصرار على الإنكار].

أى أن شعور الخوف المنبعث من وراء القول اللين.. لاشك تارك أثره على القلب الصلد.. فتنكسر حدته.. بل ربما شغله الخوف عن التدبير لضرب الدعوة.. وهذا الذهول الذى أحدثه الخوف.. يوفر للدعوة وقتا تنشط فيه فى غيبة الطغيان المشغول بمخاوفه!

ومن هنا نقرر. ونكرر دائما: أن الداعية ينال باللين.. أضعاف ما ينال بالشدة.. وقد يُنقذ الله تعالى بالكلمة الحكيمة أمة بأسرها.

ويذكر الرازى هنا ما يعزز هذا المعنى.. حيث جاز لإبراهيم عليه السلام أن يقول: هذا ربى للكوكب المخلوق.. لما كان ذلك سبيلا إلى إنقاذ أمة بأسرها.

ثم إن الآية الكريمة تقول مبينة ما لِلِّين من أثر: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ ومن معانى الآية الكريمة أن يظل الأمل فى الاستجابة مورقا.. حتى فى أحلك الظروف.. فواصِل أيها الداعية قولك اللين.. فلعل فرعون: أن يتذكر..

لعله أن يتذكر فيعود إليه الوعى الغائب.. ويدرك حقائق الموقف.. ولعله أن يخشى.. أن يخاف سوء العقبى فيرتدع. ويكف يده عن العدوان..

وهكذا تحاصر الدعوة عقل المدعو.. وقلبه معا: ليدرك فى النهاية أن الله تعالى عزيز... فليخش بأسه.. وهو مع ذلك غفور.. فلا ييأس من رحمته..

ولقد جاهد الفكر الإسلامى لترسيخ هذا المعنى.. وحاول الشعراء صياغة الحوار الهادئ كما يجب أن يكون.. استلهاما من الآية الكريمة.. تبصرة وذكرى.. فقال قائلهم:

وأنت الذى من فضل منٍّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له: اذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
فقولا له هل أنت سويت هذه ... بلا وتد.. حتى استقرت كما هيا؟
وقولا له هل أنت سويت وسطها[1] ... منيرا إذا ماجنه الليل هاديا
وقولا له من يخرج الشمس بكرة ... فيصبحَ ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا؟
ويخرج منه حبه فى رءوسه؟ ... ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

من اللين.. إلى الحلم

وما تزال فى النفس بقية عن القول اللين.. وأثره فى إنشاء التجاوب لدى أقسى القلوب ولو قدّت من حجر..

ولك أن تتصور آثار اللّين فى مثل هذه الكلمات الرطاب جرت على لسان أبى سفيان عندما وقعت دماء بين حيين من قريش:

لقد أقبل عليهم أبو سفيان ودماؤهم تغلى فى عروقهم.. فلما رأوه ما بقى أحد واضعٌ رأسه إلا رفعها. فقال:

[يا معشر قريش: هل لكم فى الحق أو فيما هو أفضل من الحق؟ قالوا: وهل شيء أفضل من الحق؟ قال: نعم.. العفو! فتهادن القوم واصطلحوا].

إنها كلمة قالها مخلص فحقن الله بها دماء. وصان إخاء..

وإذ يمثل الداعية جمال الحق فإن الكلمة الطيبة لتخرج من فمه ضياء وبهاء.. يكشف الغيوم.. لتلمع النجوم.. وإذن.. فهى السلاح فى يده.. دون سواها..ولا معنى للسيف.. إذا أغنى السوط.. ولا معنى للسوط إذا كَفَت الكلمة.. وإنّها لكافية بإذن الله تعالى.. لأنها تستمد وجودها من معدن الحق.. وصوتُ الحق دائما أعلى..

يقول المرحوم «عزام» فى كتابه الشّوارد[1].

[لن تخلُد الكلمة على الأجيال إلا إذا اتصلت بالحق والخير ـ وكان لها من قوانين الله تعالى فى خلقه سند، ومن إلهامه لعباده مدد، ورب بارقة يرمى بها سلطان مسلط أو صنم مشهور، فتدوى حينا، ثم تصمت وتنطفئ وتكون كالشهاب؛ يحور رمادا بعد التهاب، بما كان دويها من صوت الباطل لا الحق، وائتلافُها من زخرف الكذب.. لا الصدق.. ولا ينطق بكلمة الحق الخالدة إلا عقل مدرك، وقلب سليم.. إلا قائل يعتد بنفسه ويثق بربه..

فمرسل الكلام أمثالا سائرة وبنيات فى الحياة باقية لا يصف وقتا محدودا،

---

(١) ص: ٣٤٠.

ولا أمرا موقوتا، ولا إنسانا فردا، ولا حدثا واحدا ولكنه يعم الأجيال والأعصار.

وعلى قدر عظم القائل: تجد هذا العموم فى قوله: يبغى أن يجعل كلماته للناس منهاجا. وفى ظلمات الحياة سراجا وهاجا[.

ومَنْ غير الداعية يبغى ذلك؟ ولن يستطيع إلا بالأناة والتبصر.. عن طريق القول اللين الآخذ بالناس إلى التى هو أقوم...

بيد أن الحماس قد يفيض بالبعض أحيانا فإذا بالانفعال الذى يهز أحلام الرجال.. الانفعال الذى يقفز متجاوزا الواقع الماثل.. غافلا عن سنة التداوى.. بالتؤدة.. وليس بالطفرة.. وهو سنة من سننهﷺ فى الدعوة.. والتى أشار إليها شوقى فى قوله:

داويت متئدا وداووا طفرة   وأخف من بعض الدواء الداء

وإذا كان الحلم وكانت الأناة من سمات الرجال... فهُما بالداعية أليق كفاء عظم مهمته.. من دون المصلحين جميعا:

ذلك بأن الداعية رائد ومهمة الرواد أشق.. لأنها اقتحام المجهول.. أما غيره فتابع.. أو بنَّاء: يبنى والانقاض بين يديه!... ولكن الداعية يكوّن مجتمعا متسقا مع أهداف الإسلام.. وذلك يتطلب المصابرة ليعرف إمكانات الأفراد.. وإمكانات الواقع.. ليدرك فى النهاية ما هى المسافة الباقية لبلوغ الهدف.. ولن يتم ذلك كله بالطفرة.. وإنما: بالأعصاب الهادئة.. تعلن عن نفسها فى كلمات طيبات.. تطيب بها القلوب فإذا بالخصام وئام.. وإذا بالانقسام.. أعمال جسام.

وقد يسأل سائل: إن إيقاع العصر سريع.. والأعداء لا ينفكون يسابقون الزمن.. لتطويق الدعوة ووقف مدِّها الزاحف..

ونُجيب: إن الزمن جزء من العلاج.. ومع مرور الأيام تتحقق الأحلام.. والماء مع لينه ينحت الصخر مع صلابته.. ثم.. لماذا لا نتعلم من الحياة والأحياء من حولنا؟

يقول تعالى: ﴿**وفى الأرض آيات للموقنين**﴾.

فلنتعلم من النمل: الاجتهاد.. ومن الجمل: الصبر. ومن الديك: النشاط.. ومن الأسد: الشجاعة.. ومن الورود: البشاشة.. فلنستوعب هذه المعانى فى

مزيج متكامل يكون الداعية به صورة صادقة لبيئته محكوما فى نفس الوقت بعقيدته.. وإنه لدرس بليغ ذلك الذى نتعلمه من النحلة.. وهى الحشرة الصغيرة... أفنعَجِز أن نكون مثلها؟ إنها تأكل طيبا. وتُخرج طيبا.. وإذا وقعَت على غصن لم تكسره.. إنها تنفع.. ولا تضر!

وهذا ما حدا بالإمام علىّ رضى الله عنها أن يستحث الأمة على أن ترتفع إلى مستوى النحْلة الهائمة.. وذلك قوله: [كونوا كالنحلة فى طيرانها: ليس من شىء إلا وهو يستضعفها. ولو يعلم الطير ما فى أجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها][1].

ومن دروس صبرها: أنها تقطع مليونا ونصفا من الكيلوات.. تقطع هذه المسافات الفلكية من أجل تكوين كيلو واحد من العسل.. ومن رحيق الأزهار.. وبسرعة أحد عشر كيلو فى الساعة الواحدة...

إن صراع الحضارات اليوم من أجل مزيد من التقدم.. والتقدم ـ والدعاة حداته وصناعه ـ أن نفعل ما تفعل النحلة.. وهى كما قيل [تنتقى الرحيق من كل الحقول.. وتجمع حبوب اللقاح من كل الأزهار.. ثم تصنع بعد ذلك عسلها الخاص.. الذى تميزت به.... وكلما ظهرت زهرة جديدة ذات رحيق جديد.. أسرعت إليها لتأخذ منها.. لا لتصنع نفس الرحيق.. بل تصنع عسلها المتميز.. وتضيف إليه عنصرا جديداً.. من عناصر الجودة..] أ.هـ.

وملاك ذلك كله هو: الصبر قاعدةً.. والقولُ اللين أسلوبا للدعوة.. بعيدا عن الانفعال.. عن التسرع.. والذى هو نوع من قصر النظر.. ذلك الداء الذى سول للإنسان أن يظلم حكماءه.

يقول المجربون: هل شاهدت حجَّارا وهو يكسر الاحجار...؟ إنه يظل يضرب الصخرة بفأسه أو معوله.. ربما مائة مرة.. دون أن يبدو فيها أدنى أثر يبشر بكسر أو فَلْق.. وليست الضرْبة الأخيرة هى التى حققت الكسر فى النهاية: بل: المائة ضربة التى سبقتها.

وما أكثر الذين يرجعون من منتصف الطريق.. بل ما أكثر الذين ييأسون من كفاحهم، قبل أن يجنوا ثمرته ربما بزمن وجيز... ولو استمروا وصبروا

---

(١) الدارمى فى سننه باب: اجتناب الأهواء.

وثابروا. . حتى الضربة الواحدة بعد المائة. . لحصدوا كل ما زرعوا. . بل وأكثر. وليتهم يَرْمقُون مِنْ حولهم ورقة التوت: إنها مع الصبر والوقت تصبح حريرا. . ولكنهم يستعجلون.

ويعنى ذلك: ضرورة التجربة الواسعة. . إلى جانب الإخلاص العميق. . . ولن تكون هناك نصيحة مجدية إذا مارسها دعاة لم تمحصهم التجاريب. . ذلك بأن رصيد الإخلاص وحده قد يحمل البعض على التجريح. . بدل التصحيح. . والتعيير مكان التغيير. .

ألا وإن النصيحة تعنى: أنك تحب النصوح. . وزكاة هذا الحب أن ترفق به. . بالكلمة الناصعة. . بسلامة بنيانها. . الدافعة بحسن عرضها. . وبها وحدها تنبجس فى النفوس ينابيع من الرضا والقبول. . لأن المنصوح عندئذ لا يحس بضغط أو تحايل. . من أجل ذلك يلقى أسلحة العناد. . ويخلع ثوب التحدى. . لينضم إلى قافلة الإيمان. . آخذا سمته مع الناصح إلى مرضاة الله تعالى.

أما إذا خلت القلوب من مادة الحب. . فهى كالبيوت الخربة: لا حساب لها. . ولا زكاة عليها!

إن النصيحة فى ذاتها ليست مشكلة. . كما يقول الإمام على رضى الله عنه. . ولكن المشكل هو: قبولها. . وقبولها لا يتم إلا بتهيئة قلب المدعو بالقول السديد، والتوجيه الرشيد، وبحسن عرضها. . تبلغُ غرضها. . ولن تصيب الغرض. . ما دام فى أسلوبها مرض!

وإذا كانوا يقولون: يا معشر الأغنيا: استكثروا من الحسنات. . فإن ذنوبكم كثيرة. . وأيها الفقراء: أقلوا من الذنوب فإن حسناكم قليلة. . إذا كانوا يقولون ذلك. . فإنا نقول للدعاة: استكثروا من التودد. . والتلطف بمن تدعون. . فإن الصيد نافر. . وأقلوا من اللوم. . فإنكم تدعون إلى الحق المر فلا تجمعوا على الناس مرارة اللوم. . ومرارة الالتزام. . وسلاحكم يظل دائما: الكلمة الطيبة التى قال عنها الشاعر:

سقَتْ صداى رُضابا غيرَ ذى أسَنٍ ... كالمسك فُتَّ على ماء العناقيد

وقفة .. مع الأستاذ صالح عشماوى

[نجادل.. من أجل الصواب، ولا نناقش الحساب]:

يندد الأستاذ صالح عشماوى بوجهة النظر الداعية إلى استعمال اللين فى مخاطبة الطغاة.. ويضرب الأمثال ببعض الحكام الظالمين فى هذا العصر.. وكيف يكون اللين فى مخاطبتهم استسلاماً يجافى روح الآية الكريمة..

يقول فى مجلة الدعوة: لغة مخاطبة فرعون:

ويدعو «بعض الكاتبين» إلى مخاطبة كل «فرعون» فى عصرنا الحاضر بكل تكبره وفساده وطغيانه فنقول له ﴿**قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى**﴾.. ونحن إذا أردنا تطبيق هذه القاعدة، فيجب على «الأخوان المسلمين فى أفغانستان» أن يخاطبوا العميل الشيوعى «بايراك كارمل» فى « كابول» بكل أدب واحترام ويدعوه بكل عبارة جميلة وخفيفة إلى ترك خيانة دينه ووطنه، فإذا حملوا السلاح ولو كان عبارة عن بنادق قديمة، ووقفوا أمام الزحف الوحشى من جحافل الشيوعيين الملحدين، وقاوموا حكومة العميل ورجاله وجنوده فهم عندئذ إرهابيون متطرفون مخالفون للكتاب والسنة.

ونحن نذكر الداعية الكبير أولا بما قاله الإمام الشهيد حسن البنا: (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه).

ثم نذكره ثانياً بأن الذى أمر بالقول اللين فى خطاب أطغى من حملت الأرض هو خالق فرعون.. ومن هو أدرى بطبيعة النفوس.. وسبل هدايتها.. وأغير منا جميعاً على دعوته!

وبالنسبة لجرائم «بايراك كارمل» فى أفغانستان لم يقل أحد بتقبل هذه الجرائم بالسكوت.. أو باللطف والرقة كما يقول الأستاذ صالح عشماوى..

ولكننا مطالبون بتقدير الموقف بدقة.. والتأمل فى حسابات الربح والخسارة بعد موازنة القوى.. وما يمكن أن تسفر عنه المواجهة الساخنة مع حكام لا يقيمون لدين الله ولا للضمير وزنا.

وفى ضوء ذلك تتحدد الخطة المناسبة.. المتوخية مصلحة الدعوة البعيدة عن التأثر بضغط انفعال قد يجر من ورائه الهلاك .. ومن الناحية العملية فإن أحداً لم يسكت على جرائم هؤلاء الحكام بل إن الأقلام المؤمنة على مستوى العالم الإسلامى من ورائها كالسياط.. والألسنة المؤمنة أيضاً شواهد صدق على ظلمها.. إلى حد أن تكون رأى عام له وزنه.. من شأنه أن يشكل فى النهاية دفاعاً قويا عن الجبهة الإسلامية المحصورة هناك..

على أن القول اللين مفسر بموقف موسى عليه السلام.. فقد بشر وأنذر.. ووضع الحقائق كاملة أمام فرعون.. ولم يكتم شهادة الله.. كل مافى الأمر أن يتم البلاغ فى إطار من التلطف والتودد، بلا استسلام أو كتمان..

ولقد كان موقف مؤمن آل فرعون ـ سورة غافر ـ فى منتهى القوة.. لكن لفظاً جارحاً واحداً لم يرد على لسانه. وحقق بهذا اللين ما يصبو إليه..

ولا يغيب عن البال أبداً أن القلة التى تواجه الكثرة المتحكمة يفرض عليها المقام أن تسالم قبل أن تهاجم..

ومن حق الأستاذ صالح عشماوى وهو بعيد عن مسرح الأحداث ـ بل من واجبه ـ أن يرشد ويوجه باللغة التى يريدها لكن الذين يصطلون بالنار لا بأس عليهم أن يعودوا ـ باللين ـ خطوة إلى الوراء تكون القفزة بعدها محكمة!

لسنا مأمورين بأن نبتسم للجلادين، ولا بأن نمد رقابنا للسفاحين.. طواعية! إن هذا المعنى غير وارد هنا.. وليس هو من اللين فى شىء، ولكننا مأمورون بأن نقول «قولا» هو الحق.. بأسلوب لين رقيق... من أجل غاية محددة هى: رجاء خشيته أو تذكره.. ومعنى هذه الخشية أو التذكر أن ترتعش يداه على الأقل فلا تخوض فى دماء الأبرياء.. لتبقى منهم بقية تقف إلى جانبنا.. سنداً للحق، وعونا على مواصلة الرحلة إلى الله، وليمكن أن نصل بسياسة كسب الوقت إلى نتائج تتيحها أوضاع جديدة ـ والدهر قلب ـ يعود بها زمام الأحداث إلى أيدى دعاة الحق.. ثمرة للحكمة الراشدة... أما هؤلاء الذين يصفون الدعاة بالإرهاب والتعصب فهم جاهلون.. أو متجاهلون.. وعلينا أن نصحح لهم المفاهيم.. باللين.. أيضا!

يقول الشيخ الشعراوى[1]:

(أمر الله تعالى موسى وهارون فقال:

﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ فرعون طغى.. واتخذ نفسه إلهاً فى الأرض يعبد من دون الله.. والله سبحانه وتعالى أرسل له رسولا، ليهديه إلى صراطه المستقيم ويذكره بالله.

لم يقل لهذا الرسول: اذهب واقطع رقبة فرعون، وخذ ملكه، وأنا سأمكنك من ذلك، ولم يقل له: سأخسف بفرعون وآله الأرض، وأعطيها لك، ولكننا نجد هنا أدب الرحمة فى أن الله سبحانه وتعالى يطالب موسى بأن يذهب لهذا الطاغية الذى نصب نفس إلهاً يعبد من دون الله.. قل له قولا لينا... برفق.. دون أن تهينه، أو تذله أمام قومه، لعل قولك هذا يوقظ فى نفسه الشعور بالذنب، والإيمان بى، فيتذكر أو يخشى).

وإن بلوغ كلمة الحق إلى موطن الإقناع فى قلب الطاغية لا توفر فقط دماء.. ولا جهداً.. ولكنها سوف تحيى أمة تأتمر بأمره.. ثم تقف بعامل الفساد عند حده فلا يصبح مطلق اليد يعيث فى دنيا الناس فساداً..

وكان ﷺ - أحيانا ولحكمة يراها - يدارى بعض المنافقين كفا لألسنتهم عن الغدر.. وحماية لأنفس بريئة يتخذون منها مجالا لنشاطهم.

جاء فى الحديث عنه ﷺ تعقيبا على مداراته لأحد المنافقين.. وردا على تساؤل المتعجبين:

«إنه منافق أداريه عن نفاقه، فأخشى أن يفسد على غيره»[2].

أى أن اللين أو التلطف فى مخاطبة الظالمين لا يقصد به تكريمهم وإعلاء ذواتهم بقدر ما هو سبيل إلى تمهيد الطريق أمام أجيال واقعة فى كيد هؤلاء الأشرار... ثم إنه ليس قاعدة.. لكنه إجراء تفرضه أحياناً مرحلة من مراحل صراع لم يستكمل فيه الحق عدته.

---

(١) الأخبار: ٣//١٩٨١.

(٢) ابو نعيم فى الحلية حـ/٤/ ١٩١.

وعندما نستبعد المخاشنة أو العنف فى مخاطبة الطغاة.. فليس بلازم أن يكون البديل هو اللطف والاستسلام كما يفهم من كلام الأستاذ صالح عشماوى... بل إن بين العنف واللطف مراتب أخرى يمكن بالحكمة أن تحقق نتائج طيبة على طريق الدعوة.

إن الكلمة اللينة لا تعنى التنازل عن عنصر من عناصر الحق.. بل إنها تهدف إلى إبلاغ الحقائق بلا صدام أو تجريح يوقظ الوحش الكامن فى كيان طاغية متربص .. ينقض بلا رحمة على فريسته المسالمة!

ومن رأى الفاقهين فى حقل الدعوة أن نتجه إلى التربية إعداداً لجيل المستقبل.. وبدل أن ندرب الشباب على العنف.. نحاول نحن تنشئتهم من الداخل على معانى التعاون والجد والمصابرة، والعمل المثمر.. وإذا كان الزمن جزءاً من العلاج كما يقولون.. فسوف يأتى يوم تتسع فيه القاعدة من شباب مؤمن بربه.. محب لوطنه.. مسلح بمكارم الأخلاق.. وحينئذ يتحقق حلم الأجيال عندما يجد الحكام أنفسهم فى بيئة إسلامية صالحة لتحمل مسئولية الشريعة.. التى تتقاضاهم العمل طبق أصولها.. بل إنها ستشكل ـ مع مرور الأيام ـ رأياً عاما ضاغطا لا يرى الحاكم بدا من النزول على إرادته وتطبيق شرع الله.. وتلك غاية المراد من رب العباد!

وقد جربت بعض الدعوات سبيل العنف ورأيت وكيف جر على الدعوة الخراب.. وعرضها للقيل والقال.

ولست أدرى لماذا نشكل جزيرة بارزة فى محيط كبير.. نعزل أنفسنا عن مجرى الأحداث كأننا جنس آخر بين البشر؟ والمفروض علينا أن نعايش الواقع.. ونندمج فيه.. ونترك بصماتنا على مرافقه باللين والرفق.. شريطة ألا نضيع فى دوامته لتظل لنا شخصيتنا الإسلامية المميزة.. وأعتقد أن الأستاذ صالح عشماوى معى أن العمل الإسلامى اليوم يحتاج إلى وقفة تصحح مساره بعد أن حاول البعض أن يعطى حق تجريم الآخرين.

وتعددت السبل.. واختلفت الأهداف.. فعلت الأصوات المنادية بالحق.. وكل يدعى وصلا بليلى!

وكما يقول الشاعر:

رب يوم بكيت منه فلما ... صرت فى غيره بكيت عليه

لقد هوجم الإخوان المسلمين يوما.. وقطعهم التحكم فى الأرض أمما.. ومرت الأيام وثبت بما لايدع مجالا للشك أن الإخوان المسلمين كانوا رحمة مهداة.. ولو أتيح لهم العمل ولو أخلص بعضهم النية فلم يتصرف تصرف طلاب الحكم لكان للوطن مع الشيوعيين شأن آخر. ولما كان هناك للرفض جبهة!

لقد شكل الإخوان المسلمون فى الماضى خطا إسلاميا واحداً.. وواضحا.. أما اليوم. فألف خط. وألف هدف. وألف مشكلة على طريق العمل الإسلامى؟!!

وهذا المعنى هو الذى يحملنا على أن نركز على اللين والرفق فى الدعوة إلى الله.. فراراً من طراز من الدعاة الشبان.. الذين لم يتجاوز الواحد منهم العشرين ربيعاِ.. يحدثونك بوجه عابس.. ونبرة حاسمة.. ورأى واثق .. وقد يضربون بقبضة اليد على المنبر قائلين: ما أكثر ما قيل فوقه من كلام !!

وهكذا وبجرة لسان يحاولون شجب مجهود جيل من العلماء صنعوا المعجزات.. لمجرد أنهم علماء يعملون مع الحكومة !! بل وصلت التبعية العمياء إلى الأقتداء بمراهق فى كيفية صلاته ونبذ هذه النماذج من علمائنا فوق الستين.. وهكذا يفعل علماء القرن العشرين من الشباب... ولهذا نوصى باللين.. فراراً من خطر يهدم الدعوة عظيم!

من ذاكرة التاريخ:

ومن المفيد هنا أن أنقل موقفاً للمرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى مع المرحوم مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى إذ ذاك.. من حيث كان المرحوم وجدى يمثل وجهة النظر الدينية فى ذات القضية... وهو موقف ينم عن لون من الخلاف لا يفسد للود قضية.. بقدر ما أكد اهتمام رجل السياسة بالدين.. واشتغال رجل الدين بالسياسة فى إطار الحكمة القرآنية.. يقول الدكتور محمد رجب البيومى فى كتابة «النهضة الإسلامية»[1].

(١) ص ١٣٥ وما بعدها بتصرف.

(أنشأ المرحوم محمد فريد وجدى جريدة «الدستور» اليومية. لتنطق بمبادئ الحزب الوطنى، إذ كان ضمن أعضائه البارزين. كما كان محل تقدير زعيمه مصطفى كامل رحمه الله.

وحدث أن عارض وجدى بعض اتجاهات الحزب السياسية معارضة نزيهة... وكان يظن أن انتماءه للحزب لا يحول دون نقده، فجهر بما يعتقد فى أدب وذوق، ولكن شباب الحزب وأكثرهم من ذوى العجلة المتسرعة ناوءوا وحرضوا على مقاطعة جريدته حتى كسد سوقها.. ووقف الرجل يدافع عن رأيه فقال: «إنى لم أنتبذ بالدستور مكانا بعيداً عن الأحزاب إلا ليكون واسطة اتحاد واتفاق بينهما. وواقفا موقف المراقب لأعمالها. حتى لا تحرم الأمة من جريدة غير متحزبة فتضيع الحقائق وتنطمس المعالم ولا يكون للطرفين وسط.

أما أنا فواحد من أعضاء الحزب الوطنى. أعترف بأن مبادئ هذا الحزب هى المبادئ الصحيحة... لكن هل يغيب عن حضرة الأخ أن كونى من الحزب الوطنى معترفا بزعامة مصطفى كامل لا يمنع أن أنتقد خطبته، وأن أبين للشبيبة موقع الخطأ والصواب على ما يقتضيه واجب الصحافة.. هل تمنع الإنجليزى إنجليزيته عن الانتقاد على خطبة ملكه أو زعيم حزبه؟

إذن، مافائدة الجرائد.. وما معنى التناصح والتعاون فى الخدمة والمساعدة فى تقويم الآراء؟

وأنا فى غنى عن الكسب إذا كنت لا أملك حرية الانتقاد فيما أعتقد واجبا ضروريا، هذه الحرية المثالية لدى الكاتب الكبير تزدان أجمل ارديان بالموعظة الحسنة، والمجادلة التى هى أحسن.

وأذكر أن الزعيم مصطفى كامل رحمه الله كان لا يرى رأى وجدى فى هذا الرفق الذى اتجه به إلى خصوم الإسلام ومناوئيه:

فقد رد فريد رحمه الله على اللورد كرومر رداً مهذبا حين هاجم الدين الإسلامى فى تقريره الأخير، وشفع نقضه الصريح بالحجج العلمية الحاسمة دفعت الزعيم الشاب إلى رؤية وجدى ومجادلته، ويسجل المرحوم وجدى ما دار بينه وبين

مصطفى كامل فيقول: (طفق صاحبى يكلمنى فى أمر الرد، ويظهر لى أنه مسرور جداً من مبادرتى بنصرة الدين وكبت خصومه الملحدين، وأطنب فى ذلك ما شاء، ثم قال لى: هذا كله حسن، ولكنى أرى فى مقدمتك لينا فى اللهجة. لا يصح أن تكون عليه مقدمة رد مطاعن على الإسلام وجهها إليه رجل من غير أبنائه لاهم له إلا جرح عواطف المسلمين وتسوء سمعتهم.

فقلت له: أليس إلانة القول من قوة الحجة خير من الشدة التى ربما نفرته من قراءة البحث كله فيفوتنى الغرض من كتابته... وهذا فرعون موسى الذى افتات على الله وادعى الألوهية، قد أمر الله موسى عندما أرسله إليه أن يقول له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى، وأمرنا الله بذلك نصا فقال:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾.

وما الذى يضيرنى لو ألنت له المقدمة استدراجا حتى إذا تورط معى فى البحث وآنست روحه منى قصد الحقيقة اطمأن إلى الموضوع وأشربه قلبه.

فقال: كلا.. إنك لم تلن له القول فقط، بل عذرته فيما قال أيضاً، وقلت أن فى المسلمين من يقول مثل مقالة «كرومر» افتتانا بالعلم الأوربى، وكفى بجملتك هذه مبرئا فى نظر أهل دولته..

ولا يبعد عليه أن يقول فى تقرير السنة المقبلة فى تبرئة نفسه، إنه معذور فيما ذهب إليه.. بدليل ماكتبه فلان فى جريدة «اللواء» وبسرد عبارتك بالنص فتكون قد أعطيته أكبر سلاح يدافع به عن نفسه.

فقلت له: كل هذا يمكن، ولكنى لا أنظر إلى هذه الاحتمالات مادام موضوعى الذى أبحث فيه دينى، ورب الدين يقول: ألينوا القول للمخالفين ولا تخاشنوهم عند دعوتهم إلى الإيمان.

قال: يا أخى نحن فى موضع يجب أن نبث فى الأمة روح الحمية والعبرة بالكتابة المؤثرة وهذه فرصة من أجمل الفرص لذلك، لا أن نقابلها وهى فى هذا الغليان الوجدانى بما يكسر نفوسها)ا. هـ.

وعليك أن تنظر: ماذا ترى؟

أولا: المندوب البريطانى «كرومر» ـ ووظيفته سياسية بالدرجة الأولى ـ يجعل من أساسيات وظيفته مهاجمة الإسلام.

ولا يكتفى فى تقريره بمجرد الوصف الكاشف لأوضاع المسلمين مثلا.. لكنه يدقق النظر فيما يراه نقاط ضعف ليتخذ منه مادة للتشهير بالإسلام والمسلمين.

أى أنه فى الواقع مبشر عريق يتزيا بزى السياسة خداعا وتمويها... الأمر الذى يفرض على الدعاة بصرا بعواقب الأمور ودخائل القوم هناك.. ليتسنى لهم بالحكمة كشف المخبوء من خلف القناع.. حتى لا يفتن الأغرار بظاهر من القول المعسول يبديه أعداء الإسلام فى الوقت الذى يبيتون فيه ما لا يرضى من الخطط المنكرة... ويتصدى لهذا الهجوم المبيت: الحزب السياسى القوى فى البلاد.. اعتزازاً بدينة وبأمته... فلا بقاء لأمة فرطت فى دينها.. ولا وجود لحزب يتجاهل عنصر القوة فى بنائه.. والتجربة اليومية تثبت أن تجرد الحزب للمعنى السياسى دون التركيز على قيادات دينية تأخذ فى صفوفه موقع الصدارة حفر بين الحزب وبين التيار الإسلامى برزخا.. فهما لا يلتقيان.. ولو وعت الأحزاب دورها فى التمكين لدينها ـ بالحكمة طبعا ـ لما كان هذا الاختلاف بين السياسة.. والدين.. وكأنهما نقيضان.. لا يجتمعان!

ثانيا: زعيم الحزب السياسى مشغول بقضايا دينه.. وإحساسه بقداستها حمله على انتقاد المرحوم فريد وجدى فيما ظنه تهاونا فى رد مطاعن أعداء الإسلام... ولم تمنعه أمور السياسة ومشكلاتها من اليقظة إلى حد الانفعال فى مواجهة أناس يكيدون لدين الله كيدا:

وثالثا: رجل الدين فى شخص محمد فريد وجدى يجاهد فى سبيل دينه ووطنه من خلال حزب سياسى، يقول الحق مهما كانت النتيجة، ويصلح بدين الله ما أفسد الناس.. والعجيب هنا أن يكون الزعيم السياسى أكثر تشدداً من عالم الدين!!

بيد أن المرحوم فريد وجدى يظل مخلصا لقواعد الدين وضوابطه فى جدال المخالفين.

وقد ينال الإنسان باللين أضعاف مايناله بالشدة.. إن كان وراء الشدة كسب يذكر.

وتبدو صورة الشباب دائماً: فى المجالين الدينى والسياسى: ثورة.. وانفعالا قد يلقى بالتهم جزافا.. وقد يصدر الأحكام بدافع من قلوب لم تكتشف كل أبعاد الحقيقة.. وهنا يبدأ دور الشيوخ فى تبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم.. برصيد من التعقل.. ووزن الأمور بميزان الخبرة والفهم المستنير.. لتتمكن هذه الثروة المدخرة من أن تمسك غداً بمقاليد الأمور إلى مستقبل أفضل.

تعقيب:

المعاصى من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها، إلا بالشرك لقول النبى ﷺ: **«إنك امرؤ فيك جاهلية»**[1].

فأنت ترى أن استشهاد البخارى بهذا القول النبوى الشريف واضح الصواب، والمخاطب به: أبو ذر رضى الله عنه، مع أنه كان من أجل الصحابة، لما حصل منه من تعيير بلال بأمه السوداء.

فالمعصية الواحدة هى شعبة من الجاهلية كما يقول النبى ﷺ، وكلما زادت معاصى المسلم زادت نسبة مافيه من الجاهلية، ولكن لا ينتقل إلى الجاهلية كلية إلا بالشرك فى العبادة أو اعتقاد حل بعض ماحرم الله أو اعتقاد حرمة بعض ما أحل الله وإيمانه ببعض وكفره ببعض.

وهذا هو السر فى تشديد النبى ﷺ على الحذر فى تكفير من يظهر الإسلام.

وقوله: **«أيما امرئ قال لأخيه: ياكافر فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال وإلا رجعت عليه»**[2].

وهذا هو السر أيضاً فى تشديد الإمام حسن البنا على ذلك، وقوله فى الأصول العشرين: «لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاها، وأدى الفرائض، برأى أو بمعصية إلا أن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين

---

(١) صحيح البخارى ١/١٥. (٢) صحيح مسلم ١/٥٧.

بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر» وهو المفهوم الوارد فى شرح العراقى للأصول العشرين.

وقوله أن: تكفير المسلم على وجه يخرجه من الإسلام خطير جداً، فلابد من صدور ما يخرجه عن الإسلام قطعاً، كأن يأتى قولا أو عملا لا يحتمل أى تأويل فى كفر صاحبه، مثل أن ينكر القطعى من الدين، كوجوب الصلاة،وحرمة الربا، أو عدم لزوم التقيد بالإسلام، أو استهزاء بالإسلام أو بالقرآن، أو سب الله ورسوله أو لوث القرآن بقذر، أو كذب صريح القرآن، أو أنكر اليوم الآخر، أو قاله: إن الشريعة صارت عتيقة وذهب زمانها ولا تصلح للتطبيق ولا لزوم لها فى الوقت الحاضر، وغير ذلك، مما يجعل قائله أو فاعله كافراً قطعاً.

أما إذا صدرت منه معاصى، كشرب الخمر مع إقراره بأصول العقيدة الإسلامية، فهو عاص لا كافر، كذلك إذا قال قولا أو عمل عملا يحتمل التأويل فلا نكفره بقوله أو عمله هذا.

ومن الجدير بالذكر أننا نطلق على بعض الأفعال، أو ترك بعض الأفعال، اسم الكفر، كما جاء بها النصوص الشرعية، مثل: «**ترك الصلاة كفر**» أما تكفير شخص معين بالذات، فلابد من صدور ما يكفر به يقينا مثل جحود فرض الصلاه، أو استتابته والقول له: إذا لم تصل نقتلك، ويصر على الترك، ويؤثر القتل، فهذا دليل خلو قلبه من الإيمان، ويموت كافراً.

كذلك يجب أن نعلم أن الكفر نوعان:

كفرأصغرلا يخرج صاحبه من الإسلام وكفر أكبر يخرج صاحبه من الإسلام.

وعلى ضوء هذه التفرقة نستطيع أن نفهم بعض النصوص.

مثل: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» فهذا شرك غير مخرج من الإسلام وإنما هو معصية غليظة جدا، وهكذا[1].

فإن بذل الطاغية فطرته، فأغلظ القول، فعلى الداعية أن يظل وفياً لدينه

(١) شرح الأصول العشرين/ ٥٥.

ليكون رده بالحسنى.

ولنا فى قصة موسى عليه السلام من فرعون درس.

فهذا هو موسى كليم الله، يدعو ـ وبالحكمة ـ أبغض عباد الله إلى الله.

يقول الندوى:

[نلاحظ أن الله تعالى يرسل سيدنا موسى، الذى هو حبيبه وصفيه إلى رجل هو أكبر عدو له.. يعنى هناك نسبة المضادة، نسبة التفاوت العظيم، الذى لا يقوم بين رجلين عاديين، إنما يقوم بين رجلين على طرفى نقيض؛ أحب عباد الله، إلى أبغض عباد الله.

أعظم الرسل فى عصره، يرسل إلى إنسان قد تحدى القدرة الإلهية فقال **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**. يرسل الرسول الذى يكرم بالرسالة، ويكرم بالاصطفاء وبالكلام، وبالمناجاة من الله تبارك وتعالى، يرسله إلى أكبر عدو واقترف أكبر ذنب ثم قد ضم إلى ذلك أنه ادعى الألوهية. ولكن ماذا يقول له: يقول له: «**فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى**».

بعد ذلك لا يمكن أن يتعلل إنسان ويقول: إنى أغلظ لفلان القول لأنه كذا وكذا...

لأنه ما يمكن لإنسان أن يبلغ إلى هذا المدى من الوقاحة، ومن الصلف ومن الكبرياء، ومن التحدى لقدسية الله تبارك وتعالى وجبروته وملكه][1].

[إلى الإسلام من أوسع الأبواب]:

وترفض طبيعة الإسلام المفصلة على قدر الحياة كلها أن يقف على بابه حارس صارم الملامح لا يسمح بالدخول إلا لأولى العزم من الرجال.

ذلك بأن حقائق التاريخ شاهدة بأن ذلك كان مسلك سدنة الأديان الأخرى، أما الإسلام فشىء غير ذلك وفوق ذلك:

[يقول المسيو «جوليان ويل» حاخام باريس فى كتابه «اليهودية»: يجب على كل ربانى أن يرد كل طالب الدخول فى عهد إبراهيم ثلاث مرات لافتا نظره إلى

(١) البعث الإسلامى، جمادى الثانية ١٠١.

الصعوبات التى سيصادفها، والتكاليف الشاقة التى سيتحملها والأخطار التى سيتعرض لها. . فإذا أصر على طلبه، وتحقق الربانى أن الدواعى التى تحدوه للتهود ظاهرة ونزيهة، فيمكنه أن يقبله فى حظيرة البيعة.

ثم قال: هذا التحفظ فى أمر طالبى التهود دعت إليه طبيعة اليهودية ونظامها الخاص الذى لا يقصد به إلا الإسرائيلى بأدق معانى هذه الكلمة.

وأوجبه كذلك مافى اليهودية من التكاليف الكثيرة التى يستدعى العمل بها نكران الذات. والإخشيشان والثبات والشجاعة وأحيانا البطولة أيضا](1).

أما فى الإسلام: فإن لك أن تدخله من أى الأبواب شئت.

وعندما جاء أحد الصحابة بجارية ليختبر الرسولﷺ إيمانها سألها المصطفى: **«أين الله؟»** فأشارت إلى السماء.

ولما قال لها: **«من أنا»** فأشارت إليه، وإلى السماء.

تعنى: أنك رسول من فى السماء، فما كان منه ﷺ إلا أن قال لوليها: **«أعتقها فإنها مؤمنة»**.

أى أنه اكتفى منها بهذه الإشارة التى لم تجد سواها وربما قيل:

إن الإيمان لا يتم إلا بالنطق بالشهادتين، ثم التبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام، إلا أنه ﷺ قبل إيمانها:

١ ـ لأن إشارتها دليل إسلامها.

٢ ـ ثم إنها تعيش بين المسلمين.

٣ ـ وهى قبل ذلك تحت رق رجل مسلم.

بمعنى أن صبغة الله التى ظللت البيئة كلها بقيم الإيمان سوف تترك آثارها ولاشك على قلب الجارية المحررة، وسوف تمنحها الحرية قدرة على الانطلاق، تنمى فى كيانها عناصر الخير، وتوسع فى قلبها مساحة الإيمان:

---

(١) الدين العالمى صـ ١٢.

هــدف الداعيـة

لأنّ الداعية إنسان.. فإن له هدفا.. ولأنه مع ذلك مسلم.. فلابد أن يكون الهدف شريفا.. وأخيرا: لأنه رائد لا يكذب أهله.. فلابد أن تكون وسيلة التخاطب لديه على مستوى هدفه رفعة وسموا..

ومن سمو الوسيلة أن تقدر ظروف العاصى العنيد.. فلا تقطع حبال العلائق بينك وبينه ـ لمجرد أنه كافر.. فالكفر مرض.. وبسبب منه لابد أن تواجهه.. وبالتى هى أحسن... ولئن بذل الطاغية فطرته فأغلظ القول.. فعلى الداعية أن يظل وفيا لدينه.. يخاطب بالقول اللين.

وقد يعتز الداعية بقيمه يوما إلى الحد الذى يمتنع فيه عن مخاطبة طاغية كفرعون.. ولو سمحت نفسه بمخاطبته أحيانا.. فقد يركب متن الشطط.. فيُغلظ له القول ظانا أنه يتعامل معه بلغته التى لا يفهم سواها..

والدعاة لا يخاطبون الطغاة بلغاتهم.. ولكن بلغة الدين الذى يدعونهم إليه.. وهو الإسلام المسماح.. الذى لا يغلق الباب فى وجه أحد أبدا..

ومن واجب الداعية إذن أن يواجه الطاغية.. ولكن بالحسنى.. وسوف يصغر الطاغية فى نظر نفسه أمام جلال الحق يلوح على وجهك.. وينضح به منطقك.. وقد يزين لك الحماس لحظة أن تعبر عنه بالقول الغليظ لتصل إلى هدفك سريعا.. ولكن الحكمة البالغة تأخذ بتلابيبك.. لتهدهد من هذا الحماس قائلة لك: لأن تصل بالرفق متأخرا.. خير من أن لا تصل بالمرة إذا اتخذت الجفاء سبيلا.

{هل حقق القول اللين ثمرته}:

ويحين الوقت لنتساءل: هل حقق القول اللين مقصوده؟ والجواب: نعم ولقد ظهر ذلك فى أمور ثلاثة:

١ ـ تراجع فرعون وتوقف بطشه وسطوته.. وتوفرت الظروف المناسبة أمام الداعى إلى الله بالقول اللين كما أمره ربه سبحانه.

٢ـ آمن السحرة ولم يكن إيمانهم متوقعا.

٣ ـ ظهور مؤمن آل فرعون حجة من الله تعالى على قومه.

أما فيما يتعلق بتراجع فرعون:

١ـ فقد كان بالأمس الدابر يقول: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾.. ثم صار اليوم يخاطب موسى وهارون عليهما السلام بأسلوب آخر.. حكاه القرآن الكريم من مثل قوله: ﴿قال فمن ربكما ياموسى﴾.

وقوله: ﴿فما بال القرون الأولى﴾.

ومعنى ذلك أن فرعون يزايل قمة الاستكبار ثم يتسع صدره فيتصور للوجود إلها غيره وها هو ذا يتساءل عنه..مع ملاحظة أن فرعون يضع سلاح البطش ليدخل معهما فى حوار.. وكانت لغته دائما هى: العدوان.. أو السخرية على الأقل.. وقد أشار المفسرون إلى شىء من ذلك.

٢ ـ ولاننسى كيف مهد الدعاة إلى هذا التراجع بالحكمة التى اتجهت بالحوار اتجاها مثمرا.. ولا بأس أن يستمع المحق إلى رأى المبطل.. ثم ليكر عليه بعد ذلك بالبرهان.. فلا يبقى له على أثر.

٣ ـ ولقد أشار المفسرون إلى أن التذكر وقع من فرعون فعلا.. وإن كان بعد فوات الأوان.

يقول القرطبى:

« وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق، وخشى وقال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ ولكن لم ينفعه ذلك.

ومما قيل أيضا:

[إن فرعون ركن إلى قول موسى لما دعاه وشاور امرأته فآمنت، وأشارت عليه بالإيمان فشاورها وشاور هامان فقال له: لا تفعل: فبعد أن كنت ملكا تصير مملوكا وبعد أن كنت ربا تصير مربوبا.

وعلى أى حال: فقد تركت الكلمة الطيبة آثارها داخل أسرة فرعون فآمن من آمن ومن لم يؤمن بقى على رجاء الإيمان.. إن لم يكن اليوم فغداً.

إيمان السحرة:

وإذ لم يكن فرعون قد آمن.. فقد كان خنوعه لصولة الحق شهادة صدق على أنه مبطل يجحد الحق.. فى نظر أتباعه من السجدة الذين سحبوا ثقتهم منه.. ونفضوا أيديهم من ادعاءاته... ولقد طأطأ الخوف رأسه.. فمرت من فوقه نسمات الإيمان ودلائل الهداية إلى قلوب متشوفة إليها.. راغبة فيها.. مقبلة عليها.. وهى قلوب السحرة:

لقد بلغ عددهم فى رأى بعض المفسرين أكثر من عشرة آلاف.. أعلنوا كلهم إيمانهم برب هارون وموسى..

ولك أن تتصور كيف وصلت بركة القول اللين.. وكيف تسللت إلى قلوب السحرة كضوء الفجر.. وهم الطليعة المثقفة فى الأمة.. وساعدُ فرعون الأيمن.. ولم يتصور أحد إيمانهم..

والعارفون بطبيعة النفوس يقولون: {إن النفوس مهما تغلغل فيها حب الشر إلا أن تذليلها ممكن إذا أُفرِغ لها الترهيب فى قالب متين، بحيث يصرفها عما هى متطلعة إليه} أ. هـ.

وحينئذ.. وعند اتضاح معالم الحق تكسب الدعوة أنصارا جددا تعتنق الحق.. بل وتموت فى سبيله..

{نحن.. وغيرنا}:

ولقد دخل الناس فى دين الله أفواجا على يد دعاة ضموا إلى الإخلاص حسن العرض.. ولطف الخطاب.. وأدب الحوار.

وإذ تفرض مصلحة الدعوة لين القول.. فإن الداعية إنسان قبل أن يكون داعية فهو مطالب بأن ينصف الناس من نفسه.. يحب لهم مايحب لها على مايقول الناصح الأمين لولده:

(يابنى: اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك، فأحب لغيرك ما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ماتستقبح من غيرك وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل مالا تحب أن يقال لك} أ. هـ

وإذا كان المدعوون شبابا.. فقد يتطلب الأمر حكمة أربى تفرضها طبيعة

الشباب . . أى أن العمل فى مجال الشباب يتطلب دراية أكثر:

إن الشباب فى كل أمة: لهم آمال يريدونها. . ولكن الواقع - كما يقول البصراء - لايساعدهم على تحقيقها. ومستقبلهم فى نظرهم أجمل من حاضرهم. ومن ثم. . سيظلون يحلمون به. . فهل نَرْبت. . أو نكبت؟! لا هذا ولا ذاك. .

وإذا كان أصحاب المذاهب من طلاب الدنيا يَدُعُّون الناس إلى مذاهبهم دعّا. . فكانت قلوبهم سجونا. . وسواعدهم قضبانا. . وأصابعهم رصاصا. . فنحن فى أمة الإسلام شىء غير هذا تماما. . . إنهم يستعملون الحكَمة. . أما نحن فبالحِكْمة: ننضح من الحكمة على ما يشبه الجلد الجامد. . فيلين. . وعلى باليه. . فيتجدد. . وعلى المنكمش فيتمدد. .

{الداعية والناس}:

يقول تعالى: **﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾**.

هل الداعية مكلف أن ينقل الإسلام إلى الناس. . أو هو مطالب بنَقْل الناس إلى الإسلام؟

ولقد كفانا الجواب الإمام ابن تيمية رحمه الله بقوله: {إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم. . ولكن نقلوا الأمم إلى الإسلام}.

ومن معانى ذلك الجواب: أن يعيش الداعية الإسلام قولا وعملا ينعكس على محيّاه نورا. . وينبت فى حركته بركة. . وفى قوله حكمة. .

ومن خلال ذلك كله يطل الداعية بوجهه صورة للإسلام الذى يدعو إليه. . وعندئذ تميل إليه أفئدة الباحثين عن الحق ممثلا فى واحد من الخلق. . بعد أن ضربوا فى التيه بلا دليل. .

ودون هؤلاء التائهين جميعا يظل فرعون الطاغية أحوج النماذج جميعا إلى الكلمة الطيبة التي تسحب البساط من تحت قدميه. . برفق. . ولين. . قد يصلان به إلى بر اليقين!

لقد تجمع فى قلبه كل ما تفرق فى قلوب الطغاة من صور الشر. . وإذن فهناك فى أعماقه شرور. . ضاربة الجذور. . . وليس لها إلا اليد الصناع. . التى تستل

الشعرة من العجين.. فإما إيمانا.. وإما جحودا.. وإذ يبدو قلب فرعون كهفا مظلما مهما سلطت عليه من الأضواء.. فيجب أن يظل المصباح يبذل فطرته ضوءا كاشفا.. وإن ظل الحقد هنا يُمد القلب بمزيد من الظلمات..

وحتى فى أحرج اللحظات وعندما يصب الأشرار على الأخيار من الشدة أقسى ما يكون.. فإن الدعاة إلى الله يبذلون لهم من اللين أقصى ما يملكون!

ولأن الفضيلة ـ كما يقول الماوردى ـ فى الرواد أضوأ وأطرى.. فلابد أن يكون الرائد.. الداعية.. أجمع لخصال الخير.. وأحرز لأسباب الفضل.. ليظل أبدا مأرز الفضيلة التى يتنكر لها الأرذلون.

ألا إن فعل الداعية أفعال.. وأقواله أقوال؛ بمعنى أنه يسن بعمله سنة.. ينسج الناس على منوالها..

وقوله نبراس يهدى، ومثل يحتذى فعليه أن يختار لنفسه ما يؤيد الحق فلايخاشن انتصارا لنفسه.. بل يهادن تدعيما للحق.. فى مواجهة من يملك التشويش عليه.

إن المخاشنة.. والملاينة متعاديان.. يصطرعان: فممن غلب.. انحازت له النفس.. فكن ولعقلك مسعفا ولهواك مسّوفا.. ولابديل للقول اللين.

وقد يقول قائل: ماذا يبقى فى جعبة الداعية إلا المخاشنة بعد أن نفدت حيلته ولم يبق فى قوس الصبر منزع؟

وأقول له: يلجأ إلى الله تعالى.. الذى يأمر السنن الكونية أن تنوب عن الداعية.. لتتحرك.. ثم لتحتوش الطغاة.. فتوردهم من البحر الأعماق.. وعندئذ تنتهى مهمتك..

وقد قالوا: انصح أخاك.. فإن قبل.. وإلا فغشه!

قيل: وكيف أغشه؟

قالوا: اسكت عن نصيحته.. فالسكوت عنها عقوبة للمنصوح على ترك قبولها.

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتى والنصح أغلى ما يباع ويوهب

[القول اللين من القرآن]

قلنا: إن أبا السعود رحمه الله فسر القول اللين بقوله تعالى فى سورة النازعات: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ. وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ. فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ. فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ. ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ. فَحَشَرَ فَنَادَىٰ. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٨-٢٦].

بماذا تطالعنا الآيات الكريمة من دروس؟

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]. . كل يتصرف على النحو الذى يليق به من الأفعال والأقوال: :

فموسى عليه السلام يبذل فطرة الحق. . وما يليق بها من وسيلة العرض عن طريق هذا القول اللين. . بينما فرعون المخذول يكذب. .ويعصى . .ثم يترجم العصيان إلى حركة عصبية طائشة تعكس غيظه المكبوت. .والذى فجرته الكلمة الهادئة التى تحمل جلال الحق وسطوته. .وبينما فرعون بلا بصر. .فلا يرى الغَيرْ. .وبلا بصيرة. . فلا يدرك الغير. .فإن الداعية يرصد المدعو. .ببصره. . وبصيرته معا. . ثم يخطط لاحتوائه. . بالكلمة التى تنحت الصخر مع صلابته: أريد حياته. . ويريد قتلى!

إن فرعون كما يقرر الماوردى: [لم يذكره الأمن. . الخوف. . ولا الدولة. . الزوال. . ولا الصحة المرض. . ولا العز. . الذل. . ولا الغنى الفقر. .].

لقد نسى الآخرة فى انبساط أمله. . وازدحام أمانيه: [يحس بحلاوة الدنيا. . ولا يحس بآلامها كالمسموم الذى يجد حلاوة العسل ولا يشعر بمرارة السم. . فيكون فى حلاوته هلاكه].

وماذا يفعل الداعية إزاء هذه الصخرة الصماء؟

إن الانسحاب لون من الهزيمة قد يصيب الدعوة فى مقتل. . وأفضل منه توظيف الكلمة الهادئة. . لتحسم القضية؟

وليس هناك أفضل من آيات القرآن الكريم مثلا يحتذى.. ومن هذه الآيات.. آيات سورة النازعات. والتى نحن بصدد التعليق عليها: فموسى عليه السلام يقول لفرعون: هل لك..؟

هل تسمح لى بالدخول إلى ساحتك.. لأجرى معك حوارا حول قضية مهمة؟

هل تأذن لى.. أنت الذى تملك الإذن ليكون الحوار.. أولا يكون.. ثم.. ما رأيك إذا كانت هذه القضية تهمك أنت وأنت بالذات.. لأنها قضيتك.. حياتك.. ومماتك.. وذلك قوله تعالى: ﴿هل لك﴾ لك أنت..

أما القضية فهى: التزكية.. والهداية..

فماذا لو تخلصت من هواك.. من هوانك.. وسرت معى فى رحلة تحقق مصلحتك وحدك..

ولاحظ أن موسى عليه السلام لم يقل له: هل لك إلى التزكية.. فالوصول إلى التزكية دفعة واحدة تأباه سنة التدرج..

وإنما قال: ﴿إلى أن تزكى﴾ وهو المصدر المؤول.. يعنى: أن تبدأ.. أن تضع قدمك على طريقها.. أن تغير اتجاهك.. والنتيجة بعد ذلك على الله تعالى..

ثم إنه لم يقل له: هل لك إلى أن أزكيك.. أزكيك أنا.. لم يقل ذلك حتى لا يحس المدعو بيد أجنبية تحاول فرض الوصاية عليه.. ورأى آخر يحاول إجباره على مالا يشتهى.. وليحس أن القرار قراره... هو.

ولا حظ أيضا أن موسى عليه السلام يضيف الهداية إليه بخلاف التزكية ﴿وأهديك﴾.

ذلك بأن أحدا لا يكره أن يمتد إليه شعاع يكشف له معالم التيه الذى يهيم فيه كما أن الغريق يتطلع إلى يد تمتد إليه من خلال الموج..

وتأمل أخيرا كيف يختار الداعى إلى الله من النصيحة جانبها الإيجابى المؤثر:

فقد كان من الممكن أن يقول له: أنت نجس.. وعليك أن تتزكى من هذا

النجس.. بيد أنه يقول له: ﴿إلى أن تزكى﴾ فيُخفى الجانب المثير.. ليبقى الجانب المؤثر !!

أما بعد: ففى ضوء هذا الحوار القرآنى الحكيم ينبغى أن نتعلم فن الحوار: ولنسأل أنفسنا: لماذا يتجاوز البعض أحيانا - مع إخلاصه - لماذا يتجاوز حدَّه المرسوم! لماذا لا يعطى بعضنا بعضا حق التعبير عن وجهة نظره؟

قد يحاول الداعية أحيانا أن يحتكر الحقيقة لنفسه.. فيعطى نفسه حق التعبير عن وجهات نظرهم..

لقد كان الشافعى رحمه الله من أسعد الناس.. لو ظهر الحق على يد محاوره.. لأن الحق هو الأمل الذى يريد.. وقد ظهر!

ولقد احتفظ موسى عليه السلام لفرعون بحقه فى القول اللين.. وفى أن يقول مايشاء.. وهو الدرس الذى نبه سلفنا الصالح إليه.

قال ابن كثير رحمه الله: [وهذه الآية فيها عبرة عظيمة: وهى أن فرعون فى غاية العتو، والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشى عند قوله ﴿فقولا له قولا لينا﴾ يامن يتحبب إلى من يعاديه .. فكيف بمن يتولاه ويناديه..

وكما قال القرطبى: [فإذا كان موسى أُمر بأن يقول لفرعون قولا لينا فمن دونه أحرى بأن يقتدى بذلك فى خطابه وأمره بالمعروف فى كلامه].

وهذا هو الحق الذى ينبغى أن يصار إليه.. قبل أن يئول الأمر إلى ما قاله الشاعر:

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل عش

من آثار اللين

يقول الشيخ محمد أبو زهرة، منوها بما يحققه التسامح من إيمان الأتباع: «هذا كتاب رسول اللهﷺ، وأثره... وإذا لم يؤثر فى كسرى إلا سلبا، فقد أثر فى غيره إيجابا، واستجابة:

لقد أثر فى نائبه فى اليمن، فأسلم وهو فارسى، وأسلم من معه من الأبناء من فارس، وهم باليمن... ولم يكن كتاب رسول اللهﷺ صرخة فى واد.

وإذا كان العدد قليلا فإنه سيكون كثيرا فى اليمن، وما وراءها، وقد كان).

ومن آثار اللين ماروى: طلب نصارى تغلب أن تؤخذ منهم «صدقة» مضاعفة.. لو أخذت تحت عنوان «الصدقة» لا تحت عنوان «الجزية».

وقيل لعمر فى ذلك: إن القوم لهم بأس شديد... وهم عرب يأنفون من الجزية... وإذن.. فلا تعن عدوك عليهم..

وقد مثل عمر أولا وجهة النظر المتشددة الملتزمة بالنص القرآنى.. ثم عاد ووافق أخيراً جلباً للمصلحة ودرءاً للمفسدة.

وروى عنه قوله: هؤلاء حمقى: رضوا بالمعنى وكرهوا الإسم!

فانظر كيف حلت الكلمة اللينة مكان الكلمة الصلبة فحلت العقدة![1].

بل قد يغير العالم فتواه المقررة سلفا.. منطلقاً من واقع مدروس مستهدفا حقن دماء المسلمين:

جاء رجل إلى ابن عباس فقال: ألمن قتل مؤمناً توبة؟ قال.. لا.. إلى النار! فلما ذهب قال له جلساؤه: ماهكذا كنت تفتينا.

قال: إنى أحسبه مغضباً يريد أن يقتل مؤمناً... فبعثوا فى إثره رجلا فوجدوه كذلك.

فالداعية هنا ذكى.. نافذ البصيرة.. فقه روح النص.. ولم يكن منه فى

(١) خاتم النبيين حـ ٢/ ٩٧٧.

سجن ضيق. ولئن كانت فتواه قاسية.. لكنها القسوة المانعة من جريمة تسيل بها دماء الأبرياء.. إنها القسوة التي يزدجر بها الإنسان فلا يعصى..

وتأمل أدب التلاميذ الذين لم يحرجوه أمام السائل... لكنهم تساءلوا بعد رحيله فى أدب.،

ثم أرادوا توثيق القضية فألفوها كما فهمها ابن عباس رضى الله عنه.. لما أرسلوا واردهم ليعلم حقيقة الرجل.

وهكذا تفعل الكلمة الطيبة فعلها. حين تخرج من قلب مؤمن راغب في الإصلاح.

ونذكر هنا موقف أحد شيوخ المالكية الذى اقتنى فى بيته كلبا... فلما عوتب فى ذلك لأن الإمام مالكا كره ذلك قال: لو كان الإمام حياً لما وسعه إلا أن يقتنى أسداً ضارياً!!

[إلى كتاب الله]

ويحسن بنا أن نحيل القضية برمتها إلى ابن كثير رضى الله عنه ليحكم فيها بما يشفى الغليل.

يقول ابن كثير فى تفسيره لسورة المائدة:

وقوله **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** وقال البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردى، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصرى، وغيرهم نزلت فى أهل الكتاب ـ زاد الحسن البصرى: وهى علينا واجبة.

وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثورى، عن منصور، عن إبراهيم قال: نزلت هذه الآيات فى بنى إسرائيل، ورضى الله لهذه الأمة بها، رواه ابن جرير[1].

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا عبد الملك بن أبى سليمان، عن سلمة بن كهيل، عن علقمة ومسروق: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة، فقال: من السحت، قال فقالا: وفى الحكم؟ قال: ذلك الكفر، ثم تلا: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**[2].

وقال السدى: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**.

يقول: ومن لم يحكم بما أنزلت، فتركه عمداً، أو جار وهو يعلم، فهو من الكافرين[3].

وقال على بن طلحة، عن ابن عباس، قوله: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**، وقال (من جحد ما أنزل الله، فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم، فهو ظالم فاسق) رواه ابن جرير[4].

ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل فى الكتاب[5].

---

(١) تفسير الطبرى، الأثر ١٢٠٥٧: ١٠/ ٣٥٦.

(٢) المصدو السابق، الأثر ١١٠٦١: ١٠/ ٣٥.

(٣) المصدر السابق، الأثر ١٢٠٦٢: ١٠/ ٣٥.

(٤) المصدر السابق، الأثر ١٢٠٦٣: ١٠/ ٣٥.

(٥) المصدر السابق: ١٠/ ١٨٥.

وقال عبد الرزاق، عن الثورى، عن زكريا، عن الشعبى: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله**﴾ قال للمسلمين[1]، وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى حدثنا عبدالصمد، حدثنا شعبة، عن ابن أبى السفر، عن الشعبى: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾، قال هذا فى المسلمين، ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾، قال: هذا فى اليهود ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾، قال: هذا فى النصارى[2].

وكذا رواه هشيم والثورى، عن زكريا بن أبى زائدة، عن الشعبى.

وقال عبد الرزاق أيضا: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿**ومن لم يحكم**﴾.. الآية، قال: هى به كفر - قال ابن طاوس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله[3].

وقال الثورى، عن ابن جرير، عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، رواه ابن جرير[4].

وقال وكيع: عن سفيان عن سعيد المكى، عن طاوس:

﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾، قال: ليس بكفر ينقل عن الملة[5].

وقال ابن أبى حاتم، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري، حدثنا سفيان ابن أبى عيينة، عن هشام بن حجير، عن طاوس، عن ابن عباس فى قوله:

﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ قال: ليس بالكفر الذى يذهبون إليه. ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث سفيان بن عيينة، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[6].

---

(١) ينظر تفسير الطبرى، الأثر ١٢٠٤٥ - ٢٥٥١٠.

(٢) تفسير الطبرى، الأثر ١٢٠٤٢: ١٠/٣٥٤ ولم يرد فيه تفسير الشعبى للآية التى فى حق اليهود.

(٣) المصدر السابق، الأثر ١٢٠٥٥: ١٠/٣٥٦.

(٤) المصدر السابق، الأثر ١٢٠٥٤: ١٠/٣٥٥.

(٥) عن تفسير الطبرى، الأثر ١٢٠٥٢: ١٠/٣٥٥.

(٦) المستدرك، تفسير سورة المائدة: ٢/٣١٣.

زهور وأشواك

في حقل الدعوة:

إن للزهرة أوراقا معطرة. . وأشواكا جارحة. . والذى أفهمه أن يظل الداعية زهرة تنشر أريج الود فيمن حولها، وفي الوقت المناسب. . وتحت وطأة الضرورة[٢] القصوى يحق لها أن تشرع شوكها فى محاولة للدفاع عن النفس ينكمش بها الخصم. . ويجنح للسلم رغباً أم رهباً. . حقناً للدماء. . دماء الطرفين معاً.

ولكن بعض الناس لا يستعملون إلا الشوك. . ويتناسون مافي دعوتهم من المودة والشفقة على عباد الله جميعاً. . فلا يريحون. . ولا يستريحون!. . وقد نتج عن ذلك أمور ينبغى إعادة النظر إليها بعين باصرة احتراما للدعوة ذاتها. .

ولكن التجربة الإنسانية تقول: إن توجيه التهم جزافا. . ودمغ الناس بالعدوان دليل على ثقافة ضحلة، وأفق ضيق. لا يعينان على فهم أرحب. . ومن ثم يكون الهجوم ويكون اللعن. . ولو أنهم فقهوا ما آتاهم الله ورسوله وأحاطوا علماً بوجهة النظر الأخرى لجاءت النتائج على ماتهوى النفوس المؤمنة.

تجربتان:

يحكى الدكتور محمد الأحمدى أبو النور واحدة من تجاربه فى مجال الدعوة فيقول:

كنت بعاصمة إحدى الدول الشقيقة منذ بضع سنوات، وفى أحد أيام الجمعة، وبعد أن اعتلى الخطيب المنبر، ومضى فى خطبته رويداً رويداً. . . رأى أحد المصلين يدخل المسجد ويأخذ فى صلاة ركعتين تحية المسجد، ولم يرق للخطيب هذا الأمر. . لم يشأ أن يرجئ تصويب ما رآه خطأ، ولم يختر أن يكون هادئاً فى توجيهه بل انثالت كلماته فى شدة، وانساب هجومه فى قسوة على أولئك الذين لا يبالون بالإنصات للخطبة، وأولئك الذين يشغلون أنفسهم عن الواجب وهو سماع خطبة الجمعة، بالنفل، وهو تحية المسجد.

---

(١) فصل العلماء الأوائل حدود هذه الضرورة بلا لبس أو غموض فارجع إليها فى المطولات.

وانقسم المصلون بعد الصلاة إلى قسمين: قسم يذهب مذهب الخطيب فيؤيده فى تحريم الكلام وقت الخطبة، وفى إيجاب الإنصات للخطيب، وهذا ما درسوه فى الفقه المالكى، وعامة أهل هذه العاصمة مالكيون المذهب، والخطيب بدوره مالكي فهو يشدد هجومه على أساس مادرسه كذلك. .

أما القسم الآخر من المصلين فلم يرتض ما ذهب إليه الخطيب على أساس أن تحية المسجد حيث تكون ركعتين خفيفتين فلن يذهب بهما من الخطبة كثير، وعلى أساس ماعرفوه من مذهب الشافعى أنه لا يحرم الصلاة وقت خطبة الخطيب لمن دخل المسجد حينئذ قبل أن يجلس.

واحتكموا إلىّ وكنت وقت الخطبة غير مرتض لمسلك الخطيب، ولم أشأ أن أجيبهم من الذاكرة، وإنما عدت بهم إلى صحيح مسلم بشرح النووى وهو الذى سبق أن درسناه كله فى كلية أصول الدين، وفى كتاب الجمعة: باب تحية المسجد والإمام يخطب، قرأنا حديث الليث عن أبى الزبير، عن جابر أنه قال: جاء سليك الغطفانى يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر، فقعد سليك قبل أن يصلى فقال له النبى ﷺ: **«أركعت ركعتين؟»** قال: لا، قال **«قم فاركعهما»**.

ومضينا نقرأ الروايات التالية فى صحيح مسلم وفيها: فقال له رسول الله ﷺ: **«قم فاركع ركعتين وتجوز فيهما»** يعنى تخفف لا تطل واقتصر على الفرائض - ثم قال: ﷺ: **«إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما»**.

ثم أخذنا نقرأ شرح هذه الروايات فإذا النووى يقول: هذه الأحاديث كلها صريحة فى الدلالة لمذهب الشافعى وأحمد وإسحاق وفقهاء المحدثين: أنه إذا دخل المصلى الجامع يوم الجمعة والإمام يخطب استحب له أن يصلى ركعتين تحية المسجد ويكره الجلوس قبل أن يصليهما وأنه يستحب أن يتجوز فيهما ليسمع بعدهما الخطبة.

وحكى هذا المذهب أيضا عن الحسن البصرى وغيره من المتقدمين، قال القاضى «عياض» وقال مالك والليث وأبو حنيفة والثورى وجمهور السلف من الصحابة والتابعين: لا يصليهما، وهو مروى عن عمر وعثمان وعلى ﷺ،

وحجتهم الأمر بالإنصات للإمام، وتأولوا هذه الأحاديث أنه كان عريانا فأمره النبى بالقيام ليراه الناس ويتصدقوا عليه قال النووى: وهذا تأويل باطل يرده صريح قوله ﷺ: «**إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما**».

ولقد راعنا بعدئذ قول النووى: وهذا نص لا يتطرق إليه التأويل ولا أظن عالما يبلغه هذا اللفظ صحيحا فيخالفه.

ثم قال النووى: والمستنبط من هذه الأحاديث أن تحية المسجد لا تترك فى أوقات النهى عن الصلاة وأنها ذات سبب تباح فى كل وقت، لأنها سقطت فى حال لكان هذا الحال أولى بها فإنه مأمور باستماع الخطبة، فلما ترك استماع الخطبة وقطع النبىﷺ لها الخطبة وأمره بها بعد أن قعد وكان هذا الجالس جاهلا حكمها دل على تأكدها وأنها لا تترك بحال ولافى وقت من الأوقات والله أعلم.

وما أن انتهت قراءتى مع الإخوة المتحاكمين إلى هذا الحد حتى قرت نفوسهم واطمأنوا طمأنينة بالغة وأثنوا بكل خير على أعلام المحدثين وشراح الحديث الذين أخلصوا دينهم لله، وغاصوا فى بحار العلم فكفوا وشفوا .

وأدركت فلسفة اشتراط العلم فى الربانيين من الدعاة وقلت: لو أن الدعاة لم يقفوا عند حدود ماسبق أن درسوه فى الفقه المذهبى وأشرفوا على منابع المذاهب المختلفة لاسيما وطبيعة علمهم ستفرض عليهم أن يخطبوا فى ألوان عديدة من الناس منهم المالكى والشافعى والحنفى والحنبلى والشيعى والظاهرى ماذا لوفعل الدعاة ذلك ألا يزداد احترام الناس لهم، ألا يشتد إقبال الناس عليهم؟

إن هناك تحديا للداعية والخطيب:

* أن لا يكون أدنى علما ممن يخطب فيهم.
* وأن يحسن عرض مايعرفون.
* وأن لا يحمل غيره على ما يذهب هو إليه.

فقد تكون حجة المخالف أقوى وفوق كل ذى عليم.

[موكب الموت]:

ومن تجاربى أيضاً:

أ ـ كانت الجنازة ماضية عبر القبور. . ورأى بعض العوام أن يردد كلمة التوحيد من خلف الجنازة. . وانبرى الشاب المتحمس منكراً. . .

وقلت: دع الأمور تجرى فى أعنتها الآن. . وغداً وفى خطبة الجمعة سوف أعالج الموضوع على مسمع من أهل القرية جميعاً. . وفى أول تجمع قادم أيضا سوف نبين الصمت المسنون فى مثل هذا الموطن.

لكن الشاب المتحمس فجر الموقف. . وربط على فم قائد المجموعة الموحدة بيده بشدة. . هكذا والروح ماضية إلى ربها. . ولم يمنعه جلال الموقف من التريث الذى اقترحته. .

.. ثم ولدت القضية قضية أخرى: هى الأفضل أن يسير المشيعون خلف الميت. . أم قدامه.

واختلط الحابل بالنابل. . وضاعت فرصة الاعتبار والتأثير من يد الدعاة المتسرعين.

وأخذ خفاف الأحلام من المستهترين الساخرين بزمام المبادرة وكأنى بقائلهم ينطق هازلا: كن أمام الجنازة. أم خلفها. . المهم ألا تكون فى النعش!!

وما أكثر ما تضيع الثقافة الضحلة فى فرص ذهبية لا نقول فقط إنها تفلت من أيدى الدعاة. . لكن المهم هنا أن الساخرين ينتهزونها فرصة للطعن والتعريض على نحو يترك آثاره ولا شك على مسار العمل الإسلامى. .

ب ـ من هو الطاغوت؟

رفض التجمع الإسلامى فى إحدى الكليات دعوة عالم أزهرى[1]، ليتحدث فى مناسبة دينية. . واستقدم عالماً فاضلا من مكان بعيد. . وكان العالم الضيف مركزا على اصطلاح «الجاهلية» الذى كان يجرى على لسانه واصماً به مجتمعنا[2].

(١) قد يكون هذا العالم أنا وأنت أيضا. . لأن المقياس واحد: من لم يكن معنا فهو علينا!

(٢) لا نوافق المحاضر على إطلاق هذه الكلمة كما لا نوافق الأستاذ/ محمد الراشد الذى استنبط من قول الرسول ﷺ لأبي ذر: «إنك امرؤ فيك جاهلية» مدعياً أن كل عاص على شعبة من شعب الجاهلية لأن=

لكن.. لماذا لم يدع العالم الأزهرى للكلام من قوم يحبونهم ويحبونه؟!

الجواب: لأنه يتعامل مع المسئولين؟! يتعامل مع المسئولين معاملة مترجمة كما يشاهدون إلى خدمات يدعو إليها الإسلام:

إنقاذ مريض.. إعانة محتاج.. نصرة ضعيف.. إرشاد ضال..

وانتهزها العالم الأزهرى فرصة ووقف بعد الحفل مع أعزائه.. من الخصوم الشرفاء فلفت نظرهم عاتباً إلى أخطاء لغوية.. وإملائية.. ودينية فى النشيد الذى حرصوا على إلقائه جماعة.

ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ووسعوا دائرة اعتمادهم ـ بعد الله ـ على أهل الذكر لو فروا على أنفسهم التورط فى هذا الخطأ.. ودار الجدل حول المقصود «بالطاغوت» فى النشيد المرتل:

وعدت إلى واحد من العلماء الذين يتناولون القضايا فى صرامة لا تجامل فى الحق.. ليحكم بيننا فى هذه القضية.. فوضع للطاغوت علامات تفرض على المتشدقين بهذا الاصطلاح أن يتريثوا فى الحكم على الآخرين:

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

وقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ

= موقف أبى ذر بالذات كان مثيراً لنعرة جاهلية حاربها الإسلام فهو أليق بهذا الوصف وفرق بين هذا الموقف وما يكون من المسلم الأواب إلى ربه نادما والذى يغلبه هواه حيناً، وهو المقصود بقول ابن عطاء السكندرى: إن أنين المذنبين أحب إلى الله من أجل المسبحين ولا يمكن أن نسمى هذا جاهلية.

وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

ثم ينبه ابن تيمية. بعد سرده هذه الآيات. [إلى أن الله تعالى خلالها قد: ذم الذين أتوا قسطا من الكتاب لما آمنوا بما خرج عن الرسالة وفضلوا الخارجين على الرسالة على المؤمنين بها، كما يفضل ذلك بعض من يفضل الصائبة من الفلاسفة والدول الجاهلية ـ جاهلية الترك والديلم والعرب والفرس وغيرهم ـ على المؤمنين بالله وكتابه ورسوله، كما ذم المدعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله، كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعى الإسلام وينتحله فى تحاكمهم إلى مقالات الصائبة الفلاسفة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعه الإسلام من ملوك الترك وغيرهم، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضا][1].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/٣٣٩.

أهمية الحذر في مواجهة الجبارين

يقول الله تعالى: ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى﴾.

لابد من الحذر فى مواجهة الخطر.. وكلما كان الخطر أكبر كانت نسبة الحذر أكثر. وأى خطر أعظم من فرعون الذى طغى.. فتحول الهوى عنده هوانا صيره مثل شجرة ملقاة على الأرض: فرأسه فى مستوى قدميه.. وعقله فى مستوى معدته.. وكيانه كله فى خدمة الشيطان..

وإذن.. فالحذر أى الخوف وارد فى قاموس الدعوة وعندما لا تتكافأ القوى بين الداعية والمدعو يكون شيئا طبعيا. ولا تثريب عليه.

وكيف تطلب من عصفور ألا يرفرف؟ ومن بحر ألا يموج .. ومن عاصفة ألا تهب.. هكذا تقول الطبيعة.. وهكذا أيضا تحدث حقائق الشريعة التى تسمح بالخوف... أحيانا.. وبقدر معلوم..

فما هو الحذر المقبول.. وما حدوده؟

جاء فى لسان العرب: (الحذر: تيقظ وتحرز.. فهو تأهب لكل ما يتمخض عنه الغد من مفاجآت. حتى إذا دهمت الداعية الدواهى كان له من سابق التقدير والتوقع والاحتياط مايمنع حدوثها بالمرة. أو ما يقلل من نتائجها.. على الأقل.

ومن التفريط فى أمر الدعوة أن نتجاهل الواقع متواكلين.. والمفروض علينا أن نعقلها.. ثم نمضى على الدرب متوكلين.. والفرق واضح بين الموقفين.. فالخوف من الأعداء سنة من سنن الله تعالى فى أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم بالله وثقتهم به سبحانه والبالغة حد اليقين.

يقول العلماء:

[ومن تعريف الحذر لغة يتبين لنا أنه يقوم على أساس المعرفة وأخذ الحِيَطة.

فالحذر يعرف مدى ضرر المكروه المتوقع حصوله.. فيخاف من وقوعه خوفا

يدفعه إلى أخذ الحيطة والتحرز ومباشرة الأسباب، لمنع وقوعه أو لدفعه إذا وقع... فهو خوف ليس مشوبا باستسلام وقعود وانخلاع فؤاد واضطراب الفكر وتشوش البال واليأس من الخلاص والاستسلام له قبل الوقوع.

ولهذا .. فالحذر بالمعنى الذى بيناه محمود غير مذموم وهو من صفات أهل الإيمان والعقل السليم، والفهم الدقيق لسنن الله تعالى فى الكون، لا من صفات أهل الطيش والحماقة وقصر النظر.

وهؤلاء لا يعرفون الحذر ولا تتسع له عقولهم لأنهم لا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم.. ولا يحسون بالمكروه المتوقع الحصول إلا إذا وقع فعلا[1].

لقد تربى موسى عليه السلام فى قصر فرعون ورأى بعينه من صور العذاب ما يجعل الولدان شيبا كما أسلفنا.

ومن ثم.. وقبل أن يبدأ الخطوة الأولى يعلم الدعاة درسا فى الحذر:

لقد درس الساحة التى سيتم عليها الحوار. .. ثم قدر إمكاناته مضافة إلى إمكانات عدوه فوقعت منه البصيرة على حجم الخطر.. ونوعية العذاب.. أو القتل.. فجاء خوفه .. أى حذره نتيجة طبعية لبعد المسافة بين الجهتين:

فهو وأخوه هارون.. فى جانب.. والدولة كلها فى جانب..

ومن حول فرعون أعوان سوء: يميلون مع هواه.. ولا يواجهونه إلا بالرأى يوافق مزاجه.. وهم بين:

كذاب يقرب له البعيد.. ويبعد القريب.. أو ماجن يزين له سوء عمله.. أو أحمق يضره حيث يريد نفعه..

ومن وراء ذلك الهوس كله عدة وعتادا..

بينما موسى وأخوه هارون عليهما السلام.. يحاولون اختراق هذه الأسوار فى محاولة يتغلب فيها العقل على الطبع والرأى على الهوى ويؤثر مايشير إليه الرأى على مايصبو إليه الهوى وإذن.. فلا بد من الصدام وقبل ذلك لا بأس بل لابد من

---

(١) أصول الدعوة للزنكلونى ٣٠/ ٤٣١.

الحذر. . وصحيح أن فرعون ـ مع جبروته ـ إزاء الحق على لسان موسى هو ذلك الأحمق الذى يضرب الهواء الطلق بسيف صدئ. . ولكن. . لابد من الحذر مع إيماننا ابتداء بانتهاء المعركة لصالحنا. . فى صحبة يقين واثق بنصر الله والفتح. . وأن فرعون مهما كان عاليا من المسرفين. . ومهما كان طوفان الكلمات المسمومة التى يلاحق بها الدعاة. . فإن طوفان الظلمات لن يجرف سناء الكلمات الباقيات.

[من صور الحذر]:

ولقد كان الحذر المحكوم بالثقة بالله تعالى مما تواصى به سلفنا الصالح. . على ما كان منهم أحيانا من الأخذ بعزائم الأمور:

حكى القرطبى عن عامر بن عبد الله:

أنه نزل مع أصحابه فى طريق الشام على ماء. . . فحال الأسد بينهم وبين الماء فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته فقيل له:

لقد خاطرت بنفسك فقال: لأنْ تختلف الأسنة فى جوفى أحب إلىّ من أن يعلم الله أنى أخاف شيئا سواه فلما بلغ الحسن البصرى ذلك قال: قد خاف من كان خيرا من عامر: موسى عليه السلام حين قيل له ﴿**إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين. فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين**﴾. وقال: ﴿**فأصبح فى المدينة خائفا يترقب**﴾ وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم: ﴿**فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى**﴾.

فأنت ترى «عامرا» يغامر بنفسه فى محاولة من دونها الموت الزؤام. . . متخذا هذا الموقف استجابة لعقيدته التى تفرض عليه ألا يخاف من شىء سوى الله تعالى.

ولكن الحسن البصرى رحمه الله ـ تجاوبا منه مع طبيعة البشر ـ يجيز الخوف أحيانا. . وفى مواجهة الخطر الداهم. . ثم ضرب موسى عليه السلام مثلا.

والذى سجلت هذه الآيات الكريمة خوفه. . فى مواطن تزل فيها الأقدام. . . ويكون الخوف فيها استجابة لطبيعة الإنسان كبشر. . تعتريه مختلف العواطف

والمشاعر المنبثقة عن غريزة حب الذات والحرص عليها.

وموقف الحسن البصرى مؤسس إذن على ثوابت من القرآن الكريم والسنة المطهرة والتى بدا فيها الحذر ضروريا.. ضمانا للسلامة.. وأمانا من ـ رود الفعل المفاجئة.. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1].

ويقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[2].

وفى السنة المطهرة شواهد وفيرة منها ماذكره القرطبى.

[حفر النبى ﷺ الخندق حول المدينة تحصينا للمسلمين وأموالهم مع أنه من التوكل على الله تعالى فى الرتبة الأعلى... ثم كان من أصحابه مالا يجهله أحد: من تحولهم عن منازلهم: مرة إلى الحبشة... ومرة إلى المدينة تخوفا على أنفسهم من مشركى مكة... وهربا بدينهم من أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم.

وقد قالت أسماء بنت عيسى لعمر رضى الله عنه لما قال لها: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم.. قالت له : كلا.. والله كنتم مع رسول الله ﷺ، يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم... وكنا فى دار أو أرض البعداء ـ أى فى النسب في الحبشة... وذلك فى الله ورسوله وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ماقلت لرسول الله ﷺ ونحن كنا نؤذى ونخاف.

قال العلماء: المخبر عن نفسه بخلاف ماطبع الله فى نفوس بنى آدم: كاذب.

وقد طبعهم على الهرب مما يضرها ويؤلمها، أو يتلفها قالوا: ولا ضار أضر من سبع عادٍ فى فلاة من الأرض على من لا آلة معه يدفعه بها عن نفسه؛ من سيف أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك].

ومن تأمل حادث الهجرة بكل ظروفه وملابساته يقف على كثير من صور الحذر كى تتم الخطة بنجاح..

---

(1) النساء: ٧١.

(2) النساء: ١٠٢.

وليس هناك على ظهر الأرض من هو أوثق صلة بنصر الله والفتح من رسول الله ﷺ. . ومع ذلك فقد كان حذرا. ولم يقدح ذلك فى إيمانه بخالقه سبحانه.

وهكذا يجب أن يكون الدعاة: قد تفرض عليهم ظروف الدعوة لونا من الحذر. . فليأخذوا للأمر عدته: فإن وقع المحذور. . كانوا له. . وإلا. فلن يخسروا بالاحتياط شيئا.

وعندما يتخذ الداعية احتياطات الأمن فى مواجهة فرعون. . باذلا أقصى جهده. . فإن مهمته حينئذ تنتهى. . ليقول الحق تعالى كلمته. . فيتوج بالنصر هامات المؤمنين. هذا النصر الذى مهد له الدعاة. . بالعمل. . والتبصر فضحكوا به أخيرا. . ضحكوا به من أناس،. . ضحكوا أوّلا قليلا. . ثم هاهم أولاء يبكون اليوم كثيرا. .

[معية الله]

يقول الله تعالى:

﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى﴾.

كان لموسى وهارون عليهما السلام ما يسوغ خوفهما من فرعون وملئه:

فقد كان فرعون على غاية ماتكون العنجهية والاستكبار فى الأرض: باستمراء الحياة فى بحبوحة النعيم. وطول الأمل.. وما يترتب على ذلك من تنامى مشاعر الخيلاء والزهو.. إلى جانب أن موسى وأخاه كانا من طبقة الأتباع.. كل أولئك يشكل عقبات على طريق الدعاة.. ولا يمكن لطاغية مثل فرعون أن يرضخ.. وبسهولة. لرجلين كانا بالأمس القريب من جملة أتباعه.. ليكون لهما اليوم تابعا.

ولاشك أن مجرد دعوة فرعون وملئه حينئذ.. ستضيف إلى الظلم الصامت وهو امتهان الدعوة والداعية. ستضيف إليه: الظلم المتحرك وهو: البطش بهما معا.

من أجل ذلك كان للحذر ما يسوغه أمام طاغية لا يستمد وجوده من أفعاله بل من خياله؛ إنه مقتنع تماما أنه فوق الناس جميعا.. لا لأنه كذلك.. بل لطول ما سمع من صور المديح والإطراء الذاهب بالمغرور إلى حتفه.. وكلما زادت موجات الثناء كلما ازداد بغيا وعدوا، إلى جانب أنه لايطيق كلمة نقد واحدة.. حتى ولو كانت هادفة.. لأنها تجرحه.. وصار أمره على ما يقول الشاعر:

ونرعى حمى الأقوام غير محرم   علينا.. ولا يُرعى حمانا الذى نحمى!

ولك أن تتصور هوان أمة تمارس حياتها فى ظل هذا الفرعون.. وتحت هذا الشعار الأنانى.. وإنها لهوّة من الصغار تتدنى فيها الأمة.. فتتسع المسافات بينها وبين فرعون.. حتى يصير الأمر فى النهاية على مايقول الشاعر أيضا:

ولا يليق بمن يرنو لمن حكمو.. أن ينسج الحمد.. قبل الإذن بالحمد.

ولكن.. إذا كان الأمر الواقع هكذا.. فلا يجمل بالداعية أن يرضخ له مستسلما.. وعليه أن يتقدم ليقول كلمته.. بعد أن يتخلص من الخوف.. حتى لا

يمنعه من أن يقول كلمته.. ثم يمضى.. وعليه أن يسأل نفسه فاتحا بصره وبصيرته معا على سنة الله تعالى فى الدعوات: من.. يخاف ممّن؟

لا ينبغى للداعية المؤمن أن يخاف من الكافر الفاجر.. وإذا كان ولابد من خائف هنا: فهو فرعون الذى جرده الطغيان من الإحساس بالأمن.. وخلا كيانه من عناصره.

أما أنت فمؤمن: قلبك بالإيمان أرض خصيبة.. ومغرسٌ تنمو فيه قيم الدعوة فتسمق لها فروع.. وتزكو ثمار.. فمن أين تهب عليه رياح الخوف.. فى الوقت الذى يعمره الذكر.. فتغمره الطمأنينة.

والمواجهة الحكيمة بلا خوف هى شكر لنعمة الدعوة عليك: شكر نعمة اختصاصك بها.. ثم شكر التوفيق إلى حسن استخدامها.. والانتفاع بآثارها.

ونلفت النظر هنا إلى أننا نتحدث عن داعية مؤمن.. يواجه كافرا.. وليت شعرى كم تكون مساحة الود واسعة.. لو كان الحوار بين مؤمن ومؤمن..

المهم.. أن يعلم موسى وهارون عليهما السلام أن فرعون قد غره أنه يجلس على كرسى ثابت..

ولكنه إنما يمتطى من الليل والنهار ركوبا.. فمهما ثبت فهما يتحركان به وإن كان واقفا.. وهما مسافران به عبر المستقبل وإن كان مقيما! ومهما طال الشتاء.. وصال فيه الرعد وجال.. فلابد فى النهاية أن يوافى الربيع الطلق يختال ضاحكا..

والنتيجه: من يخاف؟؟ أى الفريقين أحق بالأمن؟؟ والأمر على ماذكرته الآيات الكريمة من قصة إبراهيم عليه السلام مقرَّرة سنة من سنن الدعوات لاتتخلف:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ

الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢].

وإذ يبدو فرعون فى نظر نفسه والدهماء من حوله.. عزيزا قويا.. فأين عزته.. وقوته إلى جانب جبار السموات الأرض؟

وإذ يتحكم فى رقعة من الأرض.. فأين هذه الرقعة من ملكوت السموات والأرض.

إنه واهم يعيش الأمانى.. والأمانى: سم قاتل.. حين يضحى صاحبها بكل ما يشتهى العاقل فى سبيل أمل واحد يشتهيه.. ثم يرديه.

وصحيح أن فرعون وجنده يبدون فى نظر الداعية فيما يشبه المظاهرة الإعلامية التى تسحر العيون.. وتسترهب النفوس..

ولكن العسر أبدا.. معه اليسر. بل معه يسران.. ولن يغلب عسر يسرين..

ولقد كان يوسف عليه السلام فى الجب.. فى موقف لا يحسد عليه يواجه فيه موتا بدت نذره: عن طريق حشرة.. أو صخرة.. أو جوع... أو عطش..

ولكن اليقين الذى تحدر إليه من آبائه الأنبياء يبقى فى معمعة الخطر.. ثم يستنزل به نصر الله والفتح بهذه البشارة الحانية:

﴿وأوحينا إليه لتنبئنكم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ وبينما الأخوة المعتدون يعودون إلى أبيهم.. بقلوب واجفة.. وأفواه ناشفة من الخوف.. فإن يوسف الصدّيق دونهم.. مع أنه فى غيابات الجب فهو من يقينه وأنسه فى بستان مثمر وريق.. وهو المعنى الذى يجليه لنا قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى﴾.

وتعنى هذه المعية أمورا يجب ألا ينساها الدعاة بحال:

أولا:الثقة الكاملة بنصر الله والفتح. فالداعية من هذه الحماية فى الموقع المكين: الحصن الذى لا يرام. والركن الذى لا يضام. والعين التى لا تنام. إنه تعالى يسمع مواء هرة عذبتها امرأة فانتقم لها. ويرى عذاب كلب عطشان صديان.. سقاه رجل فأدخله الجنة فكيف بك مع فرعون.. أسمع به وأبصره.

ثانيا: أن هذا الضمان معناه: حمايتهما من بطش فرعون.. أما حمايتهما من

تكذيبه ورده الدعوة.. فليس واردا.. فلابد أن يخوضا المعركة.. وأن يدفعا زكاتها صبرا وتحملا.. بعد أن ضمن الله لهما البقاء.. فرد عنهما كيد فرعون.. وتلك سنة من سننه سبحانه فى الدعوات.. ليوطن الدعاة أنفسهم على التزود لشقة بعيدة.. ورحلة طويلة..

وصحيح أن لدى فرعون من فنون البطش وألاعيب الكيد ما يسكت به صوت الحق.. إلا أن ذلك إلى حين.. وسوف ينتصر الحق فى نهاية المطاف.. ولابد للوصول إلى هذا النصر من تضحيات.. يمضى بها الدعاة على جسر من المتاعب.. ليجىء النصر أخيرا حلو المذاق.

وثالثا: مادام الحق تعالى مع الداعية: يسمع ما يقول.. ويقول أعداؤه.. ويرى ما يصنع.. وما يصنعون. فعلى الداعية أن يبذل مافى طاقته والنتيجة بعد ذلك على الله تعالى..

وذلك معنى جدير بالاعتبار:

فبعض الدعاة يحاولون مواجهة الباطل معتمدين على إمكاناتهم العقلية والنفسية.. ظانين ـ فى لحظة من لحظات الغفلة ـ أنهم قادرون على هزيمته بهذه الطاقات التى يملكون.. وقد لا تسعفهم إمكاناتهم لتحقيق الأمل الذى يرجون.. وسوف يكون رد الفعل مُرًّا فى إحساسهم.. وفرارا من هذه النهاية المؤلمة.. على الداعية ـ كما أشرنا ـ أن يظل ذاكرا ربه تعالى: الذى يسمع.. ويرى..

ومعنى ذلك: أن النتيجة على الله تعالى وحده.. ولا يظنن لحظة من زمان أنه يواجه الباطل بإمكاناته وحده.. وإلا وكله الله تعالى إليها.. وهيهات أن يصل إلى ما يريد ويريد منه الحق. فلنقل كلمتنا .. ثم نمضى.. مادامت العاقبة لنا..

وسوف تترك الكلمة الهادئة آثارها.. ولو على المدى البعيد.. فى نفوس: إن لم تؤمن.. فسوف يعقد الإحراج ألسنتها.. ويكفينا الإحراج مئونة التشويش!

وإذ يمكر الله تعالى بفرعون فهو خير الماكرين.. فلنكن على وعى بسنته تعالى فى المعاندين.. لنطامن مِنْ ألمنا أحيانا:

لقد أخذ تعالى عكرمة .. من أبى جهل.. ومن الوليد.. خالدا.. ومن عقبة بن أبى معيط ابنته أم كلثوم...

ووفق امرأة فرعون إلى الإيمان.. فكان إيمانها طعنة نجلاء لفرعون وجنوده.

أما بعد: فإن الداعية.. يريد.. ويحب:

يريد: أن يغمر الإسلامُ الدنيا فى طرفة عين... ويحب أن يرى الشرع الشريف منهج الناس.. كل الناس.. وهذا حقه.. ولكن.. من الذى تحقق له كل ما يريد.. ونال كل ما يحب؟

إننا مكلفون بتنفيذ مانؤمر به.. لا مانريده ولا ما نحبه.. وما نؤمر به هو: القول اللين.. وأن نواجه الباطل فى ثبات..

وفى بعض مراحل الطريق.. قد يفجؤنا الباطل بما لم يكن لنا فى حساب. ولا بأس .. فلنواصل المسير فى ظل الحكمة الهادية.. والكلمة البانية لننتصر عليه أخيرا ومهما أوضع الباطل خلالنا: إن الحجر الأصم إذا كسر كأسا من الذهب يوما فما نقصت قيمة الذهب.. ولا زادت قيمة الحجر !!

[التهديد من بعيد]!

يقول تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨].

عندما أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام بأن يقولا لفرعون قولا لينا.. تلطف بهما سبحانه وتعالى فحدد لهما معالم هذا القول بهاتين الآيتين الكريمتين..

وإن نظرة عامة إليهما لتنشئ فى حسنا كيف كان القول هينا لينا: فأنت ترى اللين ساريا فيه سريان الروح فى الجسم: فليس فيه كلمة نابية.. ولا جارحة..

وما الذى يُلجئ المحق إلى المخاشنة؟

إن مع موسى عليه السلام من أنس الحق.. وثقته بنصر الله ما يثبت قلبه.. فلا يضطرب .. وما يهدئ أعصابه فلا تنفلت .. وما يصون لسانه.. فلا يعبر إلا عن الحق فى ثباته وشموخه ونزاهته؟

ولعل فرعون حين يفتح عينيه ليرى هذا الثبات وهذا الشموخ .. من رجلين فقط يتحملان مسئولية البلاغ غير عابئين بالنتائج، لعله أن يراجع نفسه.. بعد أن يزلزل هذا الثبات الأرض من تحت قدميه!

إن للزهرة أوراقا معطرة.. ولها كذلك أشواكا جارحة.. والذى أفهمه أن يظل الداعية وردة: ناعمة الملمس.. جميله المنظر.. طيبة الرائحة.. ولا يستعمل الشوكة إلا عند الضرورة.. وعند مايُصبح استعمالها هو الحل الأخير..

على أن تظل شوكته هى الكلمة.. الكلمة التى قد يبثها نفحة من حرارته وغيرته.. فإن أثّرت.. فبها.. وإلا فقد انتهى دورنا.

[وظيفة الداعية]:

وقد تلخصت وظيفة الداعية هنا فى أمرين هما:

١ ـ دعوة فرعون إلى التوحيد.

٢ـ مايترتب على هذا التوحيد من فك الحصار عن بنى إسرائيل ليعبدوا الله تعالى

وحده.

ولكن مهمة الداعية لا تنحصر فى مجرد البلاغ.. وإنما إلى أى حد نساعد المدعو على أن يستجيب لنا طائعا؟ وهذا هو المعنى البارز من خلال هذه المنطق الحكيم: فموسى وأخوه.. لا يعبران عن وجهتى نظرهما.. وإنما يحملان أمانة التبلغ.. من قبل الله تعالى.

ولاحظ قولهما ﴿رَسُولا رَبِّكَ﴾.. ربك الذى تحس من آثار نعمته عليك. إيجاد وإبقاء... ما يحملك على أن تشكره وتذكر فضله ذكراً يحرك يدك بقرار العفو عن عياله.. بنى إسرائيل.... الذين لم تكتف بتعبيدهم لك.. وإنما عذبتهم ظلما وبغيا..

وإذا بَقيت لديك بقية من شك .. فها هى ذى آية من ربك تشهد لنا بالصدق فيما نقول..

من أساليب الدعوة:

ويبرز هنا عنصر الترغيب والترهيب.. على أعلى صور الدقة والإحكام ...

١ـ الترغيب يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾.

٢ـ والترهيب فيما يشى به قوله تعالى: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾.

وهى لفتة قرآنية حكيمة تعلم الدعاة كيف يخاطبون من المدعو أقطار نفسه كلها... يحاولون الدخول عليه من بوابة البشارة... وبوابة النذارة معا..

وإذا كان ولابد من البشارة والنذارة.. فلتكن البشارة براعة الاستهلال.. تغليبا لمعنى التفاؤل.. مهما كان المدعو.. عاليا من المسرفين..

أهمية الترغيب والترهيب:

والترغيب والترهيب إنما هو استجابة لقانون من قوانين النفس الإنسانية فالإنسان يحب ماينفعه.. ثم هو ـ وبنفس القوة ـ ينفر مما يضره.. والدعوة الناجحة هى التى تستثمر العاملين كليهما لمصلحة المدعو نفسه... وإذن فهو مظهر من مظاهر واقعية المنهج الإسلامى:

ففى النفس عوامل: عامل الخوف.. وهو سائق، وعامل الرجاء.. وهو حادٍ، وعامل الحب.. وهو قائد.

والداعية الموفق من استطاع استغلال هذه الدوافع جميعا فى مزيج متكامل. . أما التركيز على عامل. . وإهمال آخر. . أو العناية بعامل على حساب آخر. . فهو الخطأ الذى لاينبغى للمؤمن أن يقع فيه:

وكما يقول العلماء: من عبد الله تعالى بالحب وحده. . فهو زنديق. ومن عبده تعالى بالرجاء وحده. . فهو مرجئ. ومن عبده سبحانه بالخوف وحده. . فهو حرورى. . والموحد حقا. . من عبده سبحانه بهم جميعا. .

لقد خاف إبليس فى قوله تعالى: ﴿ إنى أخاف الله رب العالمين﴾ ولكنه الخوف وحده. . بلاحب. . وبلا رجاء. .

وأمَّل المرجئة. . ولكنه الرجاء اليتيم. . بلا خوف. . ولاحب!! وتبقى البشارة والنذارة معا ـ كما قيل بحق ـ مرفأ النجاة. . . إنهما معا: من ركائز الدعوة إلى الله تعالى. .

البشارة: تمثل الضوء الأخضر: وهو يعنى: التفاؤل. . والحياة. . والاستبشار.

والنذارة تعنى: الضوء الأحمر. . أى أن الخَطر قادم. . فاحذروه. . ولأنهما مصطلح قرآنى. . فإن ذلك من موجبات اتخاذهما أسلوباً لنا. . فى مواجهة العصاة. . . ويحملنا على ذلك أن الأعداء الماكرين حاولوا لإفادة من البشارة للتغرير بنا. . والكيد لنا: . . .

لقد فشل العدو فى هزيمتنا على أرض مكشوفة. . فقرر تحت وطأة الإحساس بمرارة الهزيمة. . قرر أن يستمر فى ممارسة خطاياه تحت ستار من معانى القرآن. . ومن ثم اخترع التبشير. . تمويها يضاهئون أصحاب مسجد الضرار من قبل. . قاتلهم الله. .

[الحكمة فى استعمال الأسلوب]:

وتفرض الحكمة أن نزاوج بين الترغيب والترهيب. . ذاكرين أهمية أن تكون النسب متوازنة:

فلا ينبغى أن نسرف فى البشارة. . إلى حد التدليل . . . فرارا من التسيب. .

ولايجمل بنا أن نبالغ فى الإنذار . تجنبا لليأس. . وإلا كنا ذلك الذى يضرب فى الفلاة بلا دليل. . فيخلط الممكن بالمستحيل. . وذلك درس من دروس الآيتين:

فموسى عليه السلام: ينشر بين يدى فرعون معنى السلام، وما يشيعه من وئام

.. لكنه لا يقول له: السلام عليك، وإنما: ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ كأنما يقول له : يمكنك أن تقف بنفسك فى مساقط هذا السلام لتنال من بركته . . . لو أردت. فالسلام . . حق . . لمن اهتدى. . فاتخذ إليه لو شئت سبيلا. .ولا يكون موسى لحظة الإنذار . . كأنه منذر جيش!

وإنما يقولها قضية عامة. . هذا هو السلام. . وأولئك هم الأحق به وأهله. .فإن قبلت . . فبها. . وإلا فاسمع نتيجة الإعراض:

لقد أوحى إلينا. . . وليس ذلك من عندنا. . وقد . . أوحى إلينا بالتأكيد . . فثق من صحة الدعوى. .

وما هو الذى أوحى إلينا؟؟

لم يقولا له: أن العذاب عليك. . ولم يقولا له: إن العذاب عليك أيها المكذب المتولى، مع أنه كذلك. . وإنما قالا: نحن نتحدث عن سنة عامة. . وأنت سيد مصيرك. . فخذ قرارك الحر. . فإما إلى جنة وإما إلى نار، ولا تلومن بعد ذلك إلا نفسك.

ولقد أرمق ساحة الدعوة أحيانا ـ فيسعدنى أن أرى شبابا نشأوا فى عبادة الله تعالى. . فهم فى ظل الله تعالى إن شاء سبحانه. .

ولكن الحماس المتوقد للدعوة قد يحملهم على التجاوز فى مخاطبة العصاه، فيهددون بالويل والثبور وعظائم الأمور. .

وفى محاولة العثور على تمام سعادتى أتقدم إلى أحدهم برفق. . لعلى أقيم من تجاربى سداً يضبط الطاقة قبل أن يجر فها التيار. . دفعة واحدة. . بينما هناك أرض بور تتعطش إليها. .وقد يستجيب الكثير. . فيحققون الخير الوفير. .وتبقى النصيحة المتجددة من حق هذا الذى جاء من أقصى القرية يسعى. . غاضباً عاتبا. . على الدنيا وماحدث فيها. . ولكن الخطب أحيانا يكون أهون مما يظنون. . ثم أجد نفسى أمام هذا الموظف بإحدى المؤسسات التجارية. . أجده فى شخص هذا الفتى. .لقد اشتكى إلى مدير الشركة أنه أمضى عشرين عاما فى عمله اكتسب خلالها علما وخبرة. . . ومع ذلك فقد تخطاه فى الترقية من هم أحدث منه عهدا. . فما كان جواب المدير إلا أن قال: الواقع أن لك خبرة عام واحد . . ولكنها تكررت عشرين مرة! وبهت الذى اشتكى!

حكم إلقاء السلام على الكافر

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه:

أن رجلا سأل النبى ﷺ: أى الإسلام خير؟

فقال: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»[1].

قال ابن وهب وابن عيينة ومحمد بن كعب: يجوز ابتداء السلام على أحد ولو كان كافرا. . وقد استدلوا على هذا بالآيات الكريمة: ﴿**وقولوا للناس حسنا**﴾. فالآية تأمرنا بأن نقول للناس جميعا ـ وليس للمسلمين فقط ـ من القول أحسنه. والسلام داخل فى هذا الأمر. لأنه قول حسن.

وقوله: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ** . . .﴾ [الممتحنة: ٨].

ومن صور البر أن نسلم عليهم. . ونتلطف معهم لا تزلفا. . ولكن تألفا وقوله حكاية عن إبراهيم لأبيه: ﴿**قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ**﴾. وقوله: ﴿**فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ**﴾ [الزخرف: ٨٩].

وجمهور الأئمة على أنه لا يبتدأ الكافر بالسلام. . ولا العاصى. . تأديبا له حتى تظهر توبته.

والأصل فى ترك السلام على المؤمن الذى اقترف ذنبا ماصنعه النبى ﷺ بكعب بن مالك وصاحبيه حين تخلفوا عن غزوة تبوك فقاطعهم النبى والمؤمنون خمسين يوما. . حتى: ﴿**ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ**﴾ [التوبة: ١١٨].

وأما عدم السلام على الكافر فالأصل فيه قوله ﷺ: «**لاتبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتموهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقه**»[2] رواه مسلم.

---

(١) أخرجه الشيخان والنسائى «كتاب الإيمان».

(٢) حمله الأكثر على التحريم وقيل التنزيه. قال القرطبى: ليس معناه إذا لقيتموهم فى طريق واسع فالجئوهم=

قال المانعون: هذا نص خاص تقيد به العمومات المخالفة له كما هى القاعدة الأصولية وأجابوا عن أدلة المجوزين: بأن سلام إبراهيم لم يكن سلام تحية.. بل سلام إعراض ومتاركة.

وكذلك يقال فى ﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ وأشباهه.

وربما شهد للمجوزين قوله ﷺ:

«المسلم من سلم الناس من لسانه ويده»[1].

فإسلام المرء يفرض عليه ألا يكون مصدر أذى لغيره من الناس جميعاً... مؤمنهم وكافرهم.. عاصيهم ومطيعهم.. لأن اسمه مشتق من السلام.. الذى هو فى جوهره مسالمة وتعاطف وبر.

وإلقاء السلام تحقيق لهذا المعنى.. بقدر ما يؤدى تركه إلى الوحشة والخوف.

روى البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى أمامة رضى الله عنه... أنه كان يسلم على كل من لقيه فسئل عن ذلك فقال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله جعل السلام تحية لأمتنا. وأمانا لأهل ذمتنا»**.

وقد فرق بعض العلماء بين المحاربين وأهل الذمة.. وخص الطبرى النهى بما إذا لم يكن هناك ما يدعو إلى البدء بالسلام من حق صحبة أو جوار أو مكافأة أو نحو ذلك.

وهذا التفريق مؤسس على صريح الآيات الكريمة من سورة الممتحنة والتى فرقت بين نوعين من الكفار:

فالذين لم يقاتلونا.. ولم يخرجونا من ديارنا.. لا مانع من برهم والإحسان إليهم.. أما من بلغ بهم عداؤهم لنا حدا قاتلونا فيه وأخرجونا من ديارنا فنحن ممنوعون من برهم.

= إلى حرفه حتى يضيق عليهم؛ لأن ذلك أذى لهم وقد نهينا عن أذاهم بغير سبب.

بل معناه: إذا كنتم فى طريق ضيق فلا تتنحوا لهم عنه تضيقا على أنفسكم وإكراما لهم.

وقال غيره معناه: لا تجعلوا لهم التصدر فى جادة الطريق. با إجعلوا لهم جوانبها، واتفقوا على عدم١٦٦ إيذائهم بالتضيق حتى يصدمهم جدار أو نحوه.

(١) أخرجه الترمذى والنسائى.

وهذا كله فيما كان السلام بصيغة: السلام عليكم.

أما إذا كان بغير هذا الخطاب مثل:

﴿السلام على من اتبع الهدى﴾ و **«السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»** فلا خلاف في جوازه لثبوته عنه ﷺ في دعوته الملوك والأمراء إلى الإسلام... وقد كان ﷺ يتألف المشركين وأهل الكتاب.

وسوغ ذلك صدوره لا عن إعزازهم وإكبارهم بل لأنه عنوان شفقته ﷺ على الخلق ورحمته بهم... **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**.

هذه الرحمة التي وصلت إلى حد تشميته من عطس من اليهود بقوله: **«يهديكم الله ويصلح بالكم»**[1].

وقد قصدنا بهذا البيان فتح أبصار بعض الدعاة إلى ما في الإسلام من رحمة ونداوة تجذب القلوب، وتنشر الأمن السابغ في ربوع المجتمع... وشيوع الأمن في المجتمع يوفر الفرص لعمل إسلامي بلا معوقات.. وبلا مشاكسات كلامية تستنفد الوقت والجهد..

ولقد قال سلفنا الصالح كلمتهم.. وبقي علينا أن نتأسى بهم.. لنكون سلما للناس.. وتلك سمة الأقوياء، الذين يطلون على غيرهم من أعلى، بعين مشفقة، ولا ينظرون إليهم بدافع من تكبر لا يثمر إلا الشوك.

لقد كان السلام هنا، صورة من صور الترغيب.. ربما تفتحت به النفس على حقيقة القضية المطروحة... والترغيب مرحلة أولى، مرصودة لحساب هذه الفائدة المتوقعة

آفاق أرحب:

على المستوى العملي، كانت هناك علاقات المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، اتسعت فيها قلوب المسلمين لأهل الكتاب اتساعا أفسح لهم مجالا في الدولة الإسلامية وضمن لهم حقوقا.

لقد وقف ﷺ لجنازة يهودي وقال: **«أليست نفساً؟»**.

---

(١) يراجع هذا الموضوع في (المختار من كنوز السنة) للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز.

وفى عهد أبى بكر، وفى عقد الذمة الذى كتبه ابن الوليد لأهل الحيرة بالعراق، وكانوا من النصارى:

{.. وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل. أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله}[1].

أى أن الكتابى، لو صار معوقا، أو فقيرا وآل أمره إلى أهل ملته يتصدقون عليه، فقد كان المتوقع أن يترك لهم، فهم أولى به، لكن الذى حدث هو: استبقاء إنسانيته قبل أن يستذلها السؤال.

ومعنى ذلك أن الجزية التى ضربت عليه لم تكن إتاوة تنتهك كرامته، لكنها كانت مقابل ما يقدم إليه من خدمات... فإذا عجز عن الكسب، فكان من العدل أن نقف إلى جانبه.

وهذا ما فعله عمر رضى الله عنه:{وجد شيخا يهوديا يسأل الناس: فلما سأله عرف أن الشيخوخة ألجأته. فأخذه «بنفسه» وذهب به إلى الخازن، وأمره أن يفرض له ولأمثاله راتبا معلوما من بيت المال، على شرط أن يكفيهم ويصلح شأنهم، ثم قال: ما أنصفناه إذا أخذنا منه الجزية شابا، ثم نخذله عند الهرم}[2].

ولم يقف فقه عمر رضى الله عنه عند هذا الحد: فقد قتل عمر بيد رجل من أهل الذمة هو «أبو لؤلؤة». ومع ذلك فقد وصى، وهو على فراش الموت فقال: {أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرا: أن يوفى بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفهم فوق طاقتهم}[3].

إن الخليفة الراشد هنا لم يتصرف بانفعال يفرضه الموقف الغادر... وإنما كانت وصيته منسجمة مع مبدأ العدل وهو أساس الملك.

أى أنه كان يعبر عن الإسلام أصدق تعبير. حين يعامل غير المسلمين بما يليق بالإسلام، لا بما يليق بالمعتدى منهم.

---

(١) الخراج : ١ بتصرف.
(٢) الخراج: ١٢٦ بتصرف.
(٣) الخراج: ٧٤.

ولم يترك حبل انفعاله على غار به ليقلب المائدة على عشيرة القاتل كما يفعل طلاب الدنيا من بعض زعماء اليوم.. الذين يتعرضون لاعتداء من واحد.. فيصبون جام غضبهم على أمه وأبيه وفصيلته التى تؤويه.. والتى لا تؤويه!

وفى الوقت الذى كان فيه أعداء الإسلام ـ كما قيل بحق ـ يحرثون الأرض بأجساد الضحايا لتسميد الأرض.. كان غير المسلمين يعيشون تحت مظلة الإسلام آمنين...ويكفى أن تعلم ماذهب إليه بعض الفقهاء:

أن من أتلف خمرا. أو خنزيراً لمسلم.. فلا شيء عليه. بل هو مأجور مشكور!أما من أتلف ذلك لغير المسلم.فيجب عليه الضمان، كما قرر أبو حنيفة!

كتب على ـ رضى الله عنه ـ إلى بعض ولاته على الخراج بشأن أهل الذمة.

[إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيف ولا رزقا يأكلونه ولا دابة يعملون عليها...ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً فى درهم. ولا تقمه على رجله فى درهم...ولاتبع لأحد منهم عرضاً «متاعا» فى شيء من الخراج، فإنما أمرنا أنا نأخذ منهم العفو...فإن أنت خالفت ما أمرتك به يأخذك الله به دونى...وإن بلغنى عنك خلاف ذلك. عزلتك.

قال الوالى: إذن. أرجع إليك كما خرجت من عندك . [أى بلا مال]...قال: وإن رجعت كما خرجت][1].

بل إن فقراء أهل الكتاب ليدخلون ضمن المستحقين للصدقة إذا افتقروا.

جاء فى المنار[2]: [قال تعالى: ﴿وتؤتوها الفقراء﴾: لم يقل فقراءكم، فزكاة التطوع تجوز على الكافر.. بل قيل إن الآية نزلت فى الصدقة على أهل الكتاب.

وفى الصحيحين «فى كل كبد رطبة أجر» وفى رواية لغيرهما«فى كل كبد حرى أجر» يعنى: فى جميع الأحياء].

ولقد كان هناك تبادل علمى ثقافى.. يتجاوز اختلاف الدين مستهدفا تراثا مشتركاً هو ملك للإنسانية جميعاً:

لقد درس كثير من الذميين على أيدى مدرسين وفقهاء مسلمين: من ذلك أن «حنين بن إسحاق» درس على يد الخليل بن أحمد، وسيبوية حتى أصبح حجة فى

(١) الخراج لأبى يوسف : ١٥، ١٦.

(٢) ج١١ / ٦٩.

وتتلمذ «يحيى بن عدى بن حميد » - أفقه رجال عصره فى المنطق - على يد الفارابى.

ودرس ثابت بن قرة عل« يد على بن الوليد من رجال المعتزلة. وكان حسن الخط، متمكناً من الأدب... وتدل مؤلفاته وكتبه على عمق تفكيره وقوة معرفته، وما لبث أن اعتنق الإسلام[(٢)].

بل لقد جلس أبناء الصحابة الأجلاء (٣) بين يدى سدنة الوثنية عقب غزوة بدر.. يتلقون عنهم العلم.. حين ارتبط فك الأسير المشرك بتعليم عشرة من أبناء المسلمين... أخذوا عنهم.. وتتلمذوا عليهم.. وأقر - ﷺ - ذلك.. ولم يقف الشرك.. ذلك الجدار الغليظ مانعاً من هذا التعلم.

ثم تمضى القرون.. ويجىء الزمان النكد.. والذى يسقط فيه حق مدرس يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله... يسقط حقه فى تعليم أبناء المسلمين!! ليتفرد بهم مدرسون فى حاجة إلى مدرس!!.

وأين سنة رسول الله ﷺ... إنها تدفن اليوم حية فى التراب.. بينما تبرز من سنن العادة.. والفطرة مايغرى بعضنا! إنها لنكسة خطيرة: أن يأخذ الوثنى حقه فى التعليم.. ثم لا يجد العالم المسلم، من يصغى إليه. وبالأمر!!

بيت الداء:

إن غياب هذه الروح الإسلامية السمحة هو المسئول عن هذه الجفوة المصطنعة بين المسلم وغير المسلم.. وماترتب عليها من خسارة كبرى يوم توقف هذا اللون من التعاون... إنه التعصب إذن.. كما أشار إلى ذلك الإمام محمد عبده حين قال: [قد يطرأ على التعصب الدينى من التغالى والإفراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسى، فيفضى إلى ظلم وجور، ربما يؤدى إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم، ومحق وجودهم.

---

(١) الأغانى للأصفهانى ج٨/ ١٣٦ فى الحاشية.

(٢) ابن أبى أصيبعة. طبقات الأطباء ج١/ ١٨٥.

(٣) الفكرة للشيخ صلاح أبو إسماعيل.

وكما قامت الأمم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح.. ولا للدعوة إلى الدين فى الحرب الهائلة، المعروفة بالحرب الصليبية.

وكما فعل الأسبانيون بمسلمى الأندلس... وكما وقع قبل هذا وذاك فى بداية الدعوة للدين المسيحى: إن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود فى القدس وأحرقهم... إلا أن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة.. ثم يرجع أرباب الدين إلى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل.

أما أهل الدين الإسلامى: فمنهم طوائف شطت فى تعصبها فى الأجيال الماضية إلا أنه لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفيهم فى الدين][1].

ثم بين الإمام بعد ذلك أن الواقع شاهد بعدل المسلمين الذين كانوا يوماً فى منتهى القوة.. ومخالفوهم فى منتهى الضعف.. فما حملهم ذلك على استئصالهم.. بل اتسع صدر الأمة الإسلامية لأهل الأديان والمذاهب والنحل.

وإذا كانت أمة الإسلام كغيرها من الأمم توسعت فى فتوحاتها.. إلا أنهم حافظوا دائماً على حرمة الأديان الأخرى بل كانوا يرفعون عنهم غوائل العدوان محكومين بالقواعد الراسخة والتى منها: [إن من رضى بذمتنا. فله مالنا. وعليه ما علينا].

ولم يعدلوا فى معاملتهم لغيرهم عن أمر الله تعالى فى قوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾**.

اللهم إلا مالا تخلو عنه الطبائع البشرية.

*****

---

(١) المسلمون والإسلام: ١٤٢.

تهافت الباطل

يقول الله تعالى:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٢].

إذا فعل الداعية أجمل مايليق به: فصحتّ دعواه بلا خلل.. ثم حَسُن عرضه لها فتجنب الزلل.. فإن على المدعو أن يرد هذا الجميل استجابة تحقق مصلحته هو.. وقد كان موسى وأخوه ذلك الداعى.. لكن فرعون لم يكن هذا المدعو:

إن موسى عليه السلام: مبشر.. فهو يريد الخير.. منذر: فهو يحب لمن يدعوه ذلك الخير..

أما فرعون فقد فعل أنسب ما يليق به وهو: الإعراض.. وعلى الإعراض مزيد من السخرية.. والسخرية ممن..؟ ممن جاءه بالهدى؟وذلك قوله تعالى: ﴿..**فمن ربكما ياموسى**﴾؟

قالها ساخرا.. والسخرية بذاتها جريمة كما يشير قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ**﴾[المطففين: ٢٩].

وهكذا العابثون دائما: عندما تحاصرهم دلائل الحق.. يفقدون التحكم فى أعصابهم فيهرفون.. ثم يلجأون إلى الشغب عن طريق أسئلة يريدون بها: قتل الوقت.. والتهوين من شأن الداعى.. ثم الفرار من مواجهة الحق.. إلى مسارب الماضى.. لأنهم لا يملكون من الشجاعة مايؤهلهم لمنازلته.. وكذلك كان فرعون..

ومن الإنصاف أن نسجل للطاغية أنه استنكف ـ كما أشار الرازى ـ أن يبطش بموسى وفضَّل أن يدخل معه فى حوار كراهة أن ينسب إلى الطيش والسفه!

وليت شعرى كم نحن بحاجة إلى أن نعى هذا الدرس .. فى حوارنا نحن

المسلمين ليواجه الرأى بالرأى.. والفكرة بالفكرة.

أضف إلى ذلك أنه كان يكفى أن يقول: فمن ربكما.. ويتم السؤال..

ولكنه يخص موسى عليه السلام بالذات: قائلا: .. ياموسى!

إنه يعنى مايقول:

فموسى عليه السلام.. هو قائد الركب.. وطليعة الموكب.. وهو الذى جاء ليزلزل الأرض من تحت قدميه.. فالتركيز عليه.. تعبير عن الحقد المكتوم على موسى بالذات.. وهى إشارة تغنى عن العبارة.. إشارة إلى خطة الأعداء فى محاولة ضرب القيادات الدينية التى تتمثل الإسلام قولا وعملا.. ولنصحو دائما على هذا النذير.. فلا نقع فى نفس الخطأ..

منطق الحكمة:

ماذا فعل موسى عليه السلام.. فى الوقت الذى يكاد يسمع نفس فرعون الأمارة بالسوء.. وكأنما تقول له: من ربكما.. وهل لكما رب سواى؟!

لقد كان موقف موسى تعبيرا أمينا صادقا عن الدعوة التى شرفه الله تعالى بالانتساب إليها..فمن حق السائل أن يسأل.. ومن واجب الداعية أن يجيب.. حتى لا يترك للمدعو فرصة التشويش عليه..ولابد أن تصدر الإجابة عن علم صادق موثق.

وهذا هو الذى حدث بالفعل وفى إطار من الحكمة أخذ به الحوار صبغته الإسلامية..فالداعى إلي الله: ينصت إلى كلام الخصم فى أدب عال.. حتى ينتهى من عرض وجهة نظره...ثم يذكر دعوى الخصم.. كما هى وبأمانة...ثم يرد عليه.. وبسرعة قبل أن يسبق بالشبهة إلى قلوب الدهماء لو جاء الرد متأخرا...ومع أن السخرية بحرارتها قد تفرض على الداعى أن ينفعل .. وأن يتحمس.. لكن الحماس وحده لايكفى.. فلابد من الصبر:

إن الحماس النبيل قد يضطرم فى قلوبنا أحيانا.. ليصير نارا تشتعل..ولكن. ما ظنك بنار تشتعل .. ثم لاتجد حطبا جزلا؟.. لسوف تنطفئ.. ثم تبدأ سحب الهموم تنغص علينا حياتنا..

والمطلوب هو: الصبر.. والتجربة..التجربة التى تصير فراسة.. أى نورا يكشف المجاهيل.. والصبر.. وهو مفتاح الفرج..

لكن الداعية الحق لا يمسك بالمفتاح.. ثم يقف لدى الباب جامدا..إنه يديره فى الباب.. ليدخل فى النهاية ظافرا بعد أن كان صابرا.

ألا وإن سرورنا الحقيقى لا يكون فقط عند ما تتحقق آمالنا.. فتلك لحظة عابرة.. إنما السرور الحقيقى عندما نعانى عثرات الطريق صابرين.. واثقين بنصر الله تعالى.. لنجعل بالصبر كل أيامنا أعيادا.

وعلينا أن نجلس بين يدى موسى عليه السلام ـ وفى ضوء الآيات الكريمة ـ لنتعلم كيف كانت التجربة نورا.. وكان الصبر ضياء تمكن الداعية فيه أن ينهى الموقف لحساب الإسلام بما أوتى من الحكمة وفصل الخطاب.. وهكذا كان جواب موسى عليه السلام: **﴿قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾**.

ربنا الذى أعطى كل مخلوق خلقه الذى هو عليه.. ثم يسر كل مخلوق لما خلق له من عمل.. حتى البهائم السارحة.. كل يسعى لمنفعته.. وتلافى مايضره.

ويلاحظ فى الجواب أمران:

أولا: لم يُعرِّف موسى عليه السلام ربه تعالى بذاته.. ولكن بصفاته التى نرى آثارها منبثة فى تضاعيف الكون.. ولا يختلف فى ذلك اثنان ولا ينتطح عنزان.. فماذا يقول فرعون إزاء ملايين المخلوقات من حوله وكل مخلوق آية قائمة بذاته شاهد بلسان حاله: أنه خلق الله..

وثانيا: أنه عليه السلام بهذا الجواب الحكيم يضرب النظام الوثنى فى الصميم. وفى شخص رمزه الأكبر فرعون.. حين يُعرِّفه بالرب الحقيقى.. من خلال آثاره.. وأين ربوبية فرعون المزعومة الواهبة الواهنة.. والتى لا تستطيع أن تخلق ذبابا وإن يسلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه؟!

وهكذا يزلزل الداعية الأرض من تحت فرعون.. بالحجة الدامغة... واللمحة البالغة مستقرها فى قلب الطاغية.. الذى بدأت آثار الهزيمة تلوح عليه عندما بدأ

يغير خطته بالهروب من الضوء الكاشف.. من الجواب الذى تصرخ فطرته فى أعماقه بصحته وسداده.. إلى الشغب مكررا نفس الموقف.. موقف المهزوم عندما يواجه بأجله المحتوم..

وذلك قوله تعالى: ﴿قال فما بال القرون الأولى..﴾.

ما مصيرهم؟ فى الجنة أم فى النار؟ ثم ما بالهم لم يبعثوا؟

ويذكر هذا المنطق المهزوم بما قاله المرحوم الأستاذ أحمد أمين: خلق الله تعالى لنا الوجه أمام.. والعين.. أمام.. لننظر إلى أمام.. ثم خلق لنا العقل لننظر به إلى الأمام.. وإلى الخلف سبيلا إلى ترقية المستقبل ولكن ناسا ـ وعلى رأسهم فرعون ـ عكسوا القضية.

ولهذا الطراز من المعاندين كفؤه من الدعاة المخلصين وفى طليعتهم موسى عليه السلام.. والذى أفسد خطة فرعون الرامية إلى جره ليدور معه فى حلقة مفرغة.. وذلك مايشير إليه قوله تعالى: ﴿قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولاينسى﴾.

وحين يجمِّده موسى عليه السلام فى مكانه قبل أن يفر إلى مسارب الماضى.. لا يشدد عليه النكير.. ولا يضاعف من إحراجه بالأسلوب الجارح.. مادام يملك الحق الواضح.. وإنما يعود به.. برفق ولين.. إلى ذات القضية. قضية التوحيد. فلم يكن جواب موسى عليه السلام: إنهم فى النار مثلا.. لأن ذلك سيشكل حاجزا نفسيا يمنع من مواصلة الحديث حول القضية المطروحة..

ولكنه عليه السلام يغير وجهة الحديث تصحيحا لمساره وذلك قوله تعالى: ﴿قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى﴾.

إن المشكلة ليست مصير أناس مضوا يراد إدانتهم.. ولكنها بالدرجة الأولى قضية أناس حاضرين يراد هدايتهم. فَلِمَ الإفلاس بالخروج عن موضوع النزاع إلى مالا يرضى الحق من القول؟

إن القرون الأولى: أمة قد خلت: عملوا ماعملوا.. ثم جوزوا به.. فلا معنى لسؤالك!

فإن كنت ترى أنى على الحق.. فآمن..وإن كنت شاكا.. ففرصة النظر والبحث متاحة لك..

ولكن أنى يكون لفرعون عقل منصف .. يستقبل هذا المنطق الهادئ المقنع.. لقد عجز - لأنه كذاب - عن مواجهة الحق.. فقرر أن يخرج من الموضوع.. بيد أن الداعية كان له من حججه جنود.. فكانت هذه العملية.. عملية إنزال من الخلف.. كما يقول العسكريون.. فأحبطت سعيه!

وهكذا يضع فرعون أساس السؤال المحرج كأسلوب من أساليب التصدى للدعوة الإسلامية .. على مدار التاريخ.

ولكن القرآن الكريم يعلم الدعاة كيف يتصدون للحملة الماكرة بما يكافئها من فطنة وذكاء.. ما دام أعداؤنا يمكرون.. ولا يفترُون.. ويبقى أن نفهم الدرس.. لنسعى إلى الهيجاء بسلاحها.. ولنا فى علمائنا من السلف الصالح أسوة فى هذا الفن.. وما يتطلبه من سرعة البديهة وتوقد الذهن خروجا بالحق من مزدحم الأهواء.

سئل ابن الجوزى وهو على منصة التدريس: أيهما أفضل : علىّ.. أم أبو بكر؟

فقال: أفضلهما من كانت ابنته تحته! ثم نزل من على كرسيه فى الحال.. حاسما مادة الخلاف.. وانظر إلى الذكاء الذى فتح للسائل الباب إلى متاهة أغرقه فيها قبل أن يغرقه:

فابنة الرسولﷺ تحت على رضى الله عنه.. وابنة أبى بكر رضى الله عنه تحت الرسولﷺ.. ولقد ورط ابن الجوزى السائل الذى أراد إرجاع الضمير إلى صاحبه.. فما استطاع!.. وفسدت خطه التشويش!!

*****

[مدرسة المشاكسين]

يقول تعالى: ﴿قال فما بال القرون الأولى قال علمها عنْد ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى﴾.

كان فرعون فى سؤاله واحدا ممن يجيدون فن المناورة.. والتى يلجأ إليها المفلسون فى ميدان الجدل النزيه..

ولئن لمعت من وراء سؤاله بارقة من دهاء أو ذكاء.. فإن ذكاءه لم يُجده نفعا أمام العقل الواعى.. والذى يستمد وعيه من رافد الإيمان.. وهو ماتفرّد به موسى عليه السلام تفردا شهد به جوابه:

﴿قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى﴾.

ومسافة الخلف بعيدة بين الذكاء.. والعقل:

لقد كان المشركون أذكياء.. ولكنهم لم يكونوا عقلاء.. فلهم قلوب ولكنهم لا يفقهون بها..وإبليس اللعين كان ذكيا حين تملق فى آدم عليه السلام غريزة حب البقاء... وحب التملك...ولكن التعقل حركة فكر منظم .. صحيح المسار.. ينطلق من قاعدة صلبة.. هى الإيمان.. ومن ثم فهو المنتصر فى نهاية المطاف.. وكذلك كان موسى عليه السلام من خلال جوابه المسكت..

وما تزال لفرعون مدرسة من المشاكسين للحق.. تريد لفت أنظار المسلمين إلى الماضى.. حتى لا يعيشوا الحاضر..ثم صارت هذه المدرسة إعلاما ماديا اليوم.. يواجه المسلمين بالحيلة بعد أن عجزوا عن هزيمتهم بالقوة..

ويبقى أن يكون الدعاة ـ وإنهم لفاعلون إن شاء الله ـ أن يكونوا على مستوى المهمة.. حتى نفوت على الأعداء محاولاتهم صرفَنا عن حقائق ديننا.. فى ضوء خطة محكمة ننازل بها الباطل بما هو أهله من فطنة وتعقل..

يقول الشيخ الندوى:

تفتقت قريحة فرعون الشيطانية وأخذ من كنانته سهما مسموما هو السهم الذى لا يطيش.. السهم الذى لو أطلق على واحد من الدعاة الأذكياء الذين درسوا

فلسفة الدعوة. ودرسوا علم النفس، وعلم الاجتماع وعلم الجدل والمخاصمة تحقق له الفشل الذريع: قال: ﴿فما بال القرون الأولى﴾ وهذا من ذكاء فرعون الشيطانى:

فإنه أراد أن يحرك غضب ندمائه الذين كانوا جالسين. .أراد أن يتخلص وأن يصيد بهذا السهم الواحد صيدين:

أولا: أراد أن يشغله عن الدعوة إلى التوحيد لأن أخوف ما يخافه هو التوحيد الذى يحرك السواكن من القلوب ويحرك الإيمان الدقيق الكامن فى قرارة نفوس هؤلاء. . . لأنهم كانوا بشرا وكانوا بنى آدم. وكان فيهم أصحاب عقول وضمائر.

فكان يمكن أن يحرك هذا فأراد أولا أن يشغل عن هذه النقطة الحساسة التى كانت من أبغض النقط إلى فرعون. وكان من أوحش الناس لها.

ثم أراد أن يأخذ فى جواره هؤلاء الجالسين حوله. . . لأنه بقى وحده. وكان مخاطباً وحده فأراد أن يكسب ودهم ويثير حميتهم الجاهلية. . .فأثار موضوعا شديد الحساسية بالنسبة لهؤلاء المتكبرين ـ قال فما بال القرون الأولى: وهناك احتمالان:

إما أن موسى عليه السلام لا يحابى ولا يجامل ويقول: هم فى جهنم. . فتثور حمية هؤلاء الجاهليين فيشيطون غضبا. . أو على الأقل لا يسمعون لموسى كلاما. .

وقد يثورون غضبا ويحدثون صخبا قائلين: ماذا تقول ياموسى؟ قد أهنت آباءنا. . وجرحت شعورنا. . .وإما أن يسكت موسى عليه السلام. أو يحامل آباءهم فيقول: نحن نحترمهم وأنهم كانوا على علم كبير. . هنا سوف ينتهزها فرعون ويقول: إذا كانوا يستحقون الاحترام. . فإنهم كانوا على عقيدتى؟

ولكن موسى عليه السلام يقول: ﴿علمها عند ربى..﴾الآيه.

ولو قال: علمها فى التاريخ . . لوقف فرعون واحتج بالتاريخ المزيف المختلق فى عصره والمدروس فى مَدارِسه. .

ولكن موسى عليه السلام لم يترك سبيل الدعوة. .ولم يترك الخيط الذى كان ممسكا به. . وانتقل بسرعة لا تُتَصورّ سرعة أكثر منها. .وببلاغة لا تتصور بلاغة

أبلغ منها. وبحكمة لا تتصور حكمة أدق منها بكلمة واحدة ﴿علمها عند ربى﴾.

ولم يرد أن يطيل العبارة لأنه إذا طوّلها انتهز فرعون الفرصة واقتحم المعركة. .ثم يركز موسى على ما كان يهرب منه فرعون وهو صفات الله تعالى: ﴿لا يضل ربى ولا ينسى﴾ أ. هـ.

وهكذا يخطط الباطل لاحتواء الحق. . ومع كر الغداة ومر العشى. . يدق الكيد . . . فى محاولات مكرورة عن طريق إهاجة الشهوات من جهة. . ثم إثارة الشبهات من جهة أخرى. . بالسؤال الماكر. . الذى يستهدف إثارة العامة. . ولكن الدعاة له بالمرصاد. . فيما يشبه الهجوم المضاد. . بالجواب البسيط المحيط فى نفس الوقت. .

وإذا كانوا يقولون: إن الماء مع لينه. . ينحت الصخر مع صلابته. . فإن ذلك ينسحب أيضا على قضايا الفكر والدعوة. . .فى الماضى كانوا يحفرون ثقبا صغيرا فى الجبل. . ثم يضعون فى هذا الثقب قطعة من الخشب تملؤه. . وكان يفضّل شجر الجميز بالذات. . .ثم يسقون قطعة الخشب بمزيد من الماء كل يوم. . ولابد أن تتمدد قطعة الخشب ليصبح ضغطها أقوى من الحجر. . .ومع تضخم قطعة الخشب الصغيرة. . من التشبع بالماء. .كانت الصخور حولها تنفجر. .بلا صدام. .

وهذا ماحدث. . عندما كان علماء ما يواجهون السؤال المتعنت. . أو السؤال الخبيث. . لقد كانوا يحبطون مفعوله. . بالماء البارد. . بالمنطق البسيط . . البليغ. . معا. .ومنهم ذلك العالم الذى سئل يوما:

هل هناك مانع من وجود إله آخر مع الله؟ فقال العالم: لا مانع!ولكن. . لا شك أنك تعنى وجود إلهين لا يختلفان فى شئون العالم.

فقال المتشكك: نعم لا يمكن أن يختلف الإلهان.

قال الشيخ ببساطة: فماداما لم يختلفا. . فما فائدة الإله الثانى؟ فقال السائل: صدقت . .ولا إله إلا الله!

لقد كان السؤال مريرا. . وخاصة في مذاق عالم تتمشى فى دمه حقيقة التوحيد. . .ولكنه احتوى الشكوك كأنما هى الجبال. . بهذا المنطق البسيط. . لم يحاول أن يفجر الموقف بالسباب. . والشتائم. . . مع تفاهة السؤال وحمق

السائل. . ولكنه الماء. . اللين. . ينسرب هادئا. . فنحى الصخر. . وأزال الصدأ. .
فتوهجت فى قلب السائل المتشكك حقيقة التوحيد. . بلا إكراه. . . وهو هو نفسه
الماء الذى ينسرب إلى عروق الشجرة الضاربة فى الأرض. . وبينما النار المشتعلة لا
تستطيع أن تأكل من الشجرة إلا ما ظهر منها. . فإن الماء اللين يجتث أصولها. .
وبهدوء. . وبلا عملية جراحية!

ومما ذكرناه. . يتبين ما اغترضناه وهو: ضرورة أن يكون الداعية على شىء من
العلم. . والدربة ليواجه بهما ما يتسلح به الباطل من مكر وخداع. . وبخاصة فى
زمان يتفنن فيه الإعلام المادى فى بث الشكوك وازدراع الأوهام فى قلوب غضة
طرية. . خالية من كل نقش. . ولو صادفتها الفكرة المسمومة الوافدة. . لصادفت
قلبا خاليا فتمكنت. . ولن تعود إلى صفائها إلا بعد جهد جهيد. . . ننفق فيه من
أموالنا وأعصابنا ماهو مرصود أساسا للبناء والتعمير.

ولست مع الذين يقولون: ما أبقت الدنيا بأيدينا إلا دموعا فى مآقينا

فقد بقى لنا إيماننا القادر ـ بإذن الله ـ على فعل الأعاجيب.

وصحيح أن أعداء الإسلام قد نراهم اليوم قد كسبوا الجولة. . ولكنه البغاث
بأرضنا يستنسر. . . وعار على المسلم فى مواجهة الكافر أن ينحنى للعاصفة. .

إن رءوسنا كمسلمين. . . لم تخلق لتنحنى للعواصف. . وإنما للسيوف
القواصف. . فى بدر. . وأحد. . والقادسية. .

وإن الله تعالى لم يجعل الإنسان فى أحسن تقويم: قائما. . مستقيما. .
مشدودا. . لينكسر وينحنى أمام كافر لا يؤمن بالله. . واليوم الآخر. . مهما كان
حجم الذهب عند قدميه!

أما بعد : فلئن كان فرعون قد استشعر مع سؤاله رعشة الفرح بما يمكن أن
يحدثه السؤال من خلل فى الصف المؤمن. . ولئن كان الإعلام المادى يضاهى قول
الذين كفروا من قبل. . فلا بأس. فشمسهم جميعا إلى غروب. . . وإن ماهم فيه
من بهرجة. . إنما هو ضوء الأصيل . . سيأتى من بعده الليل. . وأما نحن المسلمين
فما نحن فيه من غبش. فإنما هو: خيوط الفجر. يشرق من بعدها النهار.

*****

من هدى القرآن

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[البقرة: ١٨٩].

ومع الفارق الهائل بين دوافع السؤال فى الآية الكريمة وما يحدث اليوم من بعض السطحيين.. إلا أنه قد بقيت منه بقية تتجه بالعتاب إليهم لعلهم يرجعون.

والسؤال فى الآية الكريمة كان فى الجغرافيا..! وقد وجه إلى غير متخصص فيها!

وإذن: ففيه ضياع الوقت.. والطاقة معاً.. فيما لا يجدى.

فالسائل مشغول بالسماء البعيدة... ونسى دوره على الأرض!!

ومن ثم.. لفتت الآية الكريمة الأنظار إلى الناحية المفيدة من الأهلة وهى أنها: ﴿.. مواقيت للناس والحج﴾.

واستمرت حملة التذكير.. بتصحيح ماكانوا يفعلونه من دخول البيوت من ظهورها.. وكيف أن ذلك لا يمنحهم البر الذى يطلبون...ولكن البر الحقيقى يتمثل فى نوعين من الجهاد:

أ ـ جهاد النفس بالتقوى ﴿ولكن البر من اتقى﴾.

ب ـ ثم جهاد العدو بالسلاح: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٩٠].

إنه لا يكفى ـ كما قال العقاد ـ أن تكون فى النور.. لترى.. فلابد أن يكون فى النور شىء تراه!

لا يكفى أن تكون مسلما لمجرد أنك شاهد بالتوحيد والنبوة..ولابد أن تكون لك حركة مباركة على كل جبهة.. أن يكون لك رصيد تقوى به الأمة.. وتغيظ

به الأعداء.. الذين لن يغيظهم تفننك فى سؤال لا يغنى عن الحق شيئاً...وإنما يقلق مضاجعهم من العلم النافع والعمل الصالح.. تجاهد بهما عدوك.. ثم لا يكون لك، وقت فائض تقاتل فيه بسؤال فى غير موضوع..

[من الحلول الإسلامية]:

لقد وعت الأمة الإسلامية هذا الدرس جيدا.. فأكبت على ما يفيدها..

غاب عن عمر رضى الله عنه معنى.. الأب.. فى قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾...وأراد أن يسأل عن المدلول الدقيق لهذه اللفظة، ثم خشى أن يكون هذا من التكلف المنهى عنه. وقال: ماذا على عمر إذا لم يعرف ما الأب؟![1].

ولا يعنى ذلك غياب السؤال الهادى الهادف:

عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة رضى الله عنها ـ وأنا يومئذ حديث السن ـ : أرأيت قول الله تعالى:

﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾.

فما على الرجل شيء ألا يطوف بهما؟فقالت عائشة:

كلا. لو كان كما تقول لكانت [فلا جناح عليه ألا يطوف بهما][2].

سؤال أهل الذكر:

فأنت ترى الناشئ يستفتى أهل الذكر.. محققا بذلك ما أراده الإسلام.. وما قاله عمر يوما: أيها الناس.. من أراد أن يسأل عن القرآن الكريم فليأت أبى بن كعب...ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت...ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل...ومن أراد يسأل عن المال فليأتنى. فإن الله تعالى جعلنى خازنا وقاسما.

مواقف العلماء:

يضيق صدرى أحيانا عندما يلح طالب العلم متسائلا عن حكم شهادة الاستثمار.. مع أن القضية لا تعنيه شخصياً حيث لا رصيد له هناك!

---

(١) العبادة فى الإسلام. د. يوسف القرضاوى صـ ٣٠٦.   (٢) أضواء البيان.

وفى نفس الوقت تلح عليه مشكلات أسرته وقريته فلا تعنيه ولا يطلب لها علاجا!

سألنى سائل: كيف نحتفل بميلاده ﷺ؟قلت له: بل قل كيف نقتدى به ﷺ؟!

وهو مع زميله فى مربع واحد.. ذلك الذى سأل متلهفا عن عدد أهل الكهف؟ فقلت له: لا يهم العدد.. ولكن الأهم: ماذا أعددت من عمل لتكون مثلهم فى تقواهم؟!

ولما سأل عن خصائص الحاكم قلت له:

سأرجئ الإجابة عن هذا السؤال حتى أحدثك عن خصائص حاكم الأسرة.. وهو الوالد.. فإذا أحطت بها خبراً.. وسألت نفسك عن مدى التزامك فى بيتك بما أوجبه الله تعالى عليك.. جاء الحديث عن رئيس الدولة فى أوانه!

إنها الانفعالات الطائرة تدفع إلى الأسئلة المتعجلة التى لا تمس حاجة حيوية..وهو انفعال من لا يستشعر خطورة دوره اليومى.. ناسيا واجبه فى السؤال بحثا عن القدوة أولا.. قبل أن يستغرق فى أحكام فرعية.

إن القدوة حركة دائبة.. وعمل دائم..والبحث عنها بحث عن طوق النجاة فى خضم المشكلات..وتأمل كيف أمر الرسول أصحابه أن يحلقوا رءوسهم... وأمرهم ثلاثا..ولكنهم لم يحلقوا ظنا منهم أن الأمر سهل...فلما اقترحت أم سلمة أن يحلق هوﷺ..فلما حلق..توفرت القدوة..وسرعان مالبوا وحلقوا.

سلاح السخرية:

وكان للعلماء دورهم فى ردع هذا الصنف الفارغ الملول.. المشغول بالتافه من الأمور.. بسلاح السخرية الذى لا يجيد استعماله إلا الفاقهون.

سأل طالب العلم وشيك التخرج عن معنى شهادة الزور..فأجابه الأستاذ على الفور: شهادة الزور.. هى التى ستحصل عليها بعد شهرين!!

وجاء بعض الثقلاء إلى الجاحظ وقال له: سمعت أن لك ألف جواب مسكت فعلمنى منها. فقال له الجاحظ: لك ماتريد...فقال له الثقيل: إذا قال لى رجل: ياثقيل الدم.. وياخفيف العقل..فماذا أجيبه؟ فقال له الجاحظ: قل له: صدقت!!

حسن تخلص:

سئل الإمام على كرم الله وجهه... كم بين السماء والأرض؟

فقال. دعوة مستجابة... قيل: فكم بين المشرق والمغرب؟.. فقال: مسيرة يوم بالشمس!

وقد يكون للبديهة المتيقظة قدرتها على حسم الخلاف بما ملكت... ويظهر من ذلك أن السؤال المتعنت... أو الهازل له رده المناسب... بينما السؤال المسترشد يلقى ماهو جدير به من الحفاوة...

حكى الماوردى قال: كنت جالسا فى مجلس، مقبلا على تدريس أصحابى... فدخل علينا شيخ قد ناهز الثمانين فقال لى: قد قصدتك فى مسألة، قد اخترتك لها، فقلت: وماهى؟ قال: أخبرنى عن نجم آدم وإبليس.. ماهى؟ فبدر جماعة من الحاضرين للإنكار عليه، والاستخفاف به... فكففتهم عنه. وقلت: هٰذا لا يقنع مما ظهر من حاله إلا بجواب مثله، وقلت له: ياهذا: إن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة موالدهم، فإن ظفرت بمن يعرف ذلك، فاسأله... فقال جزاك الله خيراً، وانصرف مسروراً.

فإذا كان السائل مسترشداً، وعبر سؤاله عن حاجة حيوية كان الجواب لازما:

سئل حكيم: هل العلم أفضل أم المال؟ فأجاب الحكيم: بل العلم.

فقيل: فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء، ولانكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟

قال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال، وجهل الأغنياء بمنفعة العلم: فالسؤال هنا لم يكن ترفا عقليا.. وإنما صدر من راغب فى المعرفة حريص عليها.. فقد أقلقته ظاهرة اجتماعية توشك أن تعصف بثقته بالعلماء، وهم أوتاد الأمة.. فجاءه الجواب الذى يحسن السكوت عليه... وهذا السائل أفضل من ذلك الذى غفل عن واقعه، وهام به خياله فى عالم المثال حين سأل العالم قائلا: إذا نزلت إلى النهر لأغتسل، فهل أستقبل القبلة؟!

فقال الشيخ: بل استقبل ثيابك على حافة النهر، حتى لا يأخذها سارق ويجرى!

[من آيات الله فى الآفاق]

يقول الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ. مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ. وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

ماذا يفعل الداعية إذا ألغى المدعو عقله. وبدأ يراوغ كالثعلب ويتلون كالحرباء؟

يجيب عن هذا السؤال موقف موسى عليه السلام مع فرعون:

لقد تجاهل الطاغية نتيجة الحوار وهى: الاعتراف بوحدانية الله تعالى.. مادام هو الذى أعطى كل شىء خلقه.. ثم هدى.. فلا معبود سواه.. ولكنه المبطل يتجاوز منطقة العقل.. عائدا إلى غيابات الماضى.. مع القرون الأولى.. فى محاولة لتمييع القضية..

ويقطع الداعية الطريق.. ليجذبه من ظلمة الماضى.. إلى الحاضر الماثل.. إلى دليل مادى لا تخطئه العين المجردة﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ الآيات..

وهكذا يغير الداعية خطته حتى لا يفلت الصيد من بين يديه:

فإما إيمانا بعد.. وإما إخراجا.. فإخراجاً من ساحة الحوار مجللا بالعار.. ليبقى الحق وحده فى أعين الناظرين سيد الموقف..

ويلاحظ فى الدليل مايلى:

أ ـ أنه أولا دليل كونى مشاهد.. يتعذر على المعاند التفلت من جاذبيته...

ب ـ وهو بهذا المعنى دليل ظاهر.. وعام.. وملزم..

جـ ـ وهو فى نفس الوقت دعوة إلى التأمل فى صنع الله تعالى.. وصولا إلى بعض سننه سبحانه فى خلقه.

ولقد كان هذا التأمل بابا إلى الإيمان فى حياة كثير من الباحثين الذين اكتشفوا بالتأمل عجيب صنع الله تعالى فى كونه.

لقد تيقنوا مثلا: أن قانون الحركة على الأرض.. هو نفسه قانون الحركة فى السماء... وأن الكهرباء والمغناطيس.كل واحد.وأن تركيب الذرة هو نفسه تركيب المجوعة الشمسية فأدركوا عظمة الخالق تعالى فى الصغير والكبير على سواء..

وهى لفتة قرآنية حكيمة ليتخذ الدعاة اليوم من الآيات الكونية أسلوبا يتعاملون به مع الغَيْر ممن لا يدينون بالإسلام. .ذلك بأن الاستشهاد بالآيات الكونية هو اللغة العالمية والقاسم المشترك الأعظم الذى لا يختلف فى دلالته اثنان من بنى الإنسان.. ولكن الاستشهاد بالآيات الكونية فن له رجاله.. وله كذلك أساتذته الذين نتلقى عنهم ضوابطه .. وفى طليعتهم موسى عليه السلام:

فمع أن وجوه النعمة فى الأرض متعددة .. وظاهرة وخافية إلا أن موسى عليه السلام ـ لأن المدعو معاند يلجأ إلى الظاهر منها.. بل الأظهر قطعا لكل عذر وسدا لكل ذريعة!

فقد استشهد بآية فى الأرض هنا.. ولم يستشهد بآية فى السماء.. وكان من الممكن أن يقول له: الذى جعل لكم الأرض كروية مثلا.

ولكنه يقول: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً ..﴾.

وكون الأرض ممهودة ممدودة لا يحتاج إلى ذكاء. بعكس إثبات الكروية الذى قد يتخذ منه المدعو المشاغب فرصة للتشويش.. وإذا كان العقلاء الذين تدبروا القول.. تدبروا الكون.. فما أعجزهم أن يقعوا على كثير من أسراره.. لكن فرعون كما قلنا قد أعطى عقله أجازة.. أو قد ألغاه بالمرة..

وهاهو ذا موسى عليه السلام.. يُحرجه.. ودون أن يشعر.. يحرجه إلى الحد الذى يفرض عليه أن ينظر وأن يقول رأيه فيما نظر إليه.. لأن الآية تقول: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ..﴾ ومادام الجعل لكم.. فأنتم مسئولون عن النظر ثم الالتزام بالنتيجة.. التى لن تستطيعوا منها هربا.

هـ ـ ولأن الداعية لا يعمل لحسابه.. وإنما لحساب الدعوة.. فهو لا ينهى الحوار عند ظهور الدليل الحسى ثقة بنصره على عدوه.. وإنما يواصل المسير لعل المدعو أن يرى النور فيفتح عينيه له.. ليقف إلى جانب الداعية سندا. .ومن ثم يقول تعالى إضافة إلى آية التمهيد: وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ..﴾.

والآيات الكريمة التى يجريها الحق تعالى على لسان موسى عليه السلام تفتح الأبصار والبصائر على عجائب صنع الله تعالى وآثار كماله وجلاله.. وكما قال المفسرون: [فما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة، دال على كمال حكمته وعلمه... وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دال على سعة ملكه وسلطانه ومافيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد... وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية.. دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره.

وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود الذى لا تنبغى العبادة والذل والمحبة إلا له وأن رسله صادقون فيما جاءوا به][1]. أ. هـ.

وعلى هذا النحو ينجح الداعية فى مواجهة المدعو بشىء ظاهر.. لتسلمه المشاهد العظيمة فى النهاية إلى التسليم بعظمة الخالق سبحانه وتعالى.. على جهة لا يحس معها بضغط أو إكراه.. لأن مهمة الداعية حينئذ هى: تنشيط ملكات الإنسان لتشاهد .. وتحس.. وتقارن.. ثم تختار.. تختار مايناسبها.. وبمحض إرادتها المشملة طبعا بمشيئة سبحانه وتعالى وما تزال الأرض معرضا لآيات الجمال والكمال.. لمن يحسن استخدامها من الدعاة.. وصولا بالناس إلى الحق المبين.. عن طريق سهل معبد لا تعقيد فيه..ولاجدال.لأن صوت الحق فيها أعلى من كل صوت.. وقد ركز المفسرون على هذه الآيات لتكون فى أيدى الدعاة دليل هداية.

جاء فى تفسير غريب القرآن: وتتجلى منافع هذه النعمة فى أن جعلها صالحة للإعاشة والسكن.. فهى ليست فى غاية الصلابة.. وإنما تكسر. وتحرث وتزرع.

ولو كانت ذهبا أو حديدا ما صلحت لشىء من ذلك.. واستحال عليها الإنبات والحياة.. وذابت وانصهرت فى حرارة الشمس.

كذلك لم يجعلها غاية فى اللين.. حتى تثبت عليها الأشياء.

ولقد جعلها غبراء مُتْربة على نحو ماهى عليه؛ ليستقر عليها النور وتتقبل حرارة الشمس. كذلك جعلها بارزة من الماء مرفوعة عنه. لتصلح مقرا لأهلها...ولم يجعلها على وتيرة واحدة.بل فاضل بين أجزائها.لتتعدد منافعها.. فكانت رخوة ورملية وسبخة... جعلها خازنة للماء المنزل عليها من السماء... وأودع فيها المعادن والفلزات والذهب والفضة وجعل طبعها كريما.. يُدفع إليها

بالبذرة الواحدة فتعيدها أضعافا مضاعفة بقدرته تعالى.

ولهذا كانت مذللة ولم تكن حَزْنة غليظة: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

وهكذا .. يستطيع الداعية الناجح أن يجعل من هذه النعم.. وهى بعض مظاهر كون الأرض مهدا ـ ليقف بالمدعو أمام مسئوليته حين يلزمه كلمة التقوى قائلا له: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا﴾.

هكذا استجابت الأرض لربها طائعة.. فأين أنت أيها الإنسان؟!

لقد أطاعت الأرض خالقها.. عدا الإنسان! الإنسان الذى مهد الله تعالى له الأرض.. وأنزل الماء عذْبا فراتا.. ولم يجعله بمعاصيه ملحا أجاجا!

فأين الإنسان من دلائل الإيمان.. تناديه من مكان قريب؟

﴿إن فى ذلك لآيات لأولى النهى﴾. آيات.. بينات.. وليست آية واحدة..

ولكن لن يعقلها إلا العالمون.. إلا أولو النهى... الذين يُنتهى إلى آرائهم.. لما لهم من عقول تنهاهم عن القبيح.. وتلزمهم بالجميل من القول والفعل.. فليتقدم أولو النهى فى أمتنا .. وما أكثرهم.. ليهزموا ضمائر الغافلين ليتعاملوا مع الكون إبداعا.. بدل أن يتعاملوا مع الدين ابتداعا!

أما بعد.. فيالها من نقلة بعيدة.. بعيدة. حين تجد نفسك أمام حقيقة البعث الذى تفرض نفسها فرضا: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾.

فهذه الأرض الميتة يحييها القادر سبحانه بالمطر.. وهذه الدورات الزراعية الشاهدة بقدرته تعالى على البعث..

وبهذا المنطق البسيط البليغ معا. وبهذه الحركة المباركة من جمال الكون.. إلى تقرير حقيقة قد نُتْعب عقولنا أحيانا بالجدل حولها.. وماهى من الناظرين ببعيد..

ومع وضوح الأدلة أمام فرعون.. ومع صراخ فطرته التى تكذبه فى إنكاره الحق إلا أنه كذب وأبى. لقد آثر العناد.. فحفر بالعناد قبره.. وبيده.. وبينما تتعثر شبهة الباطل افتضاحا.. فإن حجة الحق دائما تتبختر .. اتضاحا.

مؤامرة خاسرة

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَانًا سُوًى. قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى. فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى. قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٥٧ ـ ٦١].

عندما يعلن أباطل إفلاسه فى ميدان الحوار الهادف.. فإنه يلجأ إلى المكر سبيلا إلى لملمة شمله المبعثر أمام الناس..

ولقد كان فرعون ذلك المبطل الذى مثل هذا الدور اللئيم:

لقد أسكت موسى نيران العدو بالكلم الطيب. والحجة الدامغة.. ولكن لاتعدم الخرقاء علة!

فهاهو ذا فرعون.. بدل أن يواجه الرأى بالرأى.. وبدل أن ينسحب من الساحة لينفرد بها الحق الذى هو أحق بها وأهلها.. بدل ذلك يحاول أن يستعدى على موسى عليه السلام.. جماهير الناس. عن طريق إثارة غريزة حب الوطن الكامنة فى قلب الإنسان: ﴿**أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى**﴾.

وناهيك بحب الوطن.. ومايثيره لدى العامة من شغب على من جاء ليجلوهم عنه من حيث إنها صدمة الغريزة المتشبثة بالوطن.

ومع خبث الحركة الفرعونية التى يريد بها فتنة العامة بعدما حاول من قبل فتنة الخاصة بالسؤال عن مصير آبائهم.. مع هذا.. يبقى زمام المبادرة فى يد الداعية الذى يشكل ردُّ الفعل عنده عنصراها مايحدد مصير المواجهة..

فما هو رد الفعل لدى موسى عليه السلام؟ وإلى أى حد يمكن للدعاة الإفادة منه؟

إن فرعون لم يكتف بإثارة العامة على موسى عليه السلام.. لكنه يتحداه أن

يحدد هو ـ أى موسى عليه السلام ـ يوما يختاره تتم فيه المواجهة الحاسمة.. فى حركة يوهم فرعون قومه أنه واثق بنفسه .. وبرجاله.. ومن نصر وشيك يحسم الخلاف..

كان من الممكن لموسى عليه السلام وقد بان فشل فرعون ـ أن يركب موجة الحماس فى خطبة بليغة يعلن فيها إفلاس الطاغية!

ولكن.. ماذا يجدى الحماس فى القضايا المصيرية؟

إن الحماس المندفع.. مع إخلاص صاحبه.. ورغبته فى الإصلاح.. قد يفقده الرؤية الكاشفة.. وقد يقول.. قبل أن يعلم...ويجيب.. قبل أن يفهم.. ويعزم.. قبل أن يفكر.. ويحمد.. قبل أن يجرب.. ويذم .. قبل أن يخبرُ

فإذا أُحكم ضبط هذا الحماس تحقق أملُ الدعوة فى هذا المخلص المتحمس.

لقد احتفظ موسى عليه السلام بأعصابه هادئة.. وانفعاله متزنا.. فبقى زمام الموقف فى يده.. ولسان حاله يقول: لماذا أصرخ.. وصوت الحق أعلى؟

ثم إن الجمهور المفتون بفرعون يشهد.. ويسمع.. متطلعا إلى ما سوف يسفر عنه اللقاء المثير.. وكان من الحكمة أن يكسب الداعية الجمهور إلى جانبه ـ أو على الأقل: تحييده.. ليسقط من حساب فرعون.

وما كان جوابه إلا أن واجه التحدى.. بمثله... وعليه مزيد من الثبات والاعتزاز بالله بدت فيه الثقة بنصر الله تعالى فى تمامها: ﴿**قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى**﴾.

وتأمل كيف وصل التحدى إلى درجة التشبع:

موعدكم.. يوم.. بالنهار.. وليس بالليل.. ثم هو بالذات.. يوم العيد.. وفى لحظة الذروة من هذا اليوم.. وهى لحظة الضحى.. تلك اللحظة التى يحشر فيها كل الناس.. وعلى أرض ملساء.. مكشوفة.. وعلى نفسها جنت براقش.. وعلى نفسه جنى فرعون! وعندما جند فرعون كل إمكانات الدولة لضرب الدعوة الإسلامية.. ظل موسى وهارون عليهما السلام محتفظين بالسمت الوقور..

ومن خلال هذا الوقار تبدو قاعدة من قواعد المنهج الإسلامى وهى: ضرورة إمهال المدعو.. وإعطائه فرصة زمنية لعله أن يراجع نفسه.. وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة فى سورة فاطر:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وفى الوقت الذى يجمع فرعون جنده.. كان موسى عليه السلام على أوفى ما يكون ثقة بنصر الله والفتح:

فلقد حانت الفرصة التى جاء الله تعالى فيها بفرعون وجنده لفيفا.. ليهزمهم جميعا.. وبالضربة القاضية.. جزاء ما قدموا وأجرموا.. ولكن شهوة الانتقام لم يكن لها مكان فى قلب الداعية.. فإن كبير القوم لا يحمل الحقد..

والحل الأمثل.. هو أن تتقدم مشاعر الشفقة لتقول كلمها.. من أجل ناس يحتطبون اليوم فى حبل فرعون.. فإذا هُزم فرعون.. زال السد المانع.. فدخلوا فى دين الله أفواجا.. فخالفوه بعد أن استخفهم فأطاعوه.، وذلك قوله تعالى:

﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾.

ونبرة التهديد هنا أعلى وأقوى. وقوة التهديد وشدته تحسب للداعية. لا عليه:

فعندما يكون المدعو من حفرة النار قاب قوسين أو أدنى.. لا يجديه أن تربت على كتفه.. بل إن الوفاء له يفرض عليك إنذاره. وبشدة. قبل أن تحدث الكارثة.. وذلك قوله تعالى: **﴿ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب..﴾**.

وتسفر الحكمة فى النهاية عن وجهها يشع ضياء فى قوله: **﴿وقد خاب من افترى﴾**.

إنه لم يقل لهم: لقد خِبْتم.. لأنكم افتريتم.. وإنما يعلنها قضية عامة.. وعلى كل سامع أن يتحسس رأسه ليدرك الجرح فى رأسه.. وبيده هو..

إن موسى عليه السلام يستبعد عنصر الإثارة.. حتى لا تزل قدم المدعو فيقع فى الحفرة.. وإنما.. وفى اللحظة الأخيرة يرسله شعاعا هاديا.. آملا فى عود إلى الحق قريب.. ولو أن المدعو العاصى سقط. فقد يحسى الداعية ـ فى لحظة

من لحظات الضعف الإنسانى بالارتياح . لكن أفق الدعاة إلى الله تعالى: أعلى . . وأوسع .

فليس من أهدافهم أن يكسبوا الجولة أمام الباطل كأشخاص .

فليست المسألة انتصارا رياضيا يضيف إلى الفائز رصيدا فى دنيا الجوائز والكوس . .

وأهم من ذلك كله : أن تنتصر قيم الدعوة أولا وأخيرا . . فذلك هو الأمل الوحيد . . والأخير .

ولقد حقق المنطق الحكيم أثره فى صفوف الجبهة المعادية :

﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾ .

لقد كان لهذه الكلمة الجامعة فعل السحر فى صفوف القوم . . بما أحدثته من بلبلة واضطراب . . انتهيا بإعلان السحرة إيمانهم على ما سيجىء بيانه . . وكما قال الحكماء : [لقد أغنت حكمة عن سيف وحساب وقد استثمر بها طاقات خير دفينة فى فطرة الناس . . قدم لها منه القيادة . . فقدمت له منها : المتابعة] .

يقول صاحب الظلال :

[وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة . . تنزل كالقذيفة فى معسكر المبطلين وصفوفهم فتزعزع اعتقادهم فى أنفسهم وفى قدرتهم وفيما هم عليه من عقيدة وفكر .

وموسى وأخوه رجلان . . اثنان . . والسحرة كثيرون . . ووراءهم فرعون وجنده وجبروته . . . ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما الذى يسمع ويرى .

ولعل هذا يفسر لنا موقف فرعون وقومه :

فمن هو موسى . ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ويجمع كيده ثم يأتى ويحشر السحرة ويجمع الناس ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة؟

وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاوله؟ وموسى فرد من بنى إسرائيل

المستعبدين المستذلين تحت قهره؟

إنها البينة التى ألقاها الله تعالى على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى وهى كذلك التى جعلت جملة واحدة توقع االرتباك فى صفوف السحرة المدربين

فتحوجهم إلى التناجى سرا. وإلى تجشم الخطر. . . واستثارة الهمم والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات] أ. هـ.

لقد كان الداعية أمام الباطل على أجمل ماتكون صورة الإنسان: قولا وعملا. . فكسب الجولة. . وأصاب من العدو مقتلا. .

ألا وإن قبح الصورة المادية من شأنه أن يطمس نور الحق فلا تراه العيون. .

وقد يبدو الحق مطاردا. .غريبا. . فلما تعهده أهله بالحكمة فرض وجوده على الوجود: ومازال. . وإلى الأبد. . قادرا على ذلك. . ماوُجد الدعاة المخلصون ـ وإنهم لموجودون بحمد الله. . والأمل موصول أن يحقق الله بهم المأمول.

[من آثار الكلم الطيب]

يقول الله تعالى: ﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى.﴾ الآيات.

وبدأ العدّ التنازلى فى حياة فرعون: بالتنازع .. والشقاق:

فبمجرد أن حذرهم موسى عليه السلام من عقبى الكذب.. بدأ النزاع يدب بينهم.. وفى نفس اللحظة.. كما يشير التعبير بالفاء ﴿فتازعوا ...﴾.

وهكذا الكلمة الطيبة.. التى تحدث من الأثر مالا يحدثه الصاروخ المنطلق:

لقد تعلمنا فى صبانا أن هناك غازا خاملا ينطلق فى الجو.. ولكن لا أثر له هناك.. بيد أنه لو مر بدائرة كهربية صار فعالا بقدرته تعالى... ولقد كان من الممكن لرجل غير موسى عليه السلام أن يقول نفس الكلمة.. فلا يكون لها نفس الأثر..

أما موسى عليه السلام فقد تلقاها عن ربه تعالى.. ثم مرت بدائرة كهربية بقلبه المؤمن الشاعر.. فكان لها ذلك الأثر المحمود.. فتنازعوا أمرهم بينهم..

وإذ ينقل بعض الدعاة الموعظة من ذاكرتهم، لامن قلوبهم.. فإنهم لا يؤثرون.. ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به.. لآتت موعظتهم أكلها..

ومن بين مانُوعظ به : وحده الموحِّدين لتنطلق الكلمة من قاعدة الوحدة فتصيب الهدف.

لقد وقف الدعاة هنا صفا واحدا.. فلم يكن أمرهم مريجا.. ومن ثم آتت الموعظة أكلها بما أحدثت من تمزق على جبهة العدو.. انتهى بهم إلى الهلاك فالاستئصال.. وعلى الدعاة أن يبذلوا فطرة الإسلام الداعية إلى الوحدة إن أرادوا أن يتخذوا إلى هزيمة العدو سبيلا...

ولم لانتحد تحت راية الإسلام.. وكل شعائر الإسلام تدعو إلى الجماعة.

إنّ الموت لا يقطع صلة المؤمن بالمؤمن.. فالحى يلقى على أخيه الميت

السلام... وهو فى سلام القبور... وربنا تعالى لم يقل على لسان أوليائه ـ كما قال العلماء ـ لم يقل: واجعلنا للمتقين أئمة.. وإنما هو إمام واحد.. وراية واحدة تجمع شملنا.. وبلا خلاف.

{السحرة يرددون صوت سيدهم.}

ومن فوق ربوة الوحدة الجامعة نطالع بوادر الخلاف هناك.. ونسمع السحرة يرددون صوت سيدهم فرعون: **﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى..﴾**.

وكم من عائب قولا صحيحا.. وآفته من الفهم السقيم.. ولكن لا بأس.. لا بأس أن يتواصى الباطل بالثبات فى الأمر.. والتواصى بالجد.. والتنادى بالوحدة حتى إذا تم كيده أتاه أمر الله فكان حصيدا كأن لم يغن بالأمس.. وهذا ما فعله السحرة فيما حكته الآيات الكريمة. **﴿فأجمعُوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى﴾** ولاحظ قرب نهاية الباطل عندما وصل به الانحراف إلى درجة التشبع.. لمَّا أضاف إلى التبعية الذليلة لفرعون.. فساد فكره المتمثل فى قولهم: **﴿وقد أفلح يوم من استعلى﴾**.

إن الباطل هنا يستند إلى جدار مائل.. وقاعدة باطلة.. حين يقصر الفلاح على من استكبر وطغى.. مع أن سنة الفلاح أنه للمؤمنين: **﴿قد أفلح المؤمنون﴾**.

ويجمع الباطل أعصابه المهلهة فيما يشبه رقصة الطائر الذبيح وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: **﴿قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى..﴾**.

وعندئذ يستجمع الباطل عناصر فنائه.. فتوشك شمسه أن تغيب.. وقد بدأت تلم أشعتها بالفعل.. عندما جاءت ساعة الصفر بهذا الإيناس فى قوله تعالى: **﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما فى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾**.

وهكذا: فى المنعطفات الخطيرة.. يبدو الباطل منتشيا مغرورا.. يتنادى أصحابه بالويل والثبور.. وقد تعترى الحق رعشة.. هزة.. يفرضها الطبع البشرى. وسرعان مايفيق ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾.. مبصرون بالإيمان بطبيعة الصراع.. وشتة الخلاف بين الحزبين: حزب الله.. وحزب الشيطان.. ومايترتب على ذلك من ثقة بنصر الله مهما بدا الباطل فى هالة من عدده وعدته..

وإذ يحس فرعون بأن الأمر بيده فإن موسى عليه السلام موقن بأن مقاليد الأمور كلها بيد خالق فرعون وهو الله سبحانه... ثم تكون المفاجأة التى لم تكن تخطر على البال بحال: ﴿فألقى السحرة سجدا..﴾ وليس هذا فقط بل أعلنوها صريحة مدويه وبين يدى فرعون [قالوا آمنا برب هارون وموسى].

والمفاجآت فى جانبيها السَّار.. والضار.. امتحان صعب.. حيث لم تكن النفوس مستعدة لتلقيها..

ومن حكمة الله تعالى أن تكون.. ليعلم الدعاة أن الأمر بيد الله تعالى أولا وأخيرا.. حتى يكون: يقين.. بلا شك.. وتضحية.. بلا انقطاع. وأمل لايذبل فى نصر الله..

وإذ يستهوينا المشهد كمسلمين اليوم فلا ينبغى أن ينسينا الانبهار أسباب الانتصار والتى تمثلها الداعية هنا: موسى عليه السلام.

إنه الذكاء المحكوم بالإيمان.. والذى يخطط للدعوة بالحكمة.. ثم ما كان يتمتع به موسى عليه السلام من خلق: العزيمة المصرة على الحق.. الصابرة على مغارمه.. كما أشار إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الكهف: ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حُقُبًا﴾ ويبقى المشهد درسا للدعاة على مدار الزمان.

يقول صاحب الظلال:

[إن التجارب والابتلاءات تعلم الدعاة كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك

والصخور. . .

والذى يقع غالبا أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بين المجرمين وأصحاب الدعوات حتى إذا تضخم رصيد التضحيات والآلام فى صف أصحاب الدعوات وهم ثابتون على دعوتهم ماضون فى طريقتهم قالت الكثرة المتفرجة أو شعرت: أنه لا يمسك أصحاب الدعوة على دعوتهم على الرغم من التضحيات والآلام إلا أن فى هذه الدعوة أغلى مما يضحون به وأثمن.

وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة لترى ماهو هذا العنصر الغالى الثمين الذى يرجح كل أعراض الحياة. .

وعندئذ يدخل المتفرجون أفواجا فى هذه العقيدة بعد طول التفرج]ا. هـ

وهكذا. . يدخل السحرة فى دين الله. . وهم ـ كما تقول بعض الروايات ـ سبعون ألفا. . وأحس فرعون بخطر الأثر المترتب على إيمان السحرة. . والذى قد يحمل الجمهور على أن يؤمنوا كما آمن السحرة. .

من أجل ذلك رمى بآخر سهم فى جعبته . . لعله أن يخدع الجمهور المفتون بما رأى وما سمع . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿قال آمنتم له قبل آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى﴾.

ولكن التهديد الرعيب يأتى بعد فوات الأوان: لقد حلل الله تعالى بنور الحكمة ظلمة الباطل أمامهم فسجدوا. . معلنين إيمانهم. . إيمانهم: الذى ولد قويا. . ولقد بلغ من قوته أن تغلغل فى أعصابهم. . فملك عليهم وجودهم كله. . فضحوا بأجسامهم. . تلك التى يمكن أن يتحكم فيها الطاغية. . ليفعل بها ما يشاء. . فى سبيل دار هى الحيوان. . لو كان الطغاة يعلمون. .

وإذن فقد صار السحرة. . سحرة الأمس يعلمون الناس اليوم معنى الإيمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

والعاقل من استطاع أن يحل المعادلة هنا: إنه يخاطر بحياته.. وماله.. بعدما علم أن ما يخاطر له ـ وهو الجنة ـ أجل مما يخاطر به.. وهو الحياة..

ومن هنا كان ردهم تهديد فرعون طعنة أخرى لفرعون: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣]..

ورغم فداحة الوعيد.. لكن الإصرار على الإيمان كان أقوى وما ظنك برجل لا يخاف الموت؟

قائلا:

ليت شعري فإنى لست أدرى	أىُّ يوم يكون آخر عمرى
وبأى البلاد تنزع روحى	وبأى البقاع يحفر قبرى

إن رجلا من هذا الطراز هو التحدى الأكبر لفرعون..

وأين منه ذلك الجبان الرعديد الذى يموت.. قبل أن يموت على حد قول الشاعر:

كأن الجبان يرى أنه	سيقتل قبل انقضاء الأجل
فقد تدرك الحادثات الجبان	ويسلم فيها الشجاع البطل

أما بعد: فقد استطاع موسى عليه السلام بالحكمة أن يعبّد الطريق أمام سبعين ألفا من السحرة ليدخلوا فى دين الله أفواجا...

واستطاعت الكلمة الهينة اللينة أن تطوح بفرعون وجنده من فوق كرسيه العالى.. باللسان ـ لا بالسنان.. بالحوار.. لا بالمواجهة.. لقد فعل الداعية ما أمر به من الحكمة واللين.. فحقق الله وعده بالنصر المبين:

وماهى إلا ليلة ثم يومها	وحولٌ إلى حول وشهر إلى شهر
مطايا يقربن الصحيح من البلى	ويدنين أشلاء الكريم من القبر
ويتركن أزواج الغيور لغيره	ويقسمن ما يحوى الشحيح من الوفر

مغارم الحق

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ. وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٤ ـ ٧٦].

وتلمح فى خطاب السحرة بركة من بركات موسى عليه السلام، وقبسا من نور حكمته، عندما يواجهون الطاغية بالحكمة كما تعلموها من موسى فلا يدمغون فرعون بالإجرام ـ وإن كان كذلك ـ فلعل لحظة الهداية قد حانت، فيمضى مثلهم على الطريق ، فليمسك الدعاة بالأمل فى نصر الله وإن لم تلح فى الأفق بادرة عزاء. .. فمقلب القلوب والأبصار، قادر على أن يغير الموقف لحساب الحق فى لحظة واحدة.

يقول الدكتور محمد سعد جلال.

[إن أهل الحق إذا عرفوه هامت بمعرفته أرواحهم، وهانت فى إظهاره، والموت من دونه نفوسهم. . . وتحقق فى الفناء به وجودهم، وبرقت فى سفك دمائهم من أجله بوارق سعادتهم. . . وصرخ بدعائهم به، وإليه هدر البحر ، وزمجرة الرعد وعصف الرياح، وزئير الوحش فى الفلوات. . . ولولا ذلك ماقامت للحق دولة، ولا انتصب له فى الناس قامة.

وأقل من مطار الأرواح عن الأبدان، سقوط الرءوس عن الأجساد فى وصال الحق يكذب العاشقون ويزيف المزيفون.

وفى ضوء هذا التصوير لموضع الحق فى نفس أهله، ندرك الأبعاد الحقيقية لموقف السحرة من تهديد فرعون لهم بالقطع والصلب. . إذا قالوا رداً على تهديده لهم: ﴿لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون﴾.

إنهم بعد عرفانهم بالحق، وإسلام أنفسهم له، لا يجدون ضررا عليهم من

إزهاق أرواحهم، وتقطيع أوصالهم... فإذا لم يكن فى ذلك الضرر كل الضرر، فأين هو الضرر الذى يخشاه الحى إذن؟

الضرر عند هؤلاء هو المساس بقدسية الحق، الذى هو أعز عليهم من أنفسهم... فإذا سلم بهم شخص الحق ، وأعطى التمكن من الظهور فى الأرض، فلا ضرر عليهم بعد ذلك فى شىء.

إنهم من هذه الدنيا راجعون إلى لقاء الله، والنعيم بقربه ورضوانه... إنهم راجعون إلى الحق الأعظم الذى فاضت من أنوار جلاله، وشمول علمه كل أنواع الحق فى العالم... فهم فى عشقهم للحق، وعلى درب هيامهم به راجعون إلى هذا الحق الأعظم، الذى تفرق فى نور جلاله أرواحهم، فتجد من اللذة والنعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر].

إن الشهداء لا يموتون، وإذا توقف الجلادون يوما على جثث الضحايا ظانين أنهم حققوا نصرًا، فإن الواقع شاهد بأن النصر كان للمبادئ التى مات أصحابها لتحيا فيمن بعدهم.

يقول أحد الباحثين:

إننا نخطئ إذا تصورنا أن أصحاب الفكر وأرباب العقول والآراء يلحق بهم الفناء، إنهم لا يزالون أحياء فى تراثهم، أحياء فى أفكارهم المحفوظة فى بطون الكتب... الحمقى فقط هم الذين يموتون كما تموت البعير، أما المفكرون فإنهم أحياء يعيشون معنا من خلال الكلمات التى سطروها فى كتب لا تزال باقية حتى لو مضى أصحابها إلى العالم الآخر... الأفكار لا تموت والكلمات لا تفنى... ولذلك تجد أفكارا قديمة لا تزال حية تؤثر فى مجرى الأحداث رغم أن أصحابها ماتوا.. هنا تكتسب الكلمة تفوق السيف فى مضائه وقوته... فالسيف يقطع الرقاب ولكنه لا يمحو الكلمات.. وقد يفقد صاحب الكلمة حياته ولكن كلماته تظل باقية حية تظل تتمدد بمضى العصور وتستعيدها الأجيال المتعاقبة لأنها لا تروق لهم فيوردون صاحبها مورد الهلاك ثم يكتشفون أن الكيد ارتد إلى نحورهم.

هكذا فعل فرعون مع موسى وحكام أثينا مع سقراط والخليفة المنصور مع الأديب عبد الله بن المقفع والمعتصم مع الإمام أحمد بن حنبل والخليفة المقتدر مع الفيلسوف الصوفى الحلاج، وهكذا فعل أباطرة أوربا مع الأطهار الذين ثاروا على فساد روما وكنيستها.

ودلت تجارب الأمم على أن الأفكار لا تموت بالسيف ولا تحرق بالنار، وإنما يزيدها القمع انتشاراً وخلودا رغم أنف الجبابرة والمتسلطين.

لقد ركب دقلديانوس - إمبراطور بيزنطة أعلى خيوله وخاض فى دماء أقباط مصر على أمل أن يقضى على دين المسيح ويبقى على وثنية بيزنطة فماذا كانت النتيجة لقد دخل الناس فى دين الله أفواجا وتحولت المعابد الوثنية إلى كنائس وبيع وأديرة يذكر فيها اسم الله وعندما وجد دقلديانوس ذلك اعترته الدهشة فاعتزل الحكم وذهب يزرع الكرنب فى الريف ويفكر فى هذا العالم العجيب.

وعاشت محاكم التفتيش فى أوربا المسيحية ٥٠٠ سنة قتلت فيها الألوف من المسلمين واليهود والنصارى فى الأندلس ولم يكن ضحايا هذه المحاكم مع الدهماء الذين يرعون كما ترعى الأنعام، أو يرضون بما يلى عليهم.. أو يستسلمون للدجالين وتجار الدين وإنما كانوا من أهدى الناس وأخيرهم كانت لهم كرامة فكرية لا يبيعونها بنفوسهم وكان لهم غرض دينى يضحون من أجله، وكان لهم ضمير يأبون المساومة عليه، هؤلاء الناس قتلتهم محاكم التفتيش حرقا فى الوقت الذى كان فيه البابا إسكندر السادس (بورجيا) يحيط نفسه بالغوانى والراقصات والبغايا.. ولا ينام منفردا فى فراشه أنجب العديد من الأبناء اللقطاء ولا يتورع عن مسلك الفجور فى العلن، بل فى وجود بناته وأفراد حاشيته الفاسدة حتى عرف عنه الاعتداء على المحارم والولع بالغلمان على الطريقة الإغريقية القديمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع	الصفحة

فى سورة طه

الموضوع	الصفحة

سيرة ذاتية

د. محمود محمد محمد عمارة

- من مواليد «سلامون» مركز الشهداء. منوفية عام ١٩٢٩ .
- حاصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٦ .
- حاصل تخصص التدريس من كلية اللغة العربية عام ١٩٥٧ .
- عين مدرسا فى نفس العام بمعهد أسيوط الدينى ـ ثم معهد دسوق ـ معهد منوف ـ ثم أعير للجامعة الإسلامية بليبيا من سنة١٩٦٢ـ١٩٦٦م وعاد إلى معهد بنى مزاز ثم معهد فتيات المعادى ثم منوف.
- حصل على الماجستير فى الدعوة ١٩٧٠ .
- حصل على الدكتوراه فى الدعوة ١٩٧٥
- عمل مدرسا بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة وأستاذا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- كان عضوا باللجنة المركزية وناقش الرئيس الراحل أنور السادات ـ أثناء اشتراكه فى وضع دستور مصر ـ فى ضرورة أن تكون الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع ووافق على اقتراحه.
- يكتب فى الصحف والمجلات منذ أن كان طالبا بالثانوى.
- اشترك فى بعض المؤتمرات الإسلامية خارج مصر.

كتب المؤلف

كتب مطبوعة

١ ـ تربية الأولاد فى الإسلام.

٢ ـ نوح عليه السلام.

٣ ـ نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية.

٤ ـ صفحات من تاريخ المرأة المسلمة.

٥ ـ اليهود فى الكتب المقدسة.

٦ـ الخطابة فى موكب الدعوة.

٧ ـ شبابنا بين العلم الناقص والعلم الجامد.

٨ ـ عزة المؤمن.

٩ ـ من فقه عمر.

١٠ ـ تأملات فى السيرة.

١١ ـ من الذى يغير المنكر وكيف.

١٢ ـ فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام.

١٣ـ مؤمن آل فرعون... ودروس فى الدعوة.

١٤ ـ نحو مجتمع بلا مشكلات.

١٥ـ نحو أسرة بلا مشكلات.

١٦ ـ أصول الدعوة من قصة إبراهيم عليه السلام.

١٧ ـ الحج بين الدوافع والمنافع.

١٨ ـ الهجرة والإعداد للمستقبل.

١٩ ـ سائح فى رياض القرآن.

٢٠ ـ من فقه الصيام.

كتب تحت الطبع

١ ـ الدعـــــوة بين كيد الطغاة وحكمة الدعاء.

٢ ـ ثمرات من حدائق السنة.

٣ ـ فى رحاب السنة.

٤ ـ الإعلام الإسلامى فى مواجهة الإعلام المادى.

٥ ـ تقدمة التلاوة.

٦ ـ حماية العرض فى الإسلام.

٧ ـ تأملات فى غزوة تبوك.

٨ ـ فواتح فى أدب الصحبة.

٩ ـ من مجالس العلم.

١٠ ـ دروس تصلح بها النفوس من الدين والحياة.